فلسفة التاريخ العثماني

كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية
والى اي حد بلغت عظمتها

تأليف

محمد جميل بيهم

كتاب سياسي اجتماعي مزدان بالرسوم والخرائط، موضوعه الامبراطورية العثمانية إلا انه لما كان لا يعتمد في بحثه طريقة سرد الحوادث المجردة وانما يتحرى عواملها واسبابها وفقاً لما تتطلبه فلسفة التاريخ جاء بمثابة تاريخ سياسي عام لدول اوروبا الحاضرة والغابرة، فضلا عن الترك والمغول وسائر ممالك الاسلام. وهو زيادة على ذلك يلم بتاريخ التمدن الحديث ومافيه من تغالب السلطتين الزمنية والروحية، وما كان للعرب عليه من التأثير، معتمداً في ذلك ثقات المؤرخين الشرقيين والغربيين

طبع بمطبعة «مكتبة صادر» في بيروت . رجب سنة ١٣٤٣

الموافق – شباط سنة ١٩٢٥

فلسفة
التاريخ العثماني

كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية
والى اي حد بلغت عظمتها

تأليف

محمد جميل بيهم

كتاب سياسي اجتماعي مزدان بالرسوم والخرائط ، موضوعه الامبراطورية العثمانية إلا انه لما كان لا يعتمد في بحثه طريقة سرد الحوادث المجردة وانما يتحرى عواملها واسبابها وفقاً لما تتطلبه فلسفة التاريخ جاء بمثابة تاريخ سياسي عـام لدول اوروبا الحاضرة والغابرة ، فضلا عن الترك والمغول وسائر ممالك الاسلام . وهو زيادة على ذلك يلم بتاريخ التمدن الحديث ومافيه من تغالب السلطتين الزمنية والروحية ، وما كان للعرب عليه من التأثير ، معتمداً في ذلك ثقات المؤرخين الشرقيين والغربيين

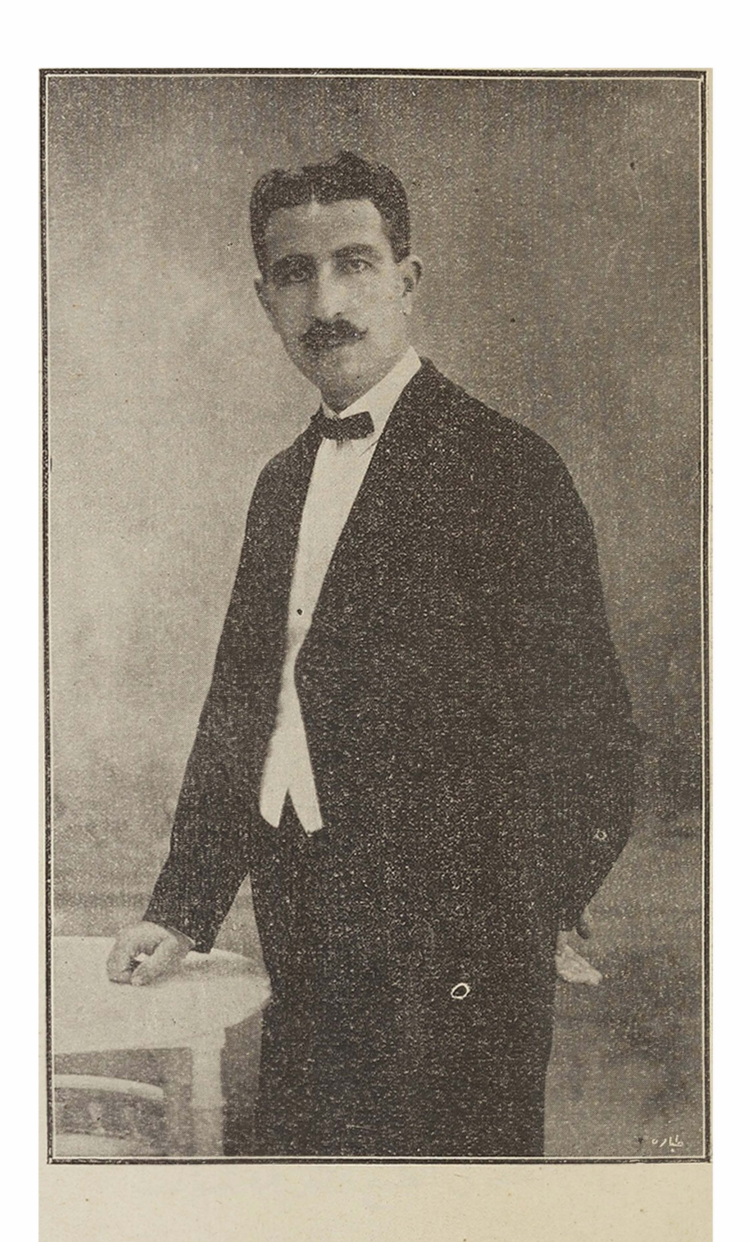
طبع بمطبعة « مكتبة صادر » في بيروت . رجب سنة ١٣٣٤
الموافق — شباط سنة ١٩٢٥

المرأة في التاريخ والشرائع

لمؤلف هذا الكتاب

كتاب كبير مصور فيه ٢٧ رسماً . يبحث عن تطور المرأة في التاريخ منذ عهد البشر البدائي الى حيث تبوأت مقاعد مجالس الامم . فيشمل الكلام المرأة المصرية والبابلية والاشورية والصينية واليابانية والرومانية والفينيقية ، ويتوسع في موضوع المرأة العربية قبل الاسلام وبعده . ثم يختتم في بيان تطور المرأة في التمدن الحديث في الغرب والشرق .

يطلب الكتاب من المكتبات العربية في كل الامصار ومن مؤلفه في بيروت وثمنه عشرون غرشاً مصرياً



رسم المؤلف

فلسفة التاريخ العثماني

كيف نشأت وارتقت السلطنة العثمانية والى اي حد بلغت عظمتها

تأليف

محمد جميل بيهم

كتاب سياسي اجتماعي مزدان بالرسوم والخرائط، موضوعه الامبراطورية العثمانية إلا انه لما كان لايعتمد في بحثه طريقة سرد الحوادث المجردة وانما يتحرى عواملها واسبابها وفقاً لما تتطلبه فلسفة التاريخ جاء بمثابة تاريخ سياسي عام لدول اوروبا الحاضرة والغابرة، فضلا عن الترك والمغول وسائر ممالك الاسلام . وهو زيادة على ذلك يلم بتاريخ التمدن الحديث وما فيه من تغالب السلطتين الزمنية والروحية، وما كان للعرب عليه من التأثير، معتمداً في ذلك ثقات المؤرخين الشرقيين والغربيين

طبع بمطبعة « مكتبة صادر » في بيروت . رجب سنة ١٣٣٤

الموافق – شباط سنة ١٩٢٥

الى السيدة هدى شعراوي رئيسة الاتحاد النسائي في مصر،
وزعيمة نهضة المرأة في العالم العربي

يقدم هذا الكتاب ممن يفاخر بكونه احد نصراء هذه
النهضة.

المؤلف

مقدمة الكتاب

امة كانت في جوار الصين خاملة الجاه خافتة الذكر ، لا تعرف جارتها عن شؤونها الداخلية شيئاً مذكوراً ، لم تلبث ان تغلبت على الصين وعلى سائر الشرقين الاوسط والادنى ، ثم لم تزل تتوقل في العلى الى ان انجبت دولة ، بين من انجبت ، استطاعت ان تستحوذ حيناً على سيادة البر والبحر ، واصبحت حديث الامم ، ومحور سياسة العالم في اجيال عدة ، فرفعت مقام امتها الى الرتب الجليلة والمعالي الخطيرة

تلك امة الترك التي انجبت امبراطورية آل عثمان . ومع ان تلك الامة وهاته الدولة لم تزالا في تماس شديد مع قومنا العرب منذ ازمان بعيدة لم نر في لغتنا مؤلفاً يبحث في فلسفة تاريخهما ذلك التاريخ الذي كاد يطبع سيرة المسلمين بطابعه ، واوشك ان يكون شاملاً لتاريخ العالم .

لذلك ولما كانت سلطنة آل عثمان قد استوفت قسطها من الحياة ، بما فيها من رقي وهبوط ، واحسان واساءة ، اقدمت على املاء هذا الفراغ ، فعمدت الى وضع مؤلف في فلسفة تاريخ آل عثمان يقسم الى كتابين اثنين : الاول منهما يبحث (بعد ايراد مقدمة موجزة في تاريخ الترك والمغول) عن العوامل الزمانية والمكانية والمعنوية التي عملت على نشوء دولتهم ورقيها ، وينتهي بفصل يتضمن امثلة مما بلغته من البسوق والسموق . والثاني منهما يبحث عن الاسباب الداخلية والخارجية ومسبباتها التي قضت بانحطاطها ، وحكمت بزوالها . ولا اريد بذلك خدمة اللغة العربية

وابنائها فحسب وانما ارغب في اظهار ما كان للترك عامة وللعثمانيين خاصة من التأثير ، ان خيراً او شراً ، على احوال العالم ولا سيما الشرق الادنى الذي اظلته رايتهم قروناً عديدة .

ولم تقتصر ابحاث مؤلفي هذا على فلسفة التاريخ العثماني الذي اسميته به ، بل شملت معظم تواريخ الامم التي سبقت نشوء السلطنة العثمانية والتي عاصرتها في عهدي رقيها وانحطاطها . لان فلسفة التاريخ كما تستدعي ربط الاسباب بالمسببات تورد العوامل الداخلية والخارجية التي تؤثر في تطور الامم . ولا يخفى ما بين شعوب العالم من الارتباط العام . فهو اذاً يكاد يكون تاريخاً سياسياً عاماً نحن في مسيس الحاجة اليه .

وقد توخيت صحة الاخبار والاعتدال في الاحكام . فان لوحظ في كتابي هذا اطراء ما لدولة آل عثمان ، فما هو الا لان الابحاث عن امجاد الامم تؤدي طبعاً الى الاشارة الى محاسنها . وان بدا في الكتاب التالي انتقاد عليها فليس هو بمقصود ، وانما الكلام على انحطاط الدول يؤدي الى اظهار مساوئها . على ان قلمي القاصر لم يعتد قط التعرض للمدح او للذم . وناهيك بانه لم يبق بعد زوال تلك السلطنة التي نؤرخها من امل في اطرائها ، او خوف من انتقادها . ولما كان موضوع مثل هذا الكتاب حديثاً في لغتنا وشاقاً على رائد بيدائه اضطررت ان اصرف بضعة اعوام في التنقيب عن مواده وجمع شتاته ، ومثلته للطبع وانا موقن من انني لم ابلغ الغاية التي اليها قصدت . وجل ما رميت اليه ان امهد السبيل لمن يريد ان يكمل ما بدأت بهِ «وفوق كل ذي علم عليم .»

بيروت في ١ رجب ١٣٤٣ محمد جميل بيهم

١

تاريخ الترك

« قبل آل عثمان »

في هذا الجزء خلاصة تاريخ الترك قبل وفي عهد الاسلام الى العصر المغولي .
ويأتي فيه بيان الاسباب التي ساعدت العرب وشريعتهم على التغلب
عليهم ، ثم كيف دخل الترك الى ديار الخلفاء مماليك
فانقلبوا فيها الى سادة مستأثرين

فهرست الجزء الاول

الجزء الاول

ان فلسفة التاريخ لا تشبه التاريخ المجرد، الذي يقتصر على ذكر الحادث فيخف اليه فوراً، وانما هي، بما عليها من تعليل الحوادث وربط الاسباب بالمسببات، ذات واجبات أكثر حتى انها لتحتاج احياناً الى ان ترجع الى الاصول مهما بعدت. لذلك فقد رأينا من الواجب، قبل ان نباشر البحث عن آل عثمان، ان نمهد له بايراد خلاصة من تطور تاريخ الترك وما تخلله من الحوادث التي عملت على ظهور الامبراطورية العثمانية وفلاحها. وقد قسمنا هذا البحث الى قسمين (١) الترك قبل الاسلام (٢) الترك في الاسلام. وينتهي القسم الاخير منهما في بداية العهد المغولي الجنكيزي.

الترك قبل الاسلام

١

عديدة هي تواريخ الأمم القديمة التي لا تزال غامضة، ولكن قد لا يوجد مثل الترك قوم ما فتئوا منذ مئات الاجيال مشغلة افكار العالم المتمدن، وهو مع ذلك يكاد يجهل، حتى الان، حقيقة اخبارهم الغابرة قبل اختلاطهم به الاخير

توسطت منازلهم بين الصين وفارس، بيدان هاتين الدولتين على رغم

تواصلهما مع الترك ، بالحروب تارة وبالمعاهدات طوراً ، ما كانتا تعلمان تاريخهم اكثر بكثير من سواهما ، لانهما كانتا تحاذران كل الحذر التوغل في ديارهم خوفاً من بأسهم ، فتبقيان على قربهما بعيدتان اسوة بغيرهما

ولذلك تضاربت اقوال المؤرخين في نسبهم . فالمسلمون منهم جزوا على حسب عادتهم في تسلسل الأمم من نوح وبنيهِ فأرجعوهم الى يافث ، وزاد الترك البوذيون على ذلك النسب قصة العذراء المستعارة من مذهبهم .[1] وجاء في التقسيم القديم الاثنولوجي انهم من جملة القبائل القوقاسية : لان عدة قبائل منهم تشبه كل الشبه او بعضه امم القوقاس في الاخلاق الطبيعية[2]

وكذلك اختلفت روايات المؤرخين في تعداد فصائلهم : وتبعاً لأبي الغازي خان خوارزم في القرن ١٨ م عدها بعضهم خمساً : وهم القبجاق (اهل البادية) والأويغور (المجتمعون اصحاب شريعة) والقانقلي[3] (الزراع) والقالاج (رجال السيف) والقارلوق (الثلجيون)

اما خلاصة ما يستفاد من الروايات التركية المغولية والصينية عن تاريخ الترك القديم . انه كان يقطن فيما وراء السد الصيني الكبير[4] عشائر بربرية ، تفاقم شرها على حدود الصين فاقام شي ونغ تي مؤسس العائلة

(١) L. Cahun. Int. a l'hist. de l'Asie p 83-87

(٢) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٩٤

(٣) يرجع أصل قبيلة قايي خان التي صدر منها آل عثمان الى عشيرة قانقلي

(٤) للمؤلف مقال ضاف في مقتطف مايس ١٩٢٤ عن هذا السد ومَن هم يأجوج ومأجوج

المالكة الرابعة تسين (٢١٤—١٠٤ ق م) وانشأ بوجهها ذلك السد، على طول ١٢٥٠ ميلا [١]

وكان الصينيون يطلقون على تلك العشائر هيونغ نو Hioung-Nou اي الرعية المتمردة . ويسمون الترك وهم فصيلة من تلك الرعية طو كيو Tou-Kiou . ثم لم يلبثو ان لقبوا، في القرن السادس للميلاد، بلقب ترك تلك العشائر التي وراء السد كافة . والأرجح ان هذا اللقب محرف من طوكيو، وانهم اطلقوه على الجميع لتغلب وتفوق حدث وقتئذ في الفصيلة التركية على اخواتها . اما موقف الصين تجاه هؤلاء البرابرة فقد اختلف باختلاف تطور قوتها، ما بين دفاع وهجوم :

فان الانشقاق الذي حدث فيها بعد ذلك الملك الجائر شي ونغ تي أضعف الفائدة من السور الكبير الذي شيده، وجعل البلاد عرضة لغزوات الترك المغول . ولم يتسنَّ من بعد للصين ان تتخذ خطة الهجوم الا لما عادت اليها وحدتها في العصر الأول ق م في حكم عائلة هان . وقد نجحت في خطتها هذه كل النجاح فامتلكت جونغاريا [٢] وبلغت وادي نهر ايلي [٣] ومنفذ وادي نهر سيحون [٤] مما اضطر الترك المغول حينئذ ان ينشطروا الى شطرين : شطر جاء طائعا فالتف حول المعسكرات الصينية،

(١) الخانجي منجم العمران ج ٢ ص ٢٨٦

(٢) جنغاريا Dzoungarie كانت الصين تسميها به-- لو اي الطريق الشمالية . وهي الان بلاد تؤدي الجزية للصين

(٣) ايلي Illi نهر في اواسط اسيا يصب في بحيرة بلكاش Balkach

(٤) سيحون Syr daria نهر مشهور قرب خجندة بعد سمرقند يصب في بحر آرال

وشطر ابى الخضوع فنفر الى الجهة الغربية . ولكن الظفر لبث حليف الصين حتى لم يرَ خاقان(١) الترك بدا في آخر الأمر (سنة ٥١ ق م) من بذل الطاعة وتناول مرتب منها

غير انها كانت طاعة قسرية ، فما نشبت بعيد ذلك الاضطرابات الداخليــة في الصين ، التي دامت سبعين عاماً ، الا وعاد الخاقان لعصيانه ، واعلان استقلاله ، واستمر على ذلك الى ان توطد الملك لعائلة الهان الشرقيين (٢٥ م) . وحينئذ فان هــذه الدولة الجديدة لم تبسط نفوذها عليــه فحسب ، بل انها بمساعدة الترك الويغور أقامت بفتوحاتهــا حاجزا بين (الهي يونغ نو) الرعيــة المتمردة الشرقيين والغربيين منهــم (٤٦ م) فأضعفت جامعتهم

وساعد على نشاط الصين وقتئــذ امران (١) انتشار الدين البوذي بينهم في اثناء ماكانت المسيحية تنتشر بين الرومان (٢) وقوع الخلاف بين خاقان الترك واخيه البكر وانحياز الثاني اليها ، فانزلته مع حزبه في الجانب الشمالي من السد ، واعترفت به دون اخيه خاقانا

ولكن انزال فريق من الترك في جانب السد كان على الصين سيء العاقبة : لان الترك المغول الذين كانوا ينزلون على حدودها استقووا في قومهم الجدد ، وصاروا جميعاً وسيلة اضطراب مستمر للامبرطورية الصينية ، ولا سيما حينما تتأخر عن تأدية مرتباتهم

---

(١) خاقان لقب ملوك الترك كما ان الأخشيد لملوك فرغانه ومعناهما ملك الملوك والاصبهذ لقب ملوك طبرستان وصول لقب ملك جرجان والافشين لقب ملك اشروسنة وسامان لقب ملك سمرقند

لذلك فان الامبراطور منك تي Ming-Ti اراد ان يستأصل شرهم ، فعهد بقتالهم الى بطل الدولة بان تشاوو الذي قام في المهمة خير قيام : فانه بعد ان دوخ كاشغر [١] وطرد الهي يونغ نو الشماليين منها ومن جنغاريا زحف بالترك المغول الموالين له لفتح اسيا الغربية تاركاً فرقة من جيش الصين تتعقب العصاة والاعداء

وهكذا فقد ضيق الصينيون عليهم الخناق حتى حصروهم في رقبة جبل الطاي [٢] ، وجعلوا فريقاً منهم يخترق خط الحصار ، في فراره ، وينزل غربا عند قبائل القبجاق .

وما اتى الفرج الى الترك الا لما اصاب الصين فيما بعد تلك الاضطرابات السياسية التي اودت بحياة دولة الهان الشرقيين وادت الى انقسام الامبراطورية الى ثلاث حكومات منذ عام ٢٢١ الى ٥٨٩ م . فانهم في اثناء هذا التجزؤ لعبوا ادواراً مهمة وناجحة : فقد رأوا ، في تحارب هذه الحكومات بينها حاجة لكل منها الى نصرتهم ، فساوموها . وبعد ان دخلوا في خدمة حكومة الشمال توفقوا للتغلب عليها والقيام على انقاضها ٣٠٨ م . وتدرجوا لتأسيس سواها من الدول المستقلة

على ان مصيبة الصين لم تقتصر على افادة جيرانهم من الترك فقط ،

---

(١) كاشغر Kachgarie في تركستان الشرقية ويسميها الصينيون نان لو اي الطريق الجنوبية

(٢) الطاي Altaï سلسلة جبال طويلة في وسط آسيا يسميها الترك التون طاغ ذكرها البحتري بشعره

بل انها شملت سواهم ايضاً : فان سكان مابين نهري اورال[١] وفولكا[٢] شرعوا منذ بداية القرن الخامس للميلاد يتقدمون في الجهة الغربية ويتنازعون بينهم السهول الممتدة من نهر فولكا الى الدانوب[٣] . وهؤلاء هم الذين عرفوا بالهون[٤] ، ومن بقاياهم المجر والبافار والتركمان والمغول .

وكذلك فان الترك النازلين ما بين الصين وفارس تقدموا ايضاً الى الجهة الغربية لسببين . اولهما : لان ابناء عمهم الترك المتغلبين على الصين احكموا التضييق عليهم حتى احرجوهم فاخرجوهم . وثانيهما : لان قيام العائلة الساسانية في فارس ٢٢٦ ق م—٦٥١ م مكان البارت[٥] الذين هم من فصيلة الترك سد على اولئك منافذ الحياة فاندفعوا للاغارة على فارس واستمروا على ذلك حتى اذا ما اشتبكت بدفع الرومان ثم العرب تمكنوا من احتلال بلاد ما بين نهري سيحون وجيحون والاستحواذ عليها

اما الترك النازلون في جبل ألطاي وما يلي الصين الخاضعين لها

(١) اورال Oural نهر في شمال بحر الخزر يصب فيه طوله ١٧٠٠ كيلومترا

(٢) فولكا Volga نهر في روسيا منبعه في كثب فالداي ومصبه في بحر الخزر وله سبعون فوهة ومساحته ٣٨٠٠ كيلومتراً وهو اكبر انهر اوربا

(٣) Danube نهر كبير يمتد من منبعه في المانيا الى مصبه في البحر الاسود ٢٨٠٠ كيلومتراً

(٤) الهون Huns شعب برابرة من شمال بحر الخزر اكتسحوا اوروبا في القرن الخامس للميلاد بقيادة اتيلا .

(٥) البارت Parthes من برابرة الشمال الغربي من اسية كانوا ينزلون في جرجان على شاطئ بحر الخزر ثم تغلبوا على فارس عام ٢٥٠ حتى سنة ٢٢٦ قم واشتهروا بالفروسية وأنهم يخيفون حينما يتظاهرون بالفرار اذ يصوبون سهامهم على الاعداء ويطلقونها من تحت اباطهم فلا تخيب.

فانهم زحفوا وقتئذ باسمها وامتلكوا كلاً من جنغاريا (الطريق الشمالية) وكاشغر (الطريق الجنوبية) فاعادوا بذلك خط التواصل ما بين المشرق والمغرب . كما انهم باستخضاعهم العشائر التركية ، في كل من آسية الوسطى والشمالية ، عملوا على نشر سيطرة الصين حتى حدود فارس وبيزنطة

وكان مما وثق بينهما الرابطة والف بين قلوبهم اعتناق اولئك الترك دين الصين جارتهم [١]

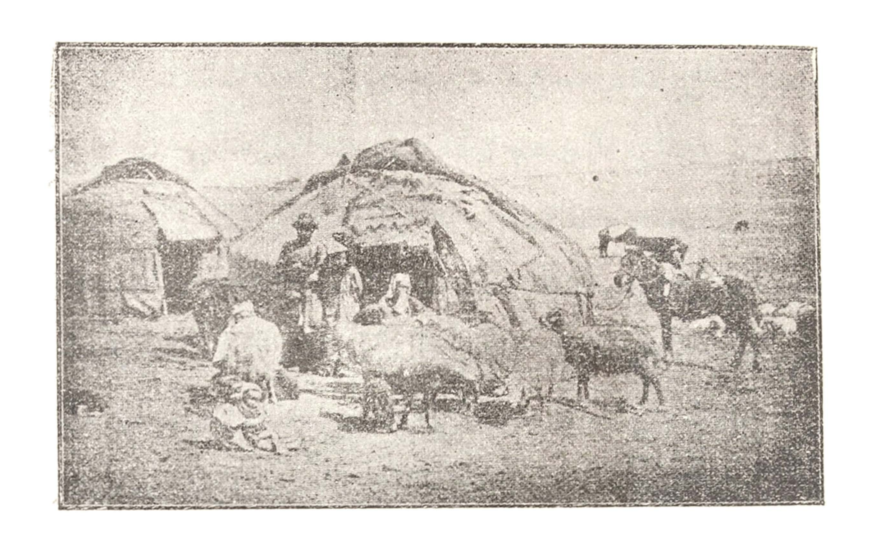
. . . .

هذه زبدة من اخبار الترك السياسية قبل الاسلام التي عول عليها مؤرخو الصين والترك واقرهم عليها فريق من مؤرخي الغرب الثقات . واما اخبارهم الاجتماعية فلا اهمية لها . وخلاصتها انهم كانوا اهل وبر وحرب وافتراس ، رحالة معاشهم من التغلب والنهب الا في الاقل ، كما قال ابن خلدون . وهم يسدلون شعورهم ، ويتقلدون السيوف والمجان واقواساً من القرون . يحترمون القوة حتى ليقدمون القوي على الشيخ ، وليس لهم شريعة مخطوطة ، ولكنهم يخضعون تماماً لحكم خاقانهم وقواده ، ويكتبون مواثيقهم على الواح خشبية . وكان للمرأة شأن عندهم ، والاميرة تنال نصيبها من قيادة الجيش او الملك ، اما بالارث او المهر المتأخر . وطريقتهم في تقسيم الارث اعطاء الارض لاصغر الابناء . والخيول للاقوياء ، والماشية للضعفاء . وقد يبقى الولد الاوسط بغير ميراث فيذهب للتحري عمن يتبناه [٢]

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l' Asie. p. 88-118

(٢) L. Cahun: Int. à l'hist. de. l'Asie. p. 56-65



« حياة الترك في عهد البداوة »

اما الدين فان امره وان كان سطحياً لديهم ، ولا سيما عند القبجاق في الشمال . غير ان المتماسين مع اهل الاديان ، مجاوري الصين وفارس ، كانت تتغلب عليهم مذاهب جيرانهم

فجيران الصين تدينوا في البداية بدينها الطبيعي : فقدسوا الشمس وعبدوا خمسة عناصر تمثلها خمسة اشخاص وهلم جرا . وجيران فارس ذهبوا مذهبها في عبادة النار واتباع شريعة ماني Menus ، ولم يلبثوا ان تنصروا بواسطة الرهبان النسطوريين منذ القرن الرابع م . كما ان منهم من ارتد عن شريعة بوذا وتمجس على مذهب زرادشت وفي مقدمتهم الويغور وهي اول قبيلة تركية استعملت لغة مكتتبة [١]

(١) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٩٤

هذا وبينما كانت النصرانية تتقدم في ديار الترك من خراسان وحدود ما بين النهرين كانت البوذية[1] تحذو حذوها من جانب الصين حتى اشتبكتا : ففي الشطر الثاني من القرن السادس م كان خاقان الترك دوبوخان في عداد من اعتنق البوذية ، كما انه في العام الذي انتصر العرب على الفرس بوقعة القادسية (١٤هـ=٦٣٥م) ذاك الانتصار الذي جعل فارس من بعد في قبضتهم ، وهي باب الشرق ، كان راهب سوري عند امبراطور الصين يدعوه الى المسيحية النسطورية ، ويلقى منه الحفاوة والاكرام

اجل انهما ما اخترقتا بلاد الترك الا واصطدمتا تنازعاً على الشرق ، ولكنه كان تنازعاً الى عهد غير بعيد : فان ظهور الاسلام فجأة فت في عضدهما ، واستحوذ على امنيتهما هناك رغماً عن مواصلة المبشرين اعمالهم بنشاط اوفر[2]

هذا واما معيشة الترك فكانت مثل معيشة بقية اهل البادية . يعولون على الماشية والغزو . واذا ما امتازوا عنهم فانما كانوا يمتازون في في مزاولة التجارة : فكانوا ينقلون الى الشرقين الاوسط والادنى الحرير الذي يتناولونه من الصين اما بطريق المرتبات او بالشراء او بالنهب ، يبيعه ترك الصين من اخوانهم في ما بين النهرين ، ويتولى هؤلاء امر نقله والاتجار به في فارس واذربيجان

وقد ادت هذه العلائق الاقتصادية الى جملة مفاوضات ووفود

---

(١) البوذية Bouddhisme ديانة منسوبة لبوذا نشئت في القرن الخامس ق م وأساسها الاعتقاد بان الحياة عذاب والراحة في الفناء مقرها الصين واليابان والهند الصينية ويبلغ اتباعها نحو خمسمائة مليوناً

(٢) Revue de l'histoire des Religions t xxii p. 290

والحروب حتى اتخذ المعتصم مدينة سامرا لنزولهم وكان اسم الترك غالباً على جميعهم فكانوا تبعاً لهم ومندرجين فيهم .

وكانت حروب المسلمين لذلك العهد في القاصية وخصوصاً مع الترك متصلة والفتوح فيهم متعاقبة وامواج السبي من كل وجه متداركة ، وربما رام الخلفاء عند تكميل بغيتهم واستجماع عصابتهم اصطفاء غلمة منهم للمخالصة وقواد العساكر ورؤساء المراكب ، فكانوا يأخذون في تدريجهم لذلك بمذاهب الترشيح فينتقون من اجود السبي الغلمان كالدنانير والجواري كاللآلي ويسلمونهم الى قهارمة القصور وقومة الدواوين يأخذونهم بحدود الاسلام والشريعة واداب الملك والسياسة ومراى الثقافة في المران على المناضلة بالسهام والمسالحة بالسيوف والمطاعنة بالرماح والبصر بامور الحرب والفروسية.[1]

هذا وكان يتنازع السلطة على الدولة العباسية في اثناء ذلك عنصران قويان : العرب ، وهم اصحاب الدولة ، والفرس وهم اهل عصبيتها الذين قاموا بتأسيسها ، حتى اذا ما انتصر المأمون باخواله الفرس على اخيه الامين وعصبيته العربية تفرد الفرس بالسيطرة والنفوذ . ومع ذلك فلم تكن حاشية الخليفة لتخلو من الترك النافذين نذكر منهم طولون والد مؤسس الدولة الطولونية في مصر ، اهداه الى المأمون عامله على بخارا . ثم لم يمض الا القليل حتى قام الترك مقام العرب في منازعة الفرس على النفوذ ولا سيما مذ صار الامر للمعتصم ثامن العباسيين (٢١٨–٢٣٢هـ)

---

(١) ابن خلدون : البستاني دائرة المعارف م ٦ ص ٩٥

ذلك انه لما مات المأمون وتآمر فريق من الاجناد الفارسية على مبايعة ابنه العباس بدلاً من المعتصم لم يمر هذا على تلك المؤآمرة مرور الغافلين وانما عول على استبدال عصبية الدولة

ولم يكن له ثقة بالعرب ، وقد ذهبت عصبيتهم واخلدوا الى الحضارة والترف وانكسرت شوكتهم ، فرأى ان يتقوى بالاتراك وهم اخواله وفيه كثير من طبائعهم ، ولاسيما القوة البدنية ، فجعل يتخير منهم الاشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم في العراق او يبعث في طلبهم من تركستان وغيرها [١] وناهيك بما يأتيه منهم على سبيل الهدايا ، حتى بلغ عدد مماليكه منهم سبعين الفاً [٢] .

ولم يكتف بذلك ولكنه عمل على ترغيب امراء الترك واولاد ملوكهم بالقدوم اليه والاقامة في دياره مثلما فعل مع جف بن نلتكين من اولاد ملوك فرغانة [٣]

ولما اجتمع لديه جمهور منهم نظمهم فرقاً والبسهم الثياب المقصبة المعلمة ، وكسى قوادهم الدمقس والديباج والحلية المذهبة وعول عليهم .

فلما سار لفتح عمورية جعل عسكره ثلاث فرق : فرقة مع الافشين خيذر ميمنة ، وفرقة مع اشناس ميسرة ، وفرقة معه في القلب [٤] ، كما انه في حرب بابك وغيرها جعل معتمده على الافشين المذكور .

ومثلما عول عليهم بالقيادة فقد اختصهم ايضاً بالحجابة ، فاستحجب

---

(١) المسعودي ج ٢ ص ٢٤٦ (٢) ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٥ ص ١٤ (٣) جرجي زيدان التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٥٧ (٤) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ٣٤

وصيفاً مولاه ، ثم محمد بن حماد ، ثم دنفش[1]

ويقال في سبب بناءه مدينة سامرا ، حيث اقطعهم القطائع ، واتخذت قاعدة الخلافة الى ان رجع المعتمد بالله منها الى بغداد (٢٧٩هـ=٨٩٢م)[2] ان كثرة شكاية الناس منهم دفعته للابتعاد بهم . على انه يمكن ان يضاف الى ذلك انه اختار العزلة معهم ورغب في عدم مخالطتهم لغيرهم .

ولما مات المعتصم ما كان للاتراك ان يفتقدوا له ، لان ابنه الواثق (٢٢٧—٢٣٢هـ) جرى على سنة ابيه : فقرب اشناساً واعطاه علامات الامارة وهي تاج ووشاحان[3] ، واستحجب اتباحاً ثم وصيفاً مولاه ، ثم دنفشاً[4] . ولما كان الناس على دين ملوكهم شرع الكبراء من ثم يتمثلون في خلفاءهم ، بالاكثار من اقتناء مماليك الترك ، ولا سيما في خلافة المتوكل (٢٣٢—٢٤٧هـ)

فان المتوكل كان متعصباً لأهل السنة كارهاً الشيعة . فكأنه فكر في ان يتخذ العرب عصبية له ، فسافر الى دمشق على نية نقل دواوين الملك اليها . ولكنه لم يمكث فيها الا شهرين . فقال ابو الفدا في سبب عودته انه استوبأها واستثقل ماءها[5] . وقيل في سبب ذلك انه رأى العرب ازالت الحضارة شوكتهم ، واوهن الترف جامعتهم ، فتحول الى توثيق عرى العصبية التركية ، لان الترك على السنة مثله .

وبالغ المتوكل في تقديمهم مكان الفرس حتى باتت ناصية الدولة في

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ص ٤١ (٢) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ١٨١ (٣) محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٢٧ (٤) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ص ٤١ (٥) ابو الفدا ج ٢ ص ٤٠

قبضتهم . فاستحجب وصيفاً وغيره وعهد بالقيادة العامة الى بغا[1] وعين زيرك في جملة القواد .

واما مقام الوزارة ، على ما يحتاج للتدبير والتفكير والسياسة ، فقد استمر للعرب والفرس حتى صار امر العباسيين فوضى فاستبد بـه الترك ايضاً .

على ان احسان المتوكل اليهم كان وبالاً عليه ، وشراً على خلفاءه : فان وصيفا وبغا الشرابي اتفقا على مصادرته حينما اراد خلع ابنه المنتصر من ولاية العهـد وتقديم ولده المعتز . وتآمر الترك مع المنتصر على قتل ابيه المتوكل ومبايعته مكانه . وكان ذلك مبدأ عهدهم بالجرأة على الخلفاء ، والاستبداد في الدولة (٢٤٧هـ=٨٦١م)

وفي اثناء ذلك كان قد شاع في تركستان مـا صار لبني قومهم في الشرق الادنى من العز . وكان باب الخدمة في الصين قد سد بوجههم ، فتحولت هجرة الترك الى ديار العباسيين كالسيل المنهمر .

وكانت الاخبار عن ثروة البلاد الاسلامية ، وما يلقاه الترك فيها من الخيرات تنتشر في كل انحاء اسية الوسطى بطريق القسس السوريين النسطوريين رعاة فريق من عشائر قره قيطايي والاويغور ، وبواسطة تجار الارمن . وساعد على ذلك تبديل اهـل الشرق الاوسط ، منذ القرن الثامن م ، الاحرف السيبارية بالاحرف النسطورية ، كما ساعد عليه تجنيد

(١) بغا اسم لقائدين تركيين تعاصرا ومعناه القوي ولقب احدهما الكبير وتوفي بخلافة المستعين ولقب الآخر الشرابي وقتل بأمر المعتز ٢٥٤هـ

الملوك السامانيين ، فيما وراء النهر ، الترك تمثلاً بالعباسيين ، وخوفاً من زيادة نفوذ الديلم .

تلك الاخبار وما يلتف حولها من المبالغات اغرت الترك في ديار الاسلام ، ومثلما زحف جمهور منهم للخدمة فيها ، فان عشائرهم شرعت تتقدم من اقصى البلاد اليها على امل التغلب عليها عنوة . ولكنما تيسر من هذه الاماني للمغول بعدهم لم يتسن لهم . فان الترك ما استطاعوا ان يبسطوا سلطتهم على المسلمين الا بعد ان تدينوا بدينهم ، وسلكوا سبل الخدمة في مملكتهم . فلقد حاول كل من قبائل الاويغور والسلجوقيين ان يكتسح الجانب الغربي من المملكة العباسية ولكن السامانيين ردوهم خاسرين . ثم اسلم السلجوقيون فاتخذهم كل من السامانيين ثم الغزنويين انصاراً لدفع جارف بني عمهم الاويغور .

على ان العشائر التركية الوثنية وان لم تقو على اكتساح بلاد العرب ، فانها ، في النهاية ، استطاعت ان تنزل في جوار مملكة العباسيين في تركستان .

ذلك انه لما نشأت في الصين دولة كن Kin وأجات قبائل قره قيطاي التركية التي كانت مسيطرة على المملكة ، تحولت تلك القبائل لغزو المسلمين لما بلغها من انشقاق عصا السلجوقيين ، وتمكنت من الاستيلاء على كاشغر وجنغاريا . وكسر خاقانها كورخان السلجوقيين (٥٣٦هـ=١١٤١م) في عهد اضمحلالهم . فانبسطت بذلك سيطرة الترك منذ الصين حتى بغداد فالبحر المتوسط . وتغلب شرقاً اولو الصبغة الصينية : كالقره قيطاي

والاويغور ، وغرباً اصحاب الصبغة الفارسية كالقانقلي والقالاج . على ان الحكم وان استمر باسم العرب والدولة العباسية الا انه كان حكماً اسمياً .

وفي تلك الاثناء ظهر الجارف المغولي فدفع امامه ، قسراً نحو ديار الاسلام ، كثيراً من هذه القبائل التركية ، وفي جملتها قايي خان القبيلة التي تولدت منها الدولة العثمانية .

تغلب الترك على الدولة العباسية

خليفة في قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

تآمر وصيف الحاجب ، وبغا القائد مع المنتصر على قتل ابيه الخليفة المتوكل ومبايعته مكانه ، ففعلوا ، وقام في الحجابة لدى المنتصر وصيف ثم بغا ، ثم ابن المرزبان ، ثم اوتامش[1]

أنهم كانوا حجاباً بالاسم ، اما وقد كان على ايديهم الاثيمة صعود المنتصر الى العرش ، واما وقد بثوا الرعب في الافئدة عامة لجرأتهم على قتل الخليفة ، فقد اصبحوا اصحاب النفوذ الحقيقي ، وامسى المنتصر صنيعتهم تجاههم ، كما جاء في بيتي الشعر اللذين صدرنا بهما هذا المقال ، كببغاء في قفص .

ومع ذلك فلم يحكم المنتصر الا ستة شهور ، وقيل في سبب موته ان

---

(١) ابن عبد ربه العقد الفريد ج ٣ ص ٤١

امراء الترك خافوه على نفوذهم فعاجلوا في منيته[١]

ومنذ ذلك استفحل شأنهم حتى صار لهم الامر بنصب الخلفاء : فبعد المنتصر أصروا على معاكسة اولاد المتوكل ، خوفاً من ان يثأروا لأبيهم فحولوا البيعة الى المستعين بالله بن المعتصم (٢٤٨هـ=٨٦٢م)

وقد صدق حسن ظنهم فيه اذ استوزر اتامش[٢] واطلق يده ويد والدته (ام المستعين) ويد شاهك الخادم في بيوت الاموال[٣] فضلاً عن مقام السلطان[٤] .

وقد أثارت تصرفات هؤلاء ثائرة الجند والناس في بغداد فاخرجوا المعتز من السجن وبايعوا له بالخلافة[٥] . ولكن امر الدولة لم يستتب بل بقي فوضى . فبينما كان الترك فيها يزدادون نفوذاً ، ويتنازعون بينهم على مقاماتها شرعت العناصر الاخرى ، وهي تحسدهم على استئثارهم في شؤون المملكة ، تحاول الاستقلال عنها في الاطراف فتنفصل تدريجاً حتى ضاق نطاق سلطان العباسيين عن ربع ما كان للأمويين[٦]

اما متغلبو الترك فلم يكن همهم الا التنازع بينهم على السلطة في دار السلام وهم في اثناء ذلك، كالانكشارية في عهد تركيا ، يروق لهم مشاهدة نفوذهم

---

(١) الدميري حياة الحيوان ج ١ ص ٧٤ (٢) ابن الأثير الكامل ج ٧ ص ٤٤ (٣) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ٤٢ (٤) اتفق ان بعض خدام المستعين احضر المنجمين لينظر كم يعيش وكم يبقى في الخلافة وكان في المجلس ظريف لبيب فقال : انا أعرف من هولاء المنجمين بمقدار عمره وخلافته فقالوا له : فكم تقول انه يعيش ويملك ؟ قال مهما اراد الاتراك ! (٥) ابن العبري مختصر الدول ص ٢٥٤ (٦) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٨

في خلع الخلفاء والتمثل بهم على التوالي : فانهم دخلوا في سنة ٢٥٥هـ على المعتز يطلبون ارزاقهم ، ولما ماطلهم جروا برجله الى باب الحجرة وضربوه بالدبابيس ، واقاموه في الشمس بحيث كان يرفع رجلاً ويضع اخرى لشدة الحر ، ومنعوا عنه الطعام والشراب ثلاثة ايام وادخلوه سرداباً وجصصوا عليه فمات فيه ٢٥٥ هـ[٢] وبايعوا المهتدي ، ثم لم يلبثوا ان شغبوا عليه وقتلوه بدوس خصيتيه ٢٥٦هـ[٣] ونصبوا مكانه المعتمد .

وان المعتمد لم يكن ذو اقتدار كاف للاشاة نفوذ قواد الترك المتغلبين على الدولة ، ولكن اخاه الملقب بالموفق ، ضيق عليه ، واستلم بمدته زمام الامور ، وجعل القواد طوعاً له رغماً عن تواصل ظهور الخوارج في الامصار .

وكذا كان كل من المعتضد بن الموفق الذي بويع بعد المعتمد (٢٧٩هـ=٨٩٢م) ومن المتوكل بن المعتضد، فعاد بهم للخلافة شيء من البهاء والجلال . وكاد الخلفاء ان يستقلوا من استبداد الترك وسائر مماليك العجم ، لولا ان تولى بعدهم المقتدر وهو صبي ليس له من اسمه نصيب فعادت السلطة الى حاشيته ، نخص في الذكر منها مؤنس الخادم والقهرمانة أم موسى[١]

فمؤنس كان حريصاً على ان يبقى صاحب الامر والنهي . وبعد ان خلع المقتدر مرتين حاربه بأشياعه البربر وقتله ٣٢٠هـ

---

(١) ابن العبري مختصر الدول ص ٢٥٥ (٢) ابن الاثير الكامل ج ٧ ص ٩٠–٩١ (٣) ابن الأثير الكامل ج ٨ ص ٢٤–٩٠

على ان القاهر الذي خلفه توفق للفتك بمؤنس وفريق من جماعته المتغلبين . ولكن احدهم ابا علي بن مقلة ، الذي تمكن من الفرار ، لبث يغري قواد الساجية والحجرية الى ان قبضوا على القاهر وسملوا عينيه حتى سالتا على خديه[1] وبايعوا الراضي ٣٢٢هـ .

وكأن الراضي اعتبر بما اصاب اسلافه فاراد ان يتخذ له عصبية تعصمه من شرهم حين الحاجة فاستقدم اليه امير واسط محمد بن رائق وجعله امير الامراء وفوض اليه تدبير المملكة .

ومنذ ذلك بطل شأن الوزارة وصار الحكم لأمير الامراء ، بل منذ ذلك صار امر الخلافة اسماً بلا رسم : اذ فضلاً عن قيام المتغلبين في سائر انحاء الدولة واستيلائهم على احوازها ، حتى لم يبق للخليفة غير بغداد وما والاها[2] . فان السلطة الفعلية في بغداد نفسها صارت لامير الامراء : وصارت تجبى الاموال الى خزائن من يتولون هذا المقام فيتصرفون بها كما يريدون ، ويطلقون للخليفة مايريدون ، بل صار يخطب لهم ايضاً على المنابر[3] ، ويقسم لهم الخلفاء بالطاعة[4] !

(١) وقد انتهى الفقر بالقاهر انه خرج لجامع جده الأكبر المنصور فعرف الناس بنفسه وسألهم التصدق عليه فقام اليه ابن ابي موسى الهاشمي فاعطاه ٥٠٠ درهم في قول ابن طباطبا و١٠٠٠ الف درهم في قول ابن الاثير وقد كان اجداده المنصور وهارون والمأمون يهبون في اليوم الواحد لشاعر واحد نحو الفي درهم اي مليونان اثنان من الدراهم وذلك ما يقارب ثمانين الف جنيه (من مقال لاحمد ذكي باشا في المقطم عدد ١٠٢٣٨) (٢) ابن الدميري حياة الحيوان ج ١ ص ٨٠ (٣) ابن العبري مختصر الدول ص ٢٨٣ (٤) ابن الاثير الكامل ج ٨ ص ١٧٦

مقام نفوذه فوق نفوذ الخلافة لا بدع ان يصبح مطمح الانظار ويمسي الباعث على التنازع بين المتغلبين فيزيدون الدولة سوء على سوء .

وكان بجكم التركي اول من تولى كبر ذلك . فانه حارب ابن رائق وقام بالامارة مقامه ، وبلغ من نفوذه من بعد انه لما توفى الراضي ٣٢٩هـ وكان بجكم في واسط لم يجرأ احد على مبايعة المتقي الا عقب ان وصلت الاجازة منه .

ولما قتل بجكم وكان قد صار لمقام امارة الامراء ماصار من السلطان اصبح هذا المنصب هدفاً لكل الامراء حكام المقاطعات ، فوقع التنازع عليه مدة دواليك بين عبد الله البريدي ، صاحب البصرة ، وناصر الدولة بن حمدان ، صاحب الموصل وديار بكر ، وابن رابق ، صاحب الشام . عدا بعض القواد الترك مثل كورتكين وطورون وابن شيرزاد . وذهب الخليفة المتقي ضحية تنازعهم .

غير ان الحظ لم يخدم طويلاً احداً من هؤلاء القواد ، بل لم يلبث ان صار هذا المنصب لبني بويه اصحاب فارس وقتئذ : فانه لما بلغ معز الدولة خبر موت امير الامراء طورون أم بغداد ودخلها عنوة (٣٣٤هـ=٩٤٥م) وفر الامير ابن شيرزاد ، فرحب الخليفة بمعز الدولة ، وفضلاً عن تقليده اياه الامارة أمر بان ينقش اسمه على النقود .

فاستعاد الفرس ببني بويه[1] ، اولاد يزدجرد آخر شاهاتهم ، السلطة

(١) لم يكن ال بويه خيراً من الترك في معاملة الخلفاء بل جروا على طريقتهم في الاستبداد والتمثيل بهم : فان المستكفي رغم تفويض الامور لهم تنكروا له ووضعوا عمامته في عنقه وسحبوه بها ثم سملوا عينيه واعتقلوه . وولوا المقتدر ولم يلبثوا ان دعوه

التي كانت لهم في صدر الدولة العباسية ، واستمرت لهم مدة الخلفاء المستكفي والمطيع والطائع والقادر وبعض عهد القائم اي مدة قرن ونيف عاشوا فيها ملوكاً لا كأمراء .

على ان الترك لم يستكنوا في اثناء ذلك ، بل طالما اثاروا عليهم الثورات استرداداً لمقامهم في الدولة . اما بنو بويه فانهم رغماً عن ذلك لم يعتبروا بسواهم بل اصابهم ما اصاب غيرهم من الطغيان والشقاق .

وبينما كانوا يعمهون في طغيانهم ، ويلهون في التقاتل بينهم ، كان يشتد شأن السلاجقه الترك حتى اذا ما استولى طغرل بك على مايلي فارس راسله قواد الترك في بغداد فدخلها عنوة (٤٤٧هـ=١٠٥٥م) وخطب له فيها فاسترجع بسلطنته النفوذ التركي .

وامتاز السلجوقيون بانهم لم يكونوا كالامراء السابقين موظفين في الدولة العباسية ، بل جاءوها وهم سلاطين ، وفضلاً عن سيادتهم على بلاد الخليفة ، صاروا حكاماً لبلاد تمتد من اول تركستان الى البوسفور . لذلك فانا سنفرد لهم بحثاً في الكلام على عهد الترك الاستقلالي .

واما الذي يجب التنويه به في هذا المقام فهو ان الخلفاء في عهد تغلب السلجوقيين علي بغداد تمكنوا من الحصول على استقلالهم اكثر من

الى خلع نفسه ففعل وولوا مكانه ابنه الطائع ٣٦٣ هـ وكان امره في غاية الانحلال . فلما كان القادر والقائم تراجع وقار الدولة ونمى رونقها سنة ٣٨١ الى سنة ٤٦٧ هـ على ما كان فيها من المحن والفتن .

ايام غيرهم من الموظفين المستأثرين[١]

ذلك لان السلجوقيين كانوا اصحاب سلطنة واسعة من شأنها ان تلهيهم عن بغداد ، بما فيها من المشاغل الوافرة اهمها الانشقاق الذي وقع بينهم ، فانهم اتخذوا اصفهان قاعدة لملكهم ، واقاموا من لدنهم في بغداد متولي الشحنة ، وانشغلوا عنها حتى ان فريقاً من سلاطينهم ومنهم الب ارسلان لم يدخلها قط . لذلك فقد تسنى للخلفاء ان يعودوا لحياة الحرية والاطلاق : فالمسترشد (٥١٢—٥٢٩ هـ) كان البادىء بمحاولة الاستقلال عن السلجوقيين ، واقتفى اثره ابنه الراشد (٥٢٩—٥٣٠ هـ) فكان دمهما المهدور في هـذا السبيل مهراً للاستقلال الذي تسنى لخلفهما المقتفي (٥٣٠—٥٥٥ هـ)

وشرع شأن العباسيين بالازدهار ، في عهد كل من خليفتيه المستنجد فالمستضيء ، وساعدهما على ذلك انقراض الدولة الفاطميـة في مصر . ثم استتب للعباسيين امر السلطنة في خلافة الناصر والظاهر والمستنصر الذي كان له اليد في رد المغول .

(١) لقد كان السلاطين السلاجقة ولا سيما الفاتحون منهم على ادب جم في معاملة الخلفاء وقد اشار الى ذلك مصطفى كمـال باشا رئيس جمهورية تركيا في خطبة القاها في مجلس انقره في اول تشرين الثاني سنة ١٩٢٢ يوم اعلن المجلس فصل الخلافة عن السلطنة وقال عن السلطان ملكشاه : «وكل ما فعله يومئذٍ هو انه حمل الخليفة المقتدي بالله على عزل ابنه من ولاية العهد لانه كان غير واثق من اخلاصه للدولة السلجوقية واقامة ابن اخته مكانه» والذي اطلعت عليه ان الخليفة المقتدي تزوج من ابنة ملكشاه فجاءه منها ولد سماه ابي الفضل جعفر وكان الخليفة قد بايع لولد آخر اسمه المستظهر بولاية العهـد فالزم السلطان الخليفة ان يخلعه ويجعل ابن بنته ولي عهده

وكان للمستنصر اخ يقال له الخفاجي ، فيه شهامة زائدة ، ما زال يقول: لأن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون واسترد البلاد من المغول: فلما مات المستنصر ٦٤٠هـ لم ير الوزير الداويدار ولا الشرابي تقليده خوفاً منه ، فأقاما ابنه المستعصم للينه . وان لينه ولئن افادهما قليلاً فهو قد افاد كثيراً عدو البلاد . فقضى هكذا لمصلحة ذاتية هذان الوزيران على العباسيين والمدنية العربية :

فبينما كان المستعصم لاهياً في قصره راكناً الى وزيره العلقمي كان هذا الوزير الخائن يكاتب هولاكو ويطمعه في الدولة العباسية ، وقيل في سبب ذلك ان العلقمي كان يؤمل ان يقيم بمساعدة المغول خلافة علوية من شيعته ، على انقاض العباسية السنية .

فتقدم هولاكو وكان ما كان من دخوله بغداد وغدره بالخليفة (٦٥٦هـ=١٢٥٨م) وانقراض الدولة العباسية .

انقرضت بما استبد فيها الاعاجم ولاسيما الترك استبداد البريتوريين Prétoriens في امبراطرة الرومان قبلهم ، واستبداد الانكشارية في سلاطين آل عثمان بعدهم .

وناهيك بما كان لتسرب المنازعات الطائفية في حكمها من المفعول الكبير تلك المنازعات التي كانت ستاراً يلعب وراءه رجال السياسة والخلافة ادواراً .

عهد الاستقلال التركي

« وتغلبهم على ديار الاسلام »

لما استحوذ الفرس ثم الترك على السلطة في الدولة العباسية ، نفر

العرب منها ، وكانوا اول العناصر انسلاخاً عنها ، وانشاءً للدول المستقلة، ولا سيما مذ قطع المعتصم اعطيتهم ، ومنعهم من مصانع الدولة . باشروا ذلك في اقصى المملكة فأدناها : فشكلوا الدولة الاموية في الاندلس (١٣٨هـ=٧٥٥م) ثم الادريسية في مراكش (١٧٢هـ=٧٨٨م) ثم كان الاغالبة بتونس في مقدمة المنسلخين عن العباسيين (١٨٤هـ=٨٠٠م) ذلك فضلاً عن الامارات الحمدانية ، والزيدية ، والعقلية ، والمرادسية ، في حلب والحلة والموصل ، وعدا غيرها التي ظهرت في اليمن ، وخصوصاً في عهد فوضى السلطنة العباسية .

واما الدولة الفاطمية العلوية التي نشأت في تونس (٢٩٧هـ=٥٦٤م) فانها افتتحت مصر ونقلت اليها قاعدة حكومتها وهي ترمي الى الاستيلاء على مملكة العباسيين . ولو صحت امنيتها لاستردت شأن العرب . غير ان السلطنة السلجوقية كانت القاضية على تلك الأمنية ، فاحتفظت بذلك بنفوذ اهل السنة عامة ، والترك خاصة .

هذا ولما صارت السيطرة للترك على الدولة العباسية ، واستبدوا في مصالحها وحرموا الفرس مكانتهم فيها تولى عنها هؤلاء ايضاً واخذوا يحاولون الاستقلال في فارس وما يليها اسوة بالعرب : فانشأوا في القرنين الثالث واوائل الرابع للهجرة ، الدولة الطاهرية ، والصفارية ، والسامانية والساجية ، والزيارية ، ثم البويهية . وكانت هذه اعظمهن فتسنى لها فضلاً عن البسطة في الملك نشر سلطتها مدة على بغداد ، وتأييد الشيعة .

ثم استفحل الخلل في الدولة العباسية في القرن الرابع هـ فكان منشطاً للاكراد ايضاً على انشاء الدول ، وهم ابعد العناصر عن معالجة السياسة ،

فأنشأوا كلا من الدولة البرزكانية في كردستان ، والمروانية في ديار بكر ولم تدوما طويلاً . ثم توفقوا اخيراً لتأسيس الدولة الأيوبية (٥٤٦هـ = ١١٥١م) التي رفعت شأنهم الى الابد .

اما الترك فانهم ، لقبضهم على ناصية الدولة العباسية ، ولانصراف زعماءهم بكليتهم للتزاحم على منصة الاحكام فيها ، لم يفكروا في الاستقلال عنها ، وقلما انسلخوا عنها لتشكيل الدول الخاصة . وانما كان معظم ما قام من دولهم نشأ مستقلاً غير منفصل عن العباسيين .

ما عدا احمد بن طولون فقد نشطه عجز العباسيين عن اخماد ثورات الصفارية في فارس ، والعلوية في طبرستان ، والزنجية في البصرة ، لأن يستحوذ على مصر (٢٥٤هـ=٨٦٨م) ويضم اليها اختها الشام

ثم جرى مجراه بعد ٢٨ سنة من انقراض الدولة الطولونية محمد الاخشيد (٣٢٣هـ—٩٣٤م) ولبثت مصر في حكم ابناءه الى ان استظهر عليها الفاطميون (٣٥٨هـ—٩٦٨م) تدريجاً .

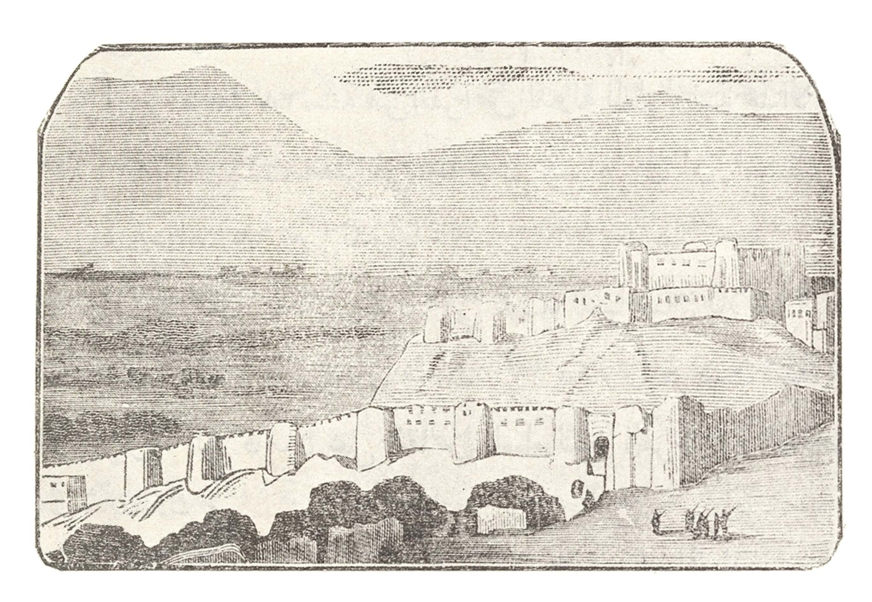
واشهر الممالك التركية التي نشأت في عهد العباسيين ثلاث : الدولة السامانية بما وراء النهر وخراسان ملكت ١٧٠ سنة وانقرضت سنة ٣٩٠هـ والدولة الغزنوية التي قامت على انقاض السامانيين الفرس . والسلجوقية التي رفعت شأن الترك .

ولما كان شأن العالم الشرقي ، بله العالم الاسلامي ، منذ اواسط القرن الرابع الهجري الى نهاية السابع حيث ظهرت الدولة العثمانية يكاد يندرج طي اخبار الغزنويين والسلجوقيين ، فانا ، وان كنا نتوخى الأختصار التام ، فلا نرى مندوحة عن ايراد زبدة من تاريخهما .

(الدولة الغزنوية ٣٦٦—٥٧٨هـ ٩٧٦—١١٨٢م)

لما وجل السامانيون من الثورة الديلمية التي نفخ في صورها بنو بويه في سيستان ، عولوا على اتراك فرغانة والحدود الشمالية لتأييد جيشهم [1] .

ولما كانت مدينة غَزْنَة ذات مركز حربي ، ولا سيما لقيامها تجاه كل من العصابات الافغانية ، وما بين طرق الهند المؤدية الى فرغانة فتركستان اتخذها السامانيون مركزاً حربياً عسكرت فيه فرقة من اجنادهم الترك على رأسها ابو اسحق بن البتكين .



« مدينة غزنة وحصونها في الافغان »

ولما مات ابو اسحق ولى الجند عليهم مملوكه سبكتكين فغزا اطراف

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 159

تبودلت بين خاقان الترك وكلاً من شاه فارس وامبراطور بيزنطة ، فضلًا عن علاقاتهم الاخرى مع الارمن والنسطوريين

الترك في الاسلام

٢

غريبة هي الادوار التي مثلها الترك في الاسلام : فانهم انقلبوا في عهده من اخصام لهذا الدين الى حماته ، ومن مماليك وخدم في ديار المسلمين الى اسياد لها . فلكي نفهم الدور الاخير من الرواية التي مثلوها فنعرف كيف تمت لهم الغلبة ، هذا الدور الذي من اهم ابطاله الدولة العثمانية ، يجب ان نرفع الستار عن الفصول التي سبقته

المجتمع التركي في صدر الاسلام

« وفتوحات العرب في عهد الراشدين والامويين »

كان يعاصر كلاً من جستان الثاني امبراطور قسطنطينية (٥٦٥ = ٥٧٨ م) وكسرى انو شروان شاه فارس (٥٣١ = ٥٧٠ م) ملك تركي كبير الشان مثلهما ، يسمى الخاقان بومن ، توطدت له العظمة لامتداد مملكته من حدود الصين حتى نهر جيحون [١] ، ولنزول سائر الاتراك الشاردة في الشمال ، من قبجاق وسواهم في مملكته على طول نهر الفولكا فضلا عن مصاهرته للاسرة الصينية .

---

(١) جيحون Amou Daria نهر عظيم في تركستان منبعه من كشب بامير ومصبه في بحر ارال

ويستفاد من حديث مانياك ، رسول هـذا الخاقان الى امبراطور قسطنطينية الذي بعث به للمفاوضة بشأن التجارة والمؤامرة على فارس ، أن الاتراك كانوا وقتئذ ينقسمون الى اربع امارات متحدة ، يرأسها الخاقان بومن ، وهي : القبجاق في الشمال الغربي ، والقانقلي والقارلوق في الوسط والشرق ، والأويغور ، في جنغاريا وكاشغر . وهؤلاء هم حضر يخضعون للصين .

— خاقان عظيم ، وأمة كثيرة متضامنة ، وشعب شديد المراس ، فكيف تسنى ، والحالة هذه ، للعرب الغلبة عليهم ؟

— اذا قدر لأمر ان يتم تسهلت له الاسباب ، فان الرابطة التركية سرعان ما دب اليها الانحلال حين ظهور الاسلام وترعرعه ، وفضلاً عن ذلك فقد قلبت الصين للترك ظهر المجن ، فصاروا بين نارين ملتهمتين الصين والعرب .

مات بومن خان فتنازع ابناؤه واخوانه واجناده على العرش مدة ، وتقسمت بينهم القبائل والبلاد ، فضعف شأنهم جميعاً . على ان الرياسة على الوحدة التركية ولئن تمت في النهاية لدبو خان اخو الخاقان السابق ، الذي استولى على قسم من الديار الشرقية (٥٧٥ م) [١] ، إلا ان التنازع كان قد اوهن حالهم ، وزعزع رابطتهم ، فلم تعد وحدتهم لتدفع عنهم الخطر المداهم .

وزاد في ضعفهم قيام حكومة ثنك Thang باوائل القرن السابع

---

(١) L' Cahun: Int. à l' hist. de. l' Asie p .89-119

للميلاد ، في شمال الصين . قامت بمساعدة فريق من الترك ، واخضعت لها القبائل المجاورة ، كما استولت على الجانب الجنوبي من الصين ، ثم اكتسبت فرصة الانشقاق الذي وقع بين ابناء امراء الترك لاستذلالهم وفتح ديارهم ، فنجحت الى حد انها استخدمتهم واستخدمت اخواتهم في قصورها [١] . وفي همة لي‌يان الامبراطور الاول لهذه العائلة قطعت تركستان حتى بلغت فارس فاتحة .

انها فرصة حسنة للعرب : ضعف الترك وسهل امر اكتساحهم . ولكن دخولهم في حوزة امبراطورية الصين كان من شأنه ان يجعلهم في حمى امين وحرز حريز .

اما الواقع فان ذلك كان من قبيل الخير المكروه اذ كانت ثمرة جهاد الصين في ديار الترك وما بذلوه في سبيل اضعافهم من حظ العرب : مات البطل الفاتح لي‌يان فشبت على اثر ذلك الثورات الداخلية في الصين واستمرت سبعين عاماً . وبينما كانت اجنادها تتراجع متخلية عن فتوحاتها انفجرت قنبلة الاسلام في جزيرة العرب فترامت شظاياها في كل صوب واجتازت في الجملة بلاد الترك الى حدود الصين .

فلما فتح العرب كلاً من ارمينية وفارس جاوروا الترك : الخزر والقبجاق واللان واضرابهم ، في انحاء ققفاسيا شمالاً ، والقانق‌لي والقارلوق وفصائلهما ، على الضفة الغربية من جيحون وما بينه وبين سيحون شرقاً وشرقاً شمالاً .

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie. p. 120

وكان عامل العرب على ارمينية مكلفاً بغزو قفقاسيا وما يليها ، كما كان عاملهم على العراق ملقى على عاتقه الوقوف تجاه خراسان وما حولها ، وعليه الواجب الاكبر : لأن الجهة القفقاسية لم تكن موضع اهتمام الفاتحين ، لصعوبة مسلكها ، ولقلة العمران فيها ، خلافاً لناحية خراسان .

على ان المسلمين لم يهملوا قفقاسيا البتة ، بل طالما تعرضوا لها : بدأوا بذلك في خلافة عمر بن الخطاب ، فبلغت خيله مدينة البيضاء على رأس مائتي فرسخ من بلنجر . ثم غزوها ايضاً ، في خلافة عثمان بن عفان مرات فتجمع الخزر اخيراً على العرب واجلوهم عن بلادهم[1]

ثم اعاد عمال الامويين ، في اوائل القرن الثاني للهجرة ، الكرة على الخزر ، فاستعادوا بلنجر ومابعدها من الحصون . اما وكانت مطامح المسلمين متجهة الى تركستان ، فان الحوادث صارت من ثم في قفقاسيا بين الامويين فالعباسيين وبين اتراك تلك الامصار كناية عن غزوات بسيطة ، نتائجها متبادلة .

على ان العرب وان كانوا يولون وجه مطامعهم نحو تركستان ، إلا انهم على مايظهر كانوا يتهيبون اهلها ، ويرغبون عن التعرض اليهم ، بدليل انهم لما اكتسحوا فارس ، واقتفى الاحنف بن قيس اثر الشاه يزدجرد ابن شهريار في خراسان ، وعبر الشاه النهر والتجأ بخاقان الترك في فرغانة ، وقف الاحنف عن اللحاق به ، امتثالاً لأمر الخليفة عمر

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٣ ص ١٤—١٥

بيد ان الترك كانوا هم البادئون المتهجمون : فانهم استجابوا ليزدجرد اللاجئ اليهم وحمل خاقانهم معه على الأحنف ، فرجعوا واياه منكسفين . ثم اقام يزدجرد من بعد في فرغانة حتى قتل (٣١ هـ = ٦٥١ م) ونزلت اجناده في خراسان على صلح مع العرب وهو لا يفتأ طيلة حياته يحرضهم على الثورة . فينقضون العهد الى ان أخمدت ثائرتهم جنود الخليفة عثمان (١)

ثم اتى على ذلك حين من الدهر شغل فيه الانشقاق العرب عن الترك الى ان توطد الملك لمعاوية فطمع في ديارهم واجتاز عامله نهر جيحون ، غازياً سمرقند ، ودخل بخارى مستخضعاً ملكتها خاتون (٢) وفتح ترمذ صلحاً (٣)

وخدم الحظ بني امية في بلاد الترك ، على ما كانوا يتوقعون من بأس اهلها . سنحت لهم الفرصة فيما وقع بين الترك من الانقسام : فان قبيلة قيطايي انفصلت وقتئذ عن الوحدة التركية ، وبايعت اميرها خاقانا . وبعد اقتطاعها بلاد لياوو ، في حدود الصين الشرقية ، عبرت السد وترامت في جوف تلك الامبراطورية تعيث فيها الفساد

ولما كان ملك الترك ايلي خان يأخذ من الصين جعلاً على حماية حدودها امسى ، في محاولته دفع قبيلة قيطايي هذه ، في شغل شاغل عن نجدة قومه في الطرف الغربي الذين كانوا عرضة لاكتساح العرب (٤)

وكأن الصين راقها انتصار العرب على الاتراك لما قاسته من غاراتهم

---

(١) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ١ ص ١٦٤—١٦٨

(٢) ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٢ ص ٨٥

(٣) ابو الفدا ج ١ ص ١٨٧

(٤) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 120-121

فانتهزت تلك الفرصة لتخضيد شوكتهم — سيان لديها الخصم والنصير — فاكتسحتهم من الشرق وتقدمت مخترقة قلب بلادهم . ذلك ادى الى انفصال قبائل القارلق عن ايلي خان (٩٧ هـ = ٧١٥ م) وخضوعها للامبراطورية الصينية . كما عمل على قبول كل من مكليان وكلتكين ابني الخاقان كتلك سيطرتها عليهما[1]

وفي تلك الاثناء كانت عمال الامويين في خراسان يوالون تقدمهم في تركستان : ففي خلافة عبد الملك بن مروان عبر المهلب نهر جيحون (٧٨ هـ = ٦٩٧ م) ونزل على كش ، وانتصر على كل من ملك الختل وصاحب بخارى . ثم ان ولده يزيد ، الذي خلفه على ولاية خراسان فتح ايضاً ، بعد اربعة اعوام من ذلك ، قلعة نيزك طرخان في باذغيس[2]

وليوطد المسلمون قدمهم في تلك البلاد لجأوا الى سياسة التفريق ، فشرعوا يستميلون العامة ويثيرون بينهم وبين الخاصة النفار ، فضلاً عن تحريكهم نعرة العنصرية ما بين الفرس والترك ، فنجحوا ، ولكن لما استفحل الخطر العربي في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وعبر قتيبة بن مسلم النهر ترامى اشراف ما بين النهرين على ركب العامة حتى اتحدوا ، كما تقارب كل من الترك والفرس حتى اتفقوا ، ودعوا اليهم زيادة على ذلك قبائل جونغاريا فاجتمع حينئذ لحرب العرب كل من طرخان امير صغد ، وخداوند هنك ، وخداوند وردان ، وقورنكنوم ابن اخت

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l' Asie p. 129

(٢) ابن الاثير الكامل ج ٤ ص ٢٢٩—٢٤٠

امبراطور الصين ، واحدقوا بقتيبة اربعة اشهر فيأس المسلمون في العراق منه .

اما البطل قتيبة فلم يفت في عضده ، بل لما خانه السيف عمد الى السياسة : فسعى للافساد بين سكان ما بين النهرين وحاكمتهم خاتون ، ثم عمد الى التفريق بين الجيوش المجتمعة . وكانت النتيجة ان الملكة خاتون تخلت عن العرش وفرت . وان طرخان ملك بخارى اقتنع باغراء حيان النبطي بأفضلية فوز العرب وتغلبهم لمصلحته ، فانسلخ مع الفرس عن حلفاءه ، وحينئذ جاء وقت السيف فهزه قتيبة هزات[1] تناثر من اطرافه الظفر والنجاح .

هزم قتيبة الاحزاب ، فدانت له بخارا وكش ونسف وخوارزم وفرض على اهلها عشرين الف مقاتل ، وجههم لغزو ملك الشاش . وسار هو الى فرغانه (٩٣ هـ = ٧١١ م) بعد ان فتح سمرقند صلحاً ، فكان النصر حليف الفرقتين[2]

هذا ولما اعاد الخليفة سليمان بن عبدالملك يزيد بن المهلب الى ولاية خراسان (٩٧ هـ = ٧١٥ م) وكان الترك في الجانب الشمالي منها قد نقضوا العهد ، تكللت مساعيه بالنجاح في كل من قهستان وجرجان وطبرستان في سبيل اخضاعهم .

وهكذا فلم يمض على ظهور الاسلام الا نحو قرن حتى خفقت رايات

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l' Asie p. 135-170

(٢) ابن العبري مختصر الدول ص ١٩٤ ابن الاثير ج ٤ ص ٢٧٢

الامويين على مقربة من حدود الصين ، مثل خفقانهـا وقتئذ في اسبانيا وفي فرنسا الى مقربة من باريس .

ولم يكن الفضل في ذلك للسيف وحده ، بل كان للسياسة جانب عظيم ، ولحسن معاملة اهل الذمة النصيب الاوفر .

ولقد بسطنا فيما تقدم نتفاً من سياستهم ، ومن الظروف التي ساعدتهم على النجاح مما اهمل ذكره مؤرخو العرب . وسنذكر في الكلام على شريعة الدولة ما كان لمعاملتهم الحسنة للذميين من تسهيل الفتح .

وهنا نلفت الانظار الى ما كان لاتفاق العرب مع اهل تيبت من الفائدة في الانتصار : فلقد كان هؤلاء البوذيون في كفاح مع الترك مستمر ، فاستمالهم المسلمون اليهم وعملوا على الاتفاق معهم على الخصم المشترك فتغلبوا عليه .

. . . . . .

انتهى القرن الاول للهجرة وانتهى معـه حظ الدولة الاموية من الفتح . ودخل القرن الثاني فدخلت معه هذه الدولة في عهد الانحطاط .

ولما كانت القاعدة المرعية في الفتح العربي تخيير البلاد ، التي تدخل بحكمهم ، بين الاسلام والجزية ، وكانت حكومات تركستان ممن اختار اداء الجزية ، واستمرت محافظة على تشكيلاتها القومية تحت السلطة العربية ، فانها لما شعرت بتطرق الخلل الى الدولة الاموية والاضمحلال ، واستنكرت معاملة فريق من عمالهـا وجورهم في اثناء ذلك انتقضت على الامويين واشغلتهم في ثورات متوالية الى ان زال الملك عنهم :

تولى على عرش الامويين بين القرنين الاول والثاني للهجرة عمر بن

عبدالعزيز (٩٩هـ-١٠١هـ) الملك الصالح ، فتوج اعماله في الامر بالمعروف . واذ كان يكره الاشداء من الحكام عزل عن خراسان يزيد بن المهلب ، وولى مكانه عبدالرحيم بن نعيم . ثم لما صار الامر ليزيد بن عبدالملك (١٠١-١٠٥هـ) استعمل على خراسان سعيد بن عبد العزيز . وكان كلا العاملين ركيكا فاستضعفهما الناس ، ونقض اهل الصغد العهد وتآمروا مع بقية الترك على العرب . وما زالوا خارجين عليهم حتى تولى سعيد الحرشي على خراسان (١٠٤هـ)[1]

ولما كانت الثورات الداخلية التي شرعت تنتاب المملكة الاموية ، جعلتها في اقصى الحاجة للمال تبدلت سياسة العمال من العدل والاحسان الى المصادرة والشدة[2] . فأثار ذلك ثائرة العناصر الاخرى من بربر وسند وترك وغيرهم : فاستجاش اهل مابين النهرين خاقان في خلافة هشام بن عبدالملك (١٠٥-١٢٥هـ) فانتشبت بينهم وبينه الحروب المتصلة ولم يستتب الامر للعرب الا بعد عشر سنوات تقريباً من حرب سجال (١٠٩-١١٩هـ)

وساعد العرب على الانتصار خلاف وقع بين خاقان وكورصول احد ملوك الترك لقي خاقان فيه حتفه ، فلم يزد قتله قوميهما الا ضراماً .

وكأن نصر بن سيار اراد اغتنام هذا الشقاق فسار لغزو الترك في

---

(١) فلسفة التاريخ العربي للمؤلف خطي

(٢) الامامة والسياسة ج ٢ ص ١٣٢

تركستان الشرقية وسلك بجنده سبيلاً جديداً : فان غزوات العرب من قبل كانت تتجه شمالاً من مرو قاعدة خراسان الى ان تجتاز نهر جيحون فتبلغ ديار الصغد (مابين النهرين) حيث يحكم خانات بخارى وسمرقند حكم ملوك الاقطاعات . غير ان نصراً زحف في هذه المرة من مرو جنوبا شرقيا الى بلخ ، ومنها الى زر شغر وسمرقند ، ثم الى الشاش . فلاقاه كورصول ولما حاول ان يحول بينه وبين عبور النهر اصلاه نصر قتالاً كان فيه اسره وحتفه . ثم ارتفع نصر الى فرغانة فالشاش وصالحه كل من ملكيهما[١]

على ان العرب لم يستفيدوا من تخاصم الترك اكثر من اجبار تلك الممالك على دفع الجزية . ولو كانت الفرصة متوفرة لهم لما اكتفوا بذلك بعد ان رأوا الترك ينقضون العهد كل يوم ، ولكن خصاماً بينهم اشد الهاهم في انفسهم وشغلهم عن سواهم .

وان القارئ الكريم يعلم ما وقع بين بني امية ، في آخر عهدهم ، من الحروب والتنازع على العرش ، الامر الذي جعل خراسان تنشق الى ثلاثة احزاب ، ويعرف ما كان في تلاحم هذه الاحزاب من الميسرات لاظهار ابي مسلم الخراساني هناك الدعوة للعباسيين ، ولظهوره على بقية الاحزاب .

ففي انتهاء الدولة الاموية انتهت الفتوحات العربية في ديار الترك ، وبدأ بالدولة العباسية ، دخولهم في الجامعة الاسلامية ، وتحولهم من اخصام الى حماة لها متعصبين .

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٥ ص ١١١—٢٠٥

ومن يتمعن ير ان الدين كان افعل من السيف في اخماد الثورات التركية ، واستسلام ديار الترك الى الدولة العربية . وقد قال ليون كاهن « ان دخول الاسلام لديار الترك قلب حال العالم . فبعد ان كان الاتراك اعداء للمسلمين، وحلفاء صادقين لاوروبة ، انقلبوا ، عقب اسلامهم، الى اخصام لها الداء ، وكرسوا قوتهم لخدمة ذلك الدين »[1]

وقد لاحظنا انه كما كان للتحالف مع تيبت في عهد الامويين من الفائدة الجلى في فتح ديار الترك التي كانت تتهيبها الدول العظمى كافة من قبل ، فقد كان للصداقة مع الصين وانتشار الاسلام فيها ، في عهد العباسيين ، اكبر مساعد لتوطيد الحكم العربي في تلك الديار .

فقد نشبت في الصين (سنة ١٣٨هـ=٧٥٥م) ثورة عظيمة دفعت الامبراطور سوتسونك للاستنصار بالخليفة المنصور العباسي ، فأنجده باربعة آلاف عربي ، بعث بهم من خوارزم ، قاموا مقام الترك في حاشية الامبراطور[2] وأمنوا البلاد . ثم ان هارون الرشيد ارسل وفوداً ايضاً الى الامبراطور سوتسنغ قوبلت بالاكرام[3] . فكان ذلك منشطاً للمسلمين على التردد والسكنى في الصين ونشر الاسلام فيها . كما كان من ثم دافعاً للترك عن الصين بتأثير مزاحمة العرب لهم فيها ، وحادياً لهم الى التقرب من ديار المسلمين وقبول دينهم .

---

(١) L. Cahun: Int. a l'hist. de l'Asie p. 119

(٢) p. 137 Idem والشيخ محمد بيرم صفوة الاعتبار ج ١ ص٢٣

(٣) الخانجي منجم العمران ج ٢ ص ٢٨٣

اسلام الترک

« تأثير السوريين ، وسياسة العباسيين ، وفائدة التجار في نشر الاسلام »

كان الترك ، زمن الفتح العربي ، على اديان مختلفة : فمنهم مزديون مجوس ومنهم نصارى ، تنصروا بما كان لهم من العلائق مع اساقفة خراسان وما بين النهرين ، وثلاثة ارباعهم بوذيون .



« بوذا »

فلما اكتسح العرب بلادهم تلقوهم على حالين مختلفين : فنصارى الترك ، اثر عليهم اساقفتهم السوريون الموالون للعرب الذين رأوا في اخلاق الفاتحين واعتقاداتهم شبهاً كثيراً لما لديهم منهما ، فلم يبدوا الخصام للفاتحين. واما المجوس والبوذيون منهم فقد نفروا من المسلمين واتحدوا جميعاً على مقاومتهم ، ولا سيما في جهة فرغانة منفذ بلاد كاشغر . خلافاً لما حدث في مابين النهرين من انضمام الفرس الى العرب ضد مواطنيهم الترك .

غير ان اتحادهم هذا لم يدفع عنهم جيش العرب الجارف ، بل دخل المسلمون بلاد كاشغر عنوة واجلوا اخصامهم الالداء عنها الى الجبال حول نهر جيحون إلا نفراً تخلفوا منهم واختاروا اداء الجزية على الاسلام ، واستمروا على اضطهاد الذين يعتنقون هذا الدين .

فلما بني مسجد بخارى الاول (٩٤هـ=٧١٢م) صاروا يرشقون بالحجارة الذاهبين من الترك الى الصلاة . كما ان العرب كانوا تأليفاً لقلوب هؤلاء يؤدون درهمين لكل واحد منهم يشهد صلاة الجمعة[١]

على ان الذين اسلموا منهم ، كانوا كما وصفهم المؤرخ نارشاكي Narchaki ، كمثل بربر افريقية يسلمون بحضرة العرب « واذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم انما نحن مستهزؤن . »

وبعد فان الاسلام الذي كان هكذا بطيء السير في ديار الترك في عهد الامويين ما كان اسرعه في عهد العباسيين :

ويرجع الفضل في ذلك اولاً الى الاعاجم الذين اسلموا فنشروا

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 124-137

الاسلام اما بالفتح ، او في السياحات التجارية ، وثانياً الى سياسة العباسيين في تجنيد الترك واغداق الاكرام عليهم .

فان فتوحات اسماعيل الساماني حاكم خوارزم والصغد كما نشرت الاسلام حتى الحدود الصينية[١] ، فان الفراغنة ، الذين اسلموا في القرن الثالث للهجرة ، بثوا الدعوة الاسلامية ، في رواحهم وغدوهم ، ما بين فرغانة والهند .

وهكذا كان شأن تجار المسلمين إذ ينقلون القرآن الكريم معهم حيث رحلوا ويمثلون دور مبشري النصرانية في العصور الاخيرة . وممن اسلم على يدهم بغرو خان ولي عهد كاشغر (٣٤٥هـ=٩٥٤م)[٢]

وكانت سياسة العباسيين ازاء الترك افعل من سواها في نشر الاسلام بينهم ، وتأليف افئدتهم : فالمعتصم وخلفاؤه اتخذوا الترك عصبية لهم ، كما سنوضحه . ولما ذاع في تركستان ، حضرها ووبرها ، ما يلقاه الوافدون الى ديار العباسيين من الاكرام والنفوذ ، تقاطروا اليها مئات والوفاً يطلبون الارتزاق في الجندية الى ان بلغ من قدم منهم عام (٣٤٩هـ=٩٦٠م) على رواية ابن الاثير نحو مائتي الف خركاه

والخركاه الخيمة ، ولا يقل اهل الخيمة الواحدة عن خمسة انفس فعدد الذين أسلموا في هذه الدفعة نحو مليون نفس[٣]

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 153

(٢) Idem p. 172

(٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ص

ثم صار الاسلام من بعد ينتشر بينهم في جوف بلادهم : فاسلم في سنة (٤٣٥هـ=١٠٤٣م) في بلاسغون وكاشغر عشرة آلاف خركاه ، وضحوا يوم عيد الاضحى عشرين الف رأس غنم [١] ولم يتأخر عن الاسلام منهم سوى التتر والخطا ، وهم في نواحي الصين [٢]

ثم كان اسلام السلجوقيين ورفعهم شأن العنصر التركي في ديار الاسلام مما حرك الترك ، وجعلهم ينهمرون اليها كالسيل ، ويدخلون في الاسلام طلباً للرزق في ظل ابناء جلدتهم [٣]

شخوص الترك لديار الاسلام [٤]

« وخدمتهم في الدولة العباسية »

يبدء عهد شخوص الترك للشرق الادنى مذ وطئ العرب مواطنهم فاتحين، غير ان ذلك جاء في البداية على سبيل الاسر او مماليك في جملة الجزية يوزعون على الامراء :

(١) ابن الاثير الكامل

(٢) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١٦٧

(٣) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٥٧

(٤) اشهر بلاد الاسلام وقتئذٍ الجاذبة للترك خراسان وكرسيها نيسابور وعراق العجم وكرسيه اصبهان وعراق العرب وكرسيه بغداد واذربيجان وكرسيها تبريز وخوزستان وكرسيها ششتر وفارس وكرسيها شيراز وديار بكر وكرسيها الموصل وبلاد الروم (اناطول)وكرسيها قونية

قال ابن خلدون: « انهم (الترك) عند الفتح لم يذعنوا الا بعد طول حرب وممارسة ايام سائر دولة بني امية وصدرا من دولة بني العباس ، فامتلأت ايدي العرب من سبيهم واتخذوهم نولا في المهن والصنائع ، ونساؤهم فرشاً للولادة ، وكان شأنهم (العرب) ان لا يستعينوا برقيقهم في شيء مما يعانونه من الغزو والفتوح ومحاربة الامم ومن اسلم منهم تركوه لسبيله من امر معاشه .»

ولما كانت بغداد قاعدة الدولة العباسية ادنى لتركستان من دمشق ، وكان اولو عصبيتها الفرس في خراسان على مقربة من الترك ، فان هؤلاء ونخص منهم بالذكر عشائر القانقلي والقالاج والتركمان سكان ما بين النهرين شرعوا في صدر الدولة العباسية يتقدمون من خراسان والعراق هرباً من اذى الاويغور ابناء عمهم ، وطلباً للرزق حيث توفر الرغد والهناء[1]

ثم تضاعفت رغبة الترك بالمهاجرة الى الشرق الادنى حينما عول العباسيون على تجنيدهم بعد ان كانوا مماليك بالقصور في ايام الامويين وفي مدة السفاح اول العباسيين (١٣٢—١٣٧هـ)

فان المنصور ثاني العباسيين (١٣٧—١٥٨هـ) كان اول من فطن للاستفادة من بأسهم فالف منهم شرذمة صغيرة لا شأن لها وانما ، استمر الشأن الاكبر يومئذ للعرب وللخراسانيين الفرس[2] ، وقرب رجالاً منهم في مقدمتهم حماد .

ثم اتخذ بنو العباس من لدن المهدي والرشيد بطانة اصطفوهم من موالي الترك والروم والبربر ملأوا منهم المواكب في الاعياد والمشاهد

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie

(٢) المسعودي ج ٢ ص ٢٤٦

الهند وافتتح قلاعاً منها . واوصى بالأمارة بعده الى بكره اسماعيل ، ولكن ابنه الثاني محموداً كان اكثر كفاءة من اخيه واقتداراً ، فدخل غزنة عنوة ، وكما نفض يده من سيادة السامانيين ، فانه اجلاهم عن خراسان وسجستان . ولم يزل يفتح في بلاد الهند حتى انتهى الى حيث لم تبلغه في الاسلام راية[١] . وأحسن ، من جهة اخرى ، السياسة مع الخليفة العباسي ، فنال منه الالقاب وكان اول من سمي سلطاناً .

ثم لما استتب الامر لولده مسعود بعد خلعه اخاه محمداً قسراً(٤٢١هـ) اضاف الى مملكتهم بلاداً واسعة اخرى ، فاصبحت سلطنتهم اوسع دول العصر الاسلامية .

ولكن عهد عظمتها كان قصيراً ، فسرعان ما نشأت ازاءها الدولة السلجوقية ، فقضت عليها صبية .

فلما هزم السلجوقيون مسعوداً ، واستولوا على خراسان ، تخاذل الغزنويون من بعده وتقاتلوا على العرش ، فتركوا لاعدائهم هؤلاء المجال للتقدم في مملكتهم حتى اذا تنازع ارسلان شاه بن مسعود مع اخيه بهرام شاه ونزع الثاني من اخيه التاج مستعيناً بالسلجوقيين دخل طبعاً تحت حمايتهم وتولى بلاده باسمهم ٥١٢ هـ[٢]

ومع ذلك فلم يصف له الوقت ، وانما بات ملكه هدف مطامع الدولة الغورية التي نشأت في الغور (٥٤٣هـ=١١٤٨م) . وقد لبث الغوريون

---

(١) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٢ ص ٥١٦

(٢) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١١٦—٢٢٦

يتربصون بالغزنويين الدوائر الى ان تغلبوا على ولده خسروشاه ، فانقرضت بذلك السلطنة الغزنوية العظيمة بعد ان تداول على عرشها اثنا عشر سلطاناً

(الدولة السلجوقية ٤٢٩—٥٨٩—٧٠٠هـ / ١٠٣٧—١١٩٥—١٣٠٠م)

اصل السلجوقيين من عشيرة كرِيّت او من نيمن ، الترك النازلين في جانب الصين ، عند مخرج كاشغر . اختلف زعيمهم سلجوق مع بوغو امير تلك العشيرة ، فهاجر مع فريق من قومه الى الجانب الغربي الجنوبي حيث اقطعه المنتصر آخر ملوك السامانيين جنداً (بليدة قرب بخارى) واستعان بـه على كفاح اتراك كاشغر ، وخاقان الاويغور [1] . واعتنق سلجوق الاسلام في سنة ٣٤٩هـ وتوفي عن ارسلان وميكائيل وموسى : ثلاثة ابناء حافظوا على خطة ابيهم ، بغزو كفار الترك ، واستشهد في هذا السبيل ثانيهم ميكائيل مخلفاً بيغو وطغرل بك وجغرو داوود . وقد قوبل السلجوقيون في اول الامر بنفرة عامـة واضطهاد شديد من الدول التي جاوروها كافة لخشونة طباعهم . ولذلك فلم يكن يستقر لهم قرار .

ولما زحف السلطان محمود الغزنوي ، بالاتفاق مع خان كاشغر ، على ايلك خان المتغلب على الدولة السامانية والقائم على انقاضها في بخارى اعتقل ارسلان بن سلجوق الذي كان نصير ايلك خان وشتت قومه في انحاء خراسان .

غـير ان السلطان مسعوداً بن محمود المشار اليه لم يلبث ان احتـاج لمعونـة السلجوقيين لجمع شملهم ، ثم كانت عاقبـة ذلك ان تغلبـوا

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 171

علي خراسان ، وجلس اميرهم طغرل بك على سرير الملك الذي كان للسلطان محمود في نيسابور .

وكاتبهم في اثناء ذلك الخليفة القائم بامر الله يخوفهم بالله ويحملهم على رعاية عبادته ، فتباهوا برسالته وسيروا اليه بكتاب الطاعة ، وانهم يغيرون للأسلام على المفسدين [1]

وكأن الخليفة استلان جانبهم ، وقد استثقل استبداد آل بويه الديلم اصحاب منصب امارة الامراء في بغداد ، فراسل طغرل بك عقب فتحه خوارزم واصفهان فأذربيجان ، وحرك عزمه على القدوم اليه (٤٤٧هـ)

تلك نعمة تلقاها طغرل بك بالفرح نخف الى بغداد ، وقبض على الرحيم آخر ملوك بني بويه . وبعد ان مكث فيها ١٣ شهراً ونيفاً توجه لنصيبين وديار بكر فاتحاً ، وما رجع الا بعد استيلائه على الموصل واعمالها ٤٤٩ هـ . وحينئذقابل الخليفة لأول مرة ، وعقب ان قبل الارض امامه لثم يده ، فزوده الخليفة بالنصائح ، وولاه على ما يملك .

ولما دانت لطغرل بك البلاد بادر الى كشف ما اضمره : فسير يخطب ابنة الخليفة فما كان على القائم بأمر الله ، وان شقت عليه تلك البدعة ، الا ان يوافقه على طلبه ٤٥٥ هـ

ولم يكن يطيل طغرل بك المكوث في بغداد ، لما يقع من اجناده من الطغيان على الرعية ، فقصد بعد دخوله بابنة الخليفة الى بلاد الجبل ، وتوفي عقيماً في الري .

---

(١) الأمام عماد الدين الأصفهاني ص ٦ — ٨

وكادت السلطنة تبيد عقب موته لما قام بين امراء السلجوقيين من النزاع على عرشها ، لولا تغلب ابن اخيه الب ارسلان بن داوود وتعزيزه اياها الى حد ان هيبته اصبحت تغنيه عن القتال . فأطاعه صلحاً كل من خان بخارى وصاحب ديار بكر المرواني وحاكم حلب من آل مرداس(١)

ثم خدم الحظ الب ارسلان في تعرض الامبرطور البيزنطي ارمانوس Romain Diogène لبلاد المسلمين خدمة كان بها ظهور السلطان السلجوقي من بعد بمظهر الحامي للاسلام(٢) :

زحف الامبرطور بنفسه من جهة ارمينية بجيش عظيم وعدة وافرة فالتحم مع السلطان بين خلاط ومناز كرد ، فما نجحت من الوفه احاد ، بل لم يسلم هو نفسه من الاسر(٣)

وقد صفح عنه السلطان وزوج ولده ملكشاه من ابنة الامبرطور . ولما كانت عوائد الترك القديمة تؤذن بحقوق لعائلة الزوج في ارض الزوجة ، فما نسي الترك منذ ذلك ما صار لهم من الحق في قسطنطينية الى ان دخلت في حوزتهم عنوة . ثم ما غفل الب ارسلان عن ان يسير بولده الى سمرقند فيزوجه كذلك من ابنة خاقانها(٤) ليكون له ايضاً عصبية في

---

(١) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج ٢ ص ١٨٥—١٨٧

(٢) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 190

(٣) الاصفهاني ص ٤٠

(٤) L. Cahun: Int. à l'hist. de l' Asie p. 191

الشرق اسوة بما صار له في الغرب .

وهكذا فلما قتل الب ارسلان (٤٦٥هـ=١٠٧٢م) اورث ولده ملكشاه ملكاً عظيماً وتسنى له مدبر مفكر وهو الوزير نظام الملك، منشئ المدرسة النظامية الشهيرة، فجمع بين سعة الملك والعمران .

وكان ملكشاه مثل بقية الملوك الطامعين بالاستحواذ على اقاليم الارض كافة . وقد حاول ان يحقق مطمحه هذا فحمل بنفسه على ديار الترك متوغلاً فيها ولاشى في طريقه اليها دولتي بني مروان الكردية، وآل قريش في الموصل . ثم استخضع صاحبي سمرقند واوزكند، وسيّر في نفس الوقت الامير بُرسق للروم، واخاه تُتُش للشام، فمصر فبلاد الغرب، وكهرائين لليمن . وكان موفقاً فصار يخطب باسمه من جانب الصين الى البحر المتوسط، ومن بلاد الخزر الى البحر الهندي جنوباً . وكانت ايامه منتهى ما بلغه السلجوقيون من العز ومبدأ اضمحلالهم، كما كان حال العثمانيين والافرنسيين بعده في كل من عهدي سليمان القانوني ولويس الرابع عشر .

وان سلطنة كالسلجوقية مؤلفة من جملة عناصر، وقائمة على انقاض عدة من الدول، لا بدع ان يسرع عهد انفكاك رابطتها .

فلما مات ملكشاه (٤٨٥هـ) وقعت الواقعة وساعد على ذلك مبايعة الاجناد محموداً اصغر ابنائه، بتأثير والدته، فشبت بينهم اختلافات قسمت السلطنة، واطمعت بهم اصحاب المقاطعات، فضلاً عن الصليبيين، اختلافات استمرت حتى قضت على دولتهم .

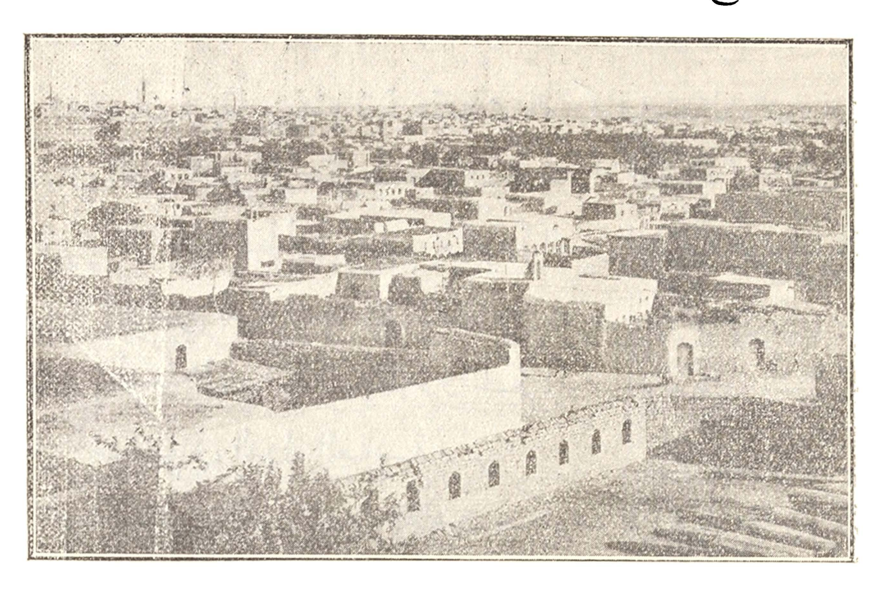
فقد خرج بركيارق بكر ملكشاه على اخيه محمود وكاد يسقطه عن العرش قسراً لولا قيام عمهما تتش صاحب الشام وطمعه بالسلطنة .

ولما استتب الامر لبركيارق بعد موت اخيه محمود وقتل عمه في الحرب نهض ايضاً لمناوأته اخوه محمد مع شقيقه سنجر صاحب خراسان واستمر القتال مستعرا بينهما منذ سنة ٤٩٢ الى ٤٩٧ هـ حيث تقرر اقتسام المملكة بينهما .

على ان تلك المملكة لم تبق على اتساعها السابق ، كلا بل ان ذلك التنازع ادى لتقسيمها . فانفصلت عنها الشام وفلسطين وقام عليهما ولدا تتش رضوان ودقاق . واستقلت الاناطول وتغلب عليها ابناء قتلمش السلجوقيون اصحاب قونية . فضلاً عن ان ذلك التنازع اطمع الافرنج ونشطهم للقيام بالحروب الصليبية ، ومهد لهم وسائل النجاح فيها حتى امتلكوا عنوة سواحل الشام والقدس وانطاكية .

وان الخطبة وان استمرت لبركيارق في انحاء السلطنة ثم لاخيه محمد من بعده ، غير ان نفوذهم الحقيقي على اصحاب المقاطعات كان قد لاشاه التخاصم الى حد ان صدقة الأسدي امير العرب في العراق صار حمى لكل من خاف السلطان . وبلغ من تخاذلهم انه حينما ادرك السلطان محمد عاقبة الغفلة عن الصليبيين وجهز جيشاً الى حلب نجدة لابن عمه رضوان ، ثم سير اقسنقر البرسقي والياً على الموصل ، وامر حكام المقاطعات ان يتحدوا معه لحربهم فان ابن عمه المشار اليه غلق ابواب حلب بوجه جيش السلطان وخذله (٥٠٥ هـ) وان صاحب ماردين عارض البرسقي

في طريقه ، وقصد الأتابك طغتكين المتغلب على دمشق بعد دقاق وكاتبا الافرنج للاتفاق على السلطان ! ٥٠٨ هـ



« مدينة حلب »

كل ذلك كان عاقبة التنازع بينهم على الملك ، بيد انهم رغم ما حل بهم لم يعتبروا ، بل لم يكد السلطان محمد يقضي نحبه (٥١١ هـ) حتى تجدد القتال بين كل من سنجر ومسعود ومحمود . وتمت الغلبة لمسعود وصفا له الزمن حتى توفى سنة ٥٤٨ هـ

وحينئذ كانت لهم رجعة الى الخصام بينما كان شأن اتابكتهم يتعزز في الامصار الى ان كانت سنة ٥٨٩ هـ فداهم صاحب خوارزم السلطان ارطغرل ، ولاشى بقتله السلطنة السلجوقية الكبرى في فارس [1]

(١) اعتمدنا بالاكثر تاريخ ابن الأثير في تأليف هذه الخلاصة عن السلجوقيين من بين فصوله المتعددة

واما سلطنة سنجر في خراسان فانها كادت تسترجع عهد المجد السلجوقي لولا انقلاب وقع في الصين فنالها من مغبته على ما بينهما من البعد .

وذلك ان فريقاً من عشيرة قره‌قيطاي التركية وجد له بالثورات التي وقعت في الصين، على اثر سقوط عائلة ثنك Thang الحاكمة، مجالاً للتدخل في شؤونها الداخلية فبذلوا نجدتهم لحكومة الصين الشمالية ضد الحكومة الجنوبية، وتسنى لهم بواسطة الانشقاق بين هاتين الحكومتين ان يترقوا من دور الخدمة الى مرتبة السيطرة والحكم المباشر باسم دولة الشمال اسوة بما فعل اخوانهم في الدولة العباسية .

ثم لما استتبت امور الصين وقامت حكومة كن فيها مقام حكومة ثنك، لم ير امبرطور الترك الدخيل فيها المسمى يه‌لوتاشي Yelou-tachi بداً من الهجرة، فنزل في ديار الكرج، وعول على ان يجمع حوله العصبية التركية، ليهاجم ديار الاسلام، فيستعيض بها عما اضاعه في الصين .

وقد توفقت تلك العشيرة تارة بالسياسة وطوراً بالسيف، لأن تملك كلاً من كاشغر وجونغاريا[1] . ثم وجدت لها في الدعوة التي وصلت اليها من عشيرة قارلق التركية، النازلين حول سمرقند، تنشيطاً لمطامعهم في دار الاسلام فاقبل خاقانهم اوزخان في ٧٠٠ الف مقاتل . وبعدان هزموا السلطان سنجر ٥٣٢ هـ تمكنوا من الاستيلاء على ما بين النهرين[2]

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie. p. 192-197

(٢) الاصفهاني ص ٢٥٣—٢٥٤

وكان يسكن وقتئذ ما بين النهرين طائفة اخرى من وثني الترك تسمى الغز « Oghuz » خافت وكرهت جوار القرهقيطاي فأمت خراسان، ولما اراد عامل السلطان سنجر على بلخ ان يردها، كشرت عن انيابها وتفانت في مقاتلة السلطنة السلجوقية هناك حتى تغلبت عليها واسرت سنجر نفسه .

على ان الغز وان اكتفوا بالبقاء بمرو وبلخ وما يليهما، ولم يتعدوهما وان سنجر ولئن هرب منهم الى ترمذ، بعد ثلاث سنوات قضاها مبجلاً في اسرهم، لم يقو على النهوض بسلطنته لان نجمه كان قد اذن بالافول فمات سنة ٥٥٢ هـ . ولم يفلح من بعده كل من خليفتيه ابن اخيه سليمان شاه، وابن اخته محمود خان، بل صارت البقية من سلطنته الى مملوكه اي‌ابه اسوة ببقية السلطنات السلجوقية، في اصفهان وكرمان والعراق وكردستان والشام، وما عدا الفرع الملقب بالرومي في القرمان في آسية الصغرى، ذلك الفرع الذي قامت على انقاضه الدولة العثمانية، فقد انقرض الاصل والفرع منها، وانشأ اتابكتها وعمالها حكومات لم يكن لمعظمهم عمر طويل ولا امر نافذ، وهاك جدولاً فيها :

	اسم الدولة	قاعدة ملكها	مدة حكمها	
			تاريخ هجري	تاريخ ميلادي
١	البورية	دمشق	٤٩٧—٥٤٩	١١٠٣—١١٥٤
٢	الزنكية	الجزيرة والشام	٥٢١—٦٤٨	١١٢٧—١٢٥٠
٣	البكتيجينية	اربلا وغيرها	٥٣٩—٦٣٠	١١٤٤—١٢٣٢
٤	الأرتقية	ديار بكر وماردين	٤٩٥—٧١٢	١١٠١—١٣١٢

اسم الدولة	قاعدة ملكها	مدة حكمها	
		تاريخ هجري	تاريخ ميلادي
٥ الشاهات	ارمينية	٤٩٣—٦٠٤	١٠٩٩—١٢٠٧
٦ اتابكة اذربيجان	اذربيجان	٥٣١—٦٢٢	١١٣٦—١٢٢٥
٧ السلفرية	فارس	٥٤٣—٦٨٦	١١٤٨—١٢٨٧
٨ الهزارسبية	لورستان	٥٤٣—٧٤٠	١١٤٨—١٣٣٩
٩ الخوارزمية	خوارزم	٤٧٠—٦٢٨	١٠٧٧—١٢٣٠
١٠ القطلغية	كرمان	٦١٩—٧٠٣	١٢٢٢—١٣٠٢
١١ جاغيطاي	تركستان	٦٢٤—٧٦٠	١٢٢٦—١٣٥٨

وقد امتاز من هذه الممالك كل من الدولة الزنكية والخوارزمية : أشهرت الاولى وقفاتها في الحروب الصليبية ، وأشهر الثانية دفاعها الشديد زمناً في قتال المغول ، الذين استولوا على كل هذه الدول واقاموا النفوذ المغولي مقام النفوذ التركي .

على انه يجب ان لا نختم هذا الفصل قبل الاشارة الى دولتي المماليك اللتين نشأتا بعد ذلك في مصر :

اسم الدولة	قاعدتها	عدد ملوكها	سنة نشأتها	سنة انقراضها
١ المماليك البحرية	القاهرة	٢٦	٦٤٨	٧٩٢
٢ 〃 الشراكسة	〃	٢٣	٧٨٤	٩٢٢

فانهما من دول الترك التي كافحت عن ابناء دينها ، والشرق الادنى اي كفاح وان للماليك البحرية الذين تمكنوا من الاحتفاظ باستقلالهم ، رغماً من الكارثة المغولية الجارفة ، يداً في اجلاء المغول ، فضلاً عن انقاذ بعض الشرق الادنى منهم .

٢

العصر المغولي

في هذا الجزء البحث عن الامة المغولية ، وما كان لها من التمهيد لظهور السلطنة العثمانية ، ويدخل فيه ضمناً الكلام على الشرق وحال العالم الاسلامي في ذلك العصر

فهرست الجزء الثاني

الجزء الثاني

لما كان المغول هم الذين عملوا عن غير قصد على شخوص اجداد العثمانيين الى الشرق الادنى ، وهم كانوا وسيلة التعارف بين آل عثمان وساجوقيي انقرة الذين نشأت تركيا على انقاضهم . كما انهم هم الذين مهدوا سبل بسطة ملك السلطنة العثمانية ، بما دوخوه ولاشوه قبيل ظهورها وفي صدر دولتها ، من الحكومات ، لذلك ورغبة في ان يكون بحثنا التاريخي متصلاً غير متقطع عولنا على ايراد خلاصة من اخبارهم .

على ان الكلام هنا على العصر المغولي ، وان جاء فاصلاً للبحث عن الترك ، الا انه ورد على حسب سياق الحوادث فعلاً في التاريخ : فان المغول في ديار الاسلام قسموا العصر التركي الى قسمين : قسم انتهى بسيطرة المغول على السواد الاعظم منها ، وقسم بدأ بجلائهم وتقلصهم عنها وقيام الامبرطورية العثمانية .

اصل المغول وجنكيز

لما ضعف العنصر التركي ، بما اصاب السلطنة السلجوقية من الانحلال ، خلا الجو للعناصر الاسلامية الاخرى ولا سيما العرب ، لينطلقوا في ميدان الاستقلال والتوسع . ولكن الحضارة والاستعباد كانا قد فعلا فعلهما بهم فتركوا هذه الفرصة لأمة غريبة جاءت من بلاد بعيدة فاكتسبتها .

تلك هي امة المغول البدوية ، التي كانت تنزل في سيبريا ما بين نهري

سنكاري والأيرتش ، وترو عن اصل اجـداده‍ا مثل ما يقال عن ولادة بوذه والمسيح .

لقد بينا ان قسماً من عشائر الترك كان جنـداً للصين ، فلما قضت الحوادث على هؤلاء بالمهاجرة عنها الى الشرق الادنى ، وقام المغول مقامهم بالتجند للصين ، وشرع شأنهم بالظهور فيهـا ولا سيما مذ بذلوا خدماتهم للعائلات المالكة الصينية المتقاتلة .

وفي اوائل القرن السادس للهجرة كان على زعامة المغول اميرمن آل بروديجان اسمه يسوكاي بهادر مات عن اولاد صغار واغتصب نسيب له الامارة ، فهاجرت امرأته باولادها الى رحاب اخ له بالعهد من امراء ترك النيمن النازلين على الشاطئ الايمن من نهر الانون ، وزوجت ولدهـا تيموجين من احدى بنات آل كونكراد (٥٧٨ هـ=١١٨٢م) فاصبحت تلك العشيرة عصبية له .

وكان تيموجين هذا طماحاً كبيراً ، وعلى رغم معاكسة شديدة عاناها من اخيه واقرباء له وجيرانه استطاع ان يستخلص لنفسه الامارة ، وان يبسط سلطانه ، تارة بالرهبـة وطوراً بالرغبة ، من الصين ، الـتي كان يتقاضى من حكومتها الشمالية جعلاً على حراسة الحدود ، الى ديار الاسلام ، حتى اذا ما بلغ عاصمة الترك قره كوروم (٦٠٣هـ=١٢٠٦م) في اثنـاء فتوحاتـه بايعه تسعة عشر امـيراً من المغول وسموه جنكيز خان اي السيد المطلق[1] .

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 275-287

على ان طموح جنكيز خان لم يقف عند الزعامة على اهل البادية وحسب، بل سرعان ماسولت له نفسه ان يكتسح العالم المتمدن فابتدأ بالصين جارته، وغزاها مرتين سنة ١٢١١—١٢١٦م وافتتح الدولة الشمالية فيها . وبينما كانت جنوده تتوغل في الصين و كوريا ، تحولت مطامعه الى الشرق الادنى حيث بلغه ما بلغه من عمرانه وخيراته .

وقد انمى تلك المطامع فيه بديار الاسلام ماوصل اليه من تنازع ملوكها ، فاهتبلها فرصة ، وجهز احد قواده لاكتساحها فتغلب على اطراف مملكة كشلي خان التركي حاكم سمرقند .

ثم لما بلغه ما حدث من الخلاف بين محمد علاء الدين سلطان خوارزم وبين كل من الخليفة العباسي من جهة ، ومن شعبه من جهة اخرى ، خرج جنكيز عن موقف التردد ، واستهان بالخوارزميين بعد ان كان يتخوف منهم ، فتقدم واستولى على ما وراء النهر وخوارزم وخراسان وقندهار وملتان ١٢٢٤م ، وبسط يده على اطراف الهند الشمالية الغربية .

وارتكب قومه في اثناء ذلك من الفظائع ما جعل ابن الاثير يقول :

« لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استفظاعاً لها كارهاً لذكرها فانا اقدم رجلًا واؤخر اخرى . فمن الذي يسهل عليه ان يكتب نعي الاسلام والمسلمين ؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك ؟ فياليت امي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً ! »

اما خوارزمشاه ، فانه امعن بالهرب حتى التجأ الى قلعة في جزيرة ابسكون في بحر طبرستان Caspienne حيث هلك متأثراً .

واما الخليفة فانه ادرك سوء العاقبة فهب لدعوة ملوك الاسلام وحضهم على الاتحاد لدفع الجارف المغولي ، فلباه فريق منهم ، واستمر الفريق الآخر مشغولاً بالحروب الصليبية . ولكن اتحادهم لم يأت بفائدة فانهزموا واستمر المغول على التقدم ، وامتلكوا همذان وقسماً من اذربيجان وايران ، ولولا تحول وجهة الفتح عند المغول الى جهات اخرى وموت جنكيز وقتئذ لما توقفوا الا عند البحر المتوسط .

فان جنكيز لم يلبث ان كف عن التقدم في ديار الاسلام وفي اثناء تسييره شطراً من جيشه الى الجهة الشمالية الغربية بلغ بلغاريا ، زحف هو الى الشرق الاقصى للقضاء على مملكة الصين الجنوبية ، اسوة بما فعل من قبل بالشمالية ، فمات في طريقه اليها (٦٢٤هـ=١٢٢٧م) . مات بعد ان تمكن من انشاء دولة لم يتوفق لمثلها احد من الفاتحين وهو ومعظم قومه اميون [١] .

. . . .

مات جنكيز ولكن اخباره لم تمت وانما استمرت تربو وتزداد حتى صورته في مخيلة الناس وحشاً ضاريا .

بلى ان جنكيز ما كان بريئاً كل البراءة من هذه التهمة غير انه لم يكن محروماً من العظمة التي يجب ان تقدر له .

حقاً انه أمي ، الا انه كان نير الدماغ عالماً بفنون الحرب متسامحاً لا يميز بين المجوس اهل مذهبه وبين سائر الاديان

---

(١) جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٤ ص ١٠٨

رأى قومه محرومين من لغة مدونة وشريعة قومية فجمع عقلاءهم وأمرهم ان يضعوا له خطاً وقلماً يكون لهم علماً وعملاً وان يؤلفوا شريعة بلسانهم فعملوا كل ذلك ولا تزال بعض الاحكام في اسيا ترجع الى كتاب جنكيز الذي سماه السياسة الكبيرة [1]

واما في فن الحرب فان ليون كاهن ، على اعترافه بان المغول كانوا اقل مقدرة ادبية ومدنية من سائر الامم ، فانه يبرؤهم من الوحشية ويسند انتصاراتهم الى معرفة تامة باصول الحرب ويبالغ حتى يقول ان واقعة سنة ١٢١٩م ما بين جنكيز وجلال الدين الخوارزمي ما كانت تقل انتظاماً حربياً عن قتال سنة ١٨٠٥ م الذي تولاه نابليون الاول [2]

المغول بعد جنكيز

لما انبسط ملك جنكيز خان قسمه بين اولاده ، فنصب دوشي خان على البلاد التي تمتد من اطراف قسطنطينية الى فارس ، وجعله حاكماً على القبجاق والكرج والبلغار والروس وشطراً من فارس ، وولى ابنه جغطاي على خوارزم وخراسان وما بين النهرين ، واقام اقطاي على كرسي مملكته في قره كوروم . واما رابعهم طولي فلم يعين له شيئاً واكتفى بان جعل لولده اوتكين بلاد الابخاذ [3] ، وقيل انه كان حاكماً على المغول والترك النازلين حول نهري اركون واونون .

---

(١) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٥٥٢

(٢) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 286

(٣) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٥٥–٥٦

وقد مات دوشي وطولي في حيـاة ابيهما فصار اختلاف على هذه الاعمـال، ثم قر قرارهم في المجمع الكبير الذي عقدوه في قره كوروم عاصمة الامبرطورية سنة ١٢٢٧م على تثبيت اوقطاي على كرسي الامبرطورية ومبايعته خلفاً لوالده جنكيز . واننا رغبة بالاختصار نكتفي بوضع جدول في اسماء خلفاء جنكيز الى ان تجزأت دولتهم :

(١) جنكيز

(٢) اقطاي — تولى ٦٢٦هـ—١٢٢٧م بوصية والده له وباقرار المجمع الكبير . وبعد ايام الافراح تحرك لاكمال الفتح، فارسل جرماغون الى خراسان فقضى على دولة خوارزم، وانفذ سنتاي بهادر الى جهة اوروبا فكاد ان يدخل قسطنطينية لولا ان تألب عليه الافرنج ودحروه، وسار الخان بنفسه لحرب التون خان ملك الخطا ففاز عليه

طولي لم يملك

(٣) كيوك — خلف اقطاي وهلك بعد عام . واشترك في حفلة مبايعته وفود الممالك الاوروبية والاسلامية ومندوب الخليفة والبابا

(٤) منكو — او مونككا — انتخبه المجمع الكبير امبرطوراً سنة ١٢٤٦م فانفذ اصحابه للفتح ، فتولى هولاكو كبرا اكتساح بغداد والقضاء على الخلافة العباسية فيها . ولما قتل منكو في حملة حملها على احد ملوك الخطا في الصين نشب الخصام بين اخويه قوبيلاي واريغبوكا فتقسمت الامبرطورية بين قوبيلاي : في بكين . واريغبوكا في قره كوروم وكايدو في اطراف تركستان الغربية les marches ، هـذا عدا دولتي هولاكو في فارس والعراق ، وبركة خان آل دوشي في روسيا ومايليها[1]

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l' Asie p. 304—378

على ان قوبيلاي ، وان تم له الظفر بعد قتال سبعة عشر عاماً بينه وبين اخيه ، الا انه لم يعد بالامكان الاحتفاظ بوحدة الامبرطورية المغولية ، كما ان دولة قوبيلاي ، وقد اتخذت بكين كرسياً لملكها ، اكتسبت صبغة صينية ، ولم يبق لها اقل تدخل في الشرق الادنى . وقد بقيت هذه الدولة الى سنة (٧٣٢هـ=١٣٣١م) حين قضى عليها الصينيون [١] .

اما المملكتان المغوليتان اللتان استمر لهما اتصال مع الشرق الادنى فهما حكومتا هولاكو وآل دوشي ، وقد وضعنا جدولين في ملوكهما وبحثنا عنهما في الجزء الخامس من هذا الكتاب .

المغول يلاشون شاهية خوارزم

ذكرنا كيف ان المغول ارغموا علاء الدين شاه خوارزم على الفرار من وجههم الى جزيرة في بحر الخزر حيث مات شريداً طريداً . ثم لم يقو ابنه جلال الدين على لقائهم فهرب الى دلهي في الهند وتزوج من ابنة سلطانها .

وكان اخوه غياث الدين قد انشأ مملكة له في اطراف فارس الغربية واذربيجان واساء التصرف ، فاغتنم جلال الدين فرصة هدنة المغول لاجتماع زعمائهم في قره كوروم للاشتراك بمهرجان مبايعة اقطاي خلفاً لجنكيز ، وسار على رأس جيش انجده به عمه سلطان دلهي ، واستثمر نقمة اهل مملكة اخيه غياث الدين عليه فاقصاه عن العرش وتولى مكانه ، ثم تسنى

---

(١) Nouveau Larousse Illustré, T. 6. p-166

له ان يبسط الفتوحات على البلاد المجاورة حتى دخلت في حكمه فارس وقسم من خراسان واذربيجان، وتوفر له ان يكتسب سمعة حسنة بعد ان هزم الكرج والقفقاسيين الذين طالما عاثوا في ديار الاسلام.[1]

غير ان عواهل المسلمين سرعان ما تناسوا تكالب الامم عليهم من الشرق والشمال والغرب، وبالرغم مما كانوا يعقدون على جلال الدين من الامال الكبار لم يحتملوا شدة اخلاقه فهبوا من كل صوب لقتاله

وكانت جيوش المغول قد عادت، بعد حفلة تتويج اقطاي، لاكمال الفتح، وتوزعت ما بين بلاد الاسلام واوروبا والتيبت والقره قيطاي. فلما بلغ جلال الدين عبورهم نهر امويه وانهم يجدون في طلبه استجار بملوك المسلمين، وبمقدمتهم الخليفة، فلم يستجيبوا له[2]، واستمر المغول في طلبه حتى بلغ كردستان حيث قتله الاكراد فانقرضت بموته الدولة الخوارزمية (٦٢٨هـ=١٢٣٠م) واندك بزوالها السور المنيع الذي كان يدفع المغول عن الشرق الادنى.

المغول يخضعون سلاجقة قونية

يظهر ان المغول كانوا يترددون في امر التعرض لبلاد الخليفة مباشرة، ومثلما وقف عندها جنكيز، فان جرماغون تحول عنها الى سلاجقة قونية في اسيا الصغرى.

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ١٢ ص ٢٠٠

(٢) ابن العبري مختصر الدول ص ٤٣٠

وعلى حسب الروايات عن نشأة دولة آل عثمان فان السلطان عـلاء الدين الاول السلجوقي انتصر سنة ٦٣٠ هـ على المغول بما بذله له ارطغرل جد سلاطين آل عثمان من النجدة صدفة وعن غير معرفة .

وقد يتوهم قارئ ذلك ان علاء الدين كان له الظفر على المغـول ، مع ان الرواية اذا صحت فالغلبة تكون قد وقعت على فرقة منهم تعرضت لبلاده ، يؤيد ذلك ماهو معروف من ان سلاطين قونية صاروا يبذلون الطاعة والخضوع للمغول . فقد ارسل علاء الدين في العام الذي نسبوا له فيه الانتصار رسولاً الى الخان يبذل الطاعة ، ثم لما خلفه ولده غياث الدين كيخسرو (٦٣٤هـ) وحاول الدفاع عن استقلال بلاده ، فجمع جيشاً كثيفاً للقائهم ، كانت هيبتهم افعل من عدد جيشه وعدده ، فـولى الادبار وصالحهم على جزية يؤديها سنوياً[1] ، ثم ساعد ما وقع بين خلفائه من الانشقاق سنة (٦٤٢هـ=١٢٤٤م) على دخول سلطنتهم تحت سيادة المغول فعلاً ، وبلغ من تدخلهم ان هولاكو امر بقسمة السلطنة السلجوقية بين الاخوين المتنازعين عز الدين وركن الدين الى ان جاء اجـل انقراضها فتم على يد المغول القضاء عليها واستقلال آل عثمان .

هولاكو يقضي على العباسيين والخلافة

لما انتهت حفلات مبايعة الخان الجديد منكو بن طولي وزع الممالك بين آله وذويه : فنصب قوبيلاي آغـا على ترك القره خيطاي ، من المسيري الى سايكاي وتنكوت وتيبت ، وولى الصـاحب يلواج وولده مسعود بك

---

(١) ابن العبري مختصر الدول ص ٤٢٧-٤٤٢

على البلاد التي تمتد من جيحون الى بلاد القرهقيطاي ، وعين الامير ارغون اغا على خراسان ومازندران وهندستان وايران وما بعدها الى البحر المتوسط .

وجهز الخان القواد لتتمة الفتح ، فسار سوبطاي لجنوب الصين وهولاكو للشرق الادنى وديار الاسلام (٦٥٣هـ=١٢٥٥م)[١]

ومما يدفع قول المؤرخين الذين رووا ان هولاكو لم يكن على نية التعرض للامصار العربية ، وانما جرته المناسبات اليها بينما كان في قتال الاسماعيلية[٢] خطاب اخيه منكوخان حينما شيعه فقد قال له :

« ستدخل من جهة طوران ممالك ايران ، فانشر هناك (يسق) وتقاليد جنكيزخان كافة من جيحون الى جوف مصر »

وكان من حسن طالع المغول ان صارت الخلافة العباسية الى المستعصم (٦٤٠هـ) ذلك الخليفة الغافل قصير النظر . فكان اذا نبه الى ماينبغي ان يفعله في امر المغول اما المداراة او التجييش عليهم والمبادرة للقائهم عند تخوم خراسان قبل وصولهم الى العراق يقول= انا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي اذا نزلت لهم عن باقي البلاد ! = وهلم جرا

---

(١) L. Cahun: Int. a l'hist. de l'Asie p. 378-390

(٢) الاسماعيلية من بقايا القرامطة اتباع حسن بن صباح الذي ظهر قبيل الحروب الصليبية . وقد تغلبوا بعد موت ملكشاه على حصون عدة في العراق الفارسي . وكان ابن صباح صاحب بدعتهم . يدعي ان غايته اعدام المسيئين ، وعملاً بذلك انتشر اهل شيعته في بلاد الاسلام وقتلوا ثلاثة خلفاء كما قتلوا نفرا من زعماء الصليبيين . وقد التجأ فريق منهم الى الجبال المجاورة لطرطوس واللاذقية وعليهم زعيم اسمه ابو طاهر ويعرف بشيخ الجبل يتبع اميرهم في فارس ودامت شوكتهم من سنة ٤٨٣ الى ٦٥٣ هـ

وكأن هولاكو اراد ان يأخذ الخليفة بجريرة ما فاستنجد به على الاسماعيلية ، على ما لدى المغول من القوى الكافية . ولما لم ينجده حمل على حلوان حيث قسم جنده الى قسمين : قسم تولى هولاكو نفسه قيادته ليهاجم بغداد به من الشرق ، وقسم يقتحمها من الغرب يقوده باجو

وحينئذٍ استيقظ المستعصم ، ولكنها كانت يقظة غير نافعة عقبها النوم الابدي . لأن خروج الخليفة وحاشيته من بغداد مستعذراً ، وهداياه الثمينة التي قدمها الى هولاكو لم يدفعا عنه مكروهاً ولم يجدياه نفعاً ، فاعدمه المغول مع اهله ورجاله ودخلوا بغداد فقتلوا فيها مايزيد على مليون رجل والقيت كتب العلم في دجلة وكانت شيئاً لا يعبر عنه[1] . ويقول كاهن انه لم يسلم من العباسيين الا مبارك شاه اصغر ابناء الخليفة ، فقد شفعت به اولدجاي خاتون وارسل الى بلاد المغول حيث تزوج منهم .

وانقرضت الدولة العباسية على اثر ذلك واستمر المسلمون ثلاث سنوات ونصف من غير خليفة الى ان بويع في مصر احمد بن الظاهر بالله

هذا ولقد تقوّل المؤرخون في سبب حملة هولاكو على دار الخلافة وعزاها بعضهم ، ومنهم زيدان ، الى اغراء ابن العلقمي وزير الخليفة ليثأر لاهل الشيعة من السنيين لما كان بينهما من الفتن ، واضاف فريق منهم الى ذلك ان ابن العلقمي كان يريد ان يمثل دور ابي مسلم الخراساني فيرفع على انقاض العباسيين دولة علوية . وقد يصح ان يكون ابن العلقمي قد خابر

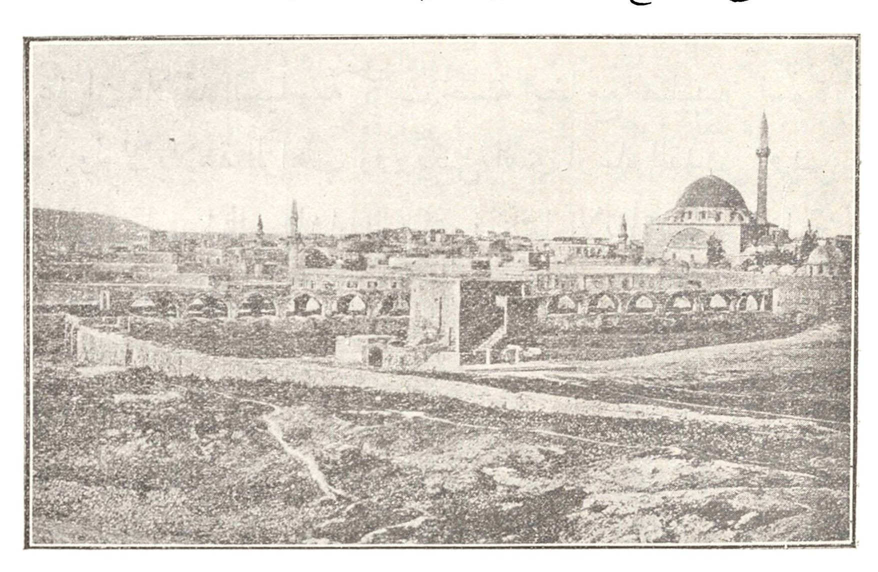
---

(١) الهلال م ١٩ ص ٣٩٢ وفي الفتوحات الاسلامية ج٢ ص ٢٩ ان عدد القتلى بلغ مليونين وثلاثين الفا ونيف

هولاكو، ولكن الحقيقة التي لامراء فيها هي ان هولاكو ماخرج من عاصمة المغول الا وهو مأمور بفتح ديار الخليفة أغراه العلقمي بذلك او لم يغره .

ولما استتب لهولاكو الامر في بغداد بعث برسله الى ملوك المسلمين يأمرهم بالحضور اليه وبذل الطاعة . فلبى دعوته فريق منهم، وتخلف آخرون، فانتهز المغول هذه الفرصة لفتح الشام، فسار اليها هولاكو بجيش عظيم فامتلك حران والرها وغيرهما ودخل حلب وقتل فيها، على رواية ابن العبري، اكثر ممن قتل في بغداد . ففت منذ ذلك الحين في عضد بقية المدن الشامية وتمكن المغول من الاستيلاء على القسم الاعظم منها الى غزة من غير قتال وعين عليها كتبوغا . ولقد اورد ابن الاثير امثلة من الرعب الذي استقر في افئدة المسلمين من المغول . منها قوله :

« ان انسانا منهم اخذ رجلًا ولم يكن مع التتري مايقتله به فقال له ضع رأسك على الارض ولا تبرح ، فوضع رأسه ومضى التتري فاحضر سيفاً قتله به »



« عكا من اشهر المدن في الحروب الصليبية »

وفي ذلك الحين كان الصليبيون لا يزالون محتفظين ببعض المدن الشامية ، واهمها انطاكية ويافا وعكا ، فلم يتعرض لها المغول لما كان بينهم وبين الصليبيين من العلاقات الحسنة

علاقات هولاكو مع النصارى

كان هولاكو متسامحاً بالدين ، مثل جنكيزخان ، ومقربا اليه العلماء على اختلاف اديانهم ، ولاسيما الفلاسفة منهم رغبة بمباحثتهم .

ويظهر ان عطفه كان على النصارى خاصة اذ كانت امه سر كوتاني وزوجته طوقوزخاتون وقائدجيشه كيتبوقا مسيحيين . ويظن ان اكرامه هذه الطائفة لاجلهم اغرى البابا اسكندر الرابع على ان يدعوه الى دين المسيح ، وان يعده بالمساعدة على المسلمين ان هو فعل ، فابى هولاكو ومات بوذياً سنة ١٢٦٤ م

على ان علائقه السياسية كانت حسنة ايضاً مع الصليبيين اسوة بالخان اخيه ، ولولا بلاهة الراهب روبريكس الذي ارسله القديس لويس ملك فرنسا الى رحاب الخان المشار اليه لتم بينهما الاتفاق على المسلمين ولما سلمت مصر من اذاهم [١] .

---

(١) لما عزم هولاكو على اكتساح ديار الخليفة ارسل الخان منكو الى قبرص وفداً للاتفاق مع القديس لويس ملك فرنسا على المسلمين ، ومقابلة لذلك بعث ملك فرنسا الى الخان براهبين اصحبهما بهدايا دينية ، فقاما بمهمة تشبه التبشير فاستاء الخان من فعلهما وكتب الى القديس لويس يوبخه على ذلك

أوحشي هولاكو ام عمراني

يظهر هولاكو للقارئ بما تقدم من اعماله كأنه وحش كاسر انما جاء للقتل والخراب وابادة العلم واهله . ولكننا لا نلبث، اذا درسنا مافعله بعد ذلك الفتح ، ان نرى له يداً في احياء العلوم وتنشيطها . ولم يكن غرضه من اغراق كتب المسلمين الا محو آثارهم لا محو العلم . وكان ذلك من جملة القواعد السياسية في تأسيس الدول فتبيد الدولة اثار من كان قبلها ثم تبني لنفسها .

وهذا مافعله هولاكو فانه لم يكد يفرغ من النهب والقتل واغراق الكتب في بغداد حتى امر نصير الدين الطوسي العالم الشهير ببناء المراصد وانشاء المكاتب ووضع الاموال تحت تصرفه ليعمل على ترقية العلم ونشره . فابتنى مرصداً في مراغة انشأ فيه مكتبة عظيمة فسيحة الارجاء ملأها بالكتب التي بقيت من منهوبات بغداد والشام والجزيرة فزادت على ٤٠٠٠٠٠ مجلد وعين المنجمين للرصد وجمع اليه الفلاسفة وجعل لهم الارزاق الموقوفة(١)

المماليك البحرية يجلون المغول

ان حملات المغول على الشرق الادنى ملأت اسواقه بالارقاء والعبيد فرأى الملك الصالح الايوبي الذي تولى ولاية مصر سنة ٦٧٣هـ—١٢٤٠م ان يتخذ منهم حرساً خاصاً ، فاسكنهم جزيرة الروضة على الشاطئ الشرقي

---

(١) مجلة الهلال م ١٩ ص ٣٩٨

المعروف بالبحر ، فلقبوا ، لذلك : بالمماليك البحرية (١) .

غير ان اولئك المماليك الذين الف منهم الحرس الخاص لم يلبثوا ان تسببوا في نقل الملك من نسل سيدهم الملك الصالح . فانه مات عن ولد صغير استضعفوه وولوا مكانه احدهم معز الدين ايبك ، فانقرضت بذلك الدولة الايوبية وبدأت حكومة المماليك البحرية (٦٤٨هـ=١٢٥٠م)

ولما قضى عز الدين ايبك نحبه حذا مملوكه حذوه فلم يدع علياً بن عز الدين يكمل ثلاث سنوات على كرسي الملك ، بل تغلب عليه وتولى مكانه باسم الملك المظفر (٦٥٧هـ) . وهو صاحب الفضل باجلاء المغول عن سوريا .

وذلك انه لما بلغه تغلب هولاكو على سورية تخوف من مهاجمة المغول مصراً ، فخرج للقائهم بجيش من القبائل العربية . ولحسن حظه وصل خبر موت امبرطور المغول منكو ، ورحل اخوه هولاكو بعسكره لآسية الوسطى غير تارك في سورية سوى القليل من عساكره ، فتشتت شملهم عند التقاء الجيشين قرب عين جالوت في فلسطين وولوا الادبار (٦٥٨هـ= ١٢٦٠م)

وكأن المملوك بيبرس الذي عمل على قتل المظفر ، وهو عائد الى مصر ، والذي تولى مكانه باسم الملك الظاهر ، اراد ان يستعيد دار الخلافة بغداد ، ولعله احب ان يرجع الخليفة العباسي الذي بايعه في مصر الى مقام ابائه . غير ان قوى المماليك وان تمكنت من المغول في سورية ، لم تكن كافية

---

(١) Huart Hre des Arabes T.II p. 37

لمداهمتهم في العراق حيث اعدوا العدد فيها وفي فارس . فلذلك كان نصيب حملتهم الانقراض وفي جملتها ذلك الخليفة المستنصر (١) .

وكما عجز المماليك عن التغلب على المغول بدار ملكهم في فارس ، فقد فشلت محاولة كل من هولاكو (٦٥٩هـ) وخلفه اباقا استرداد سورية . ذلك لانه فضلاً عن دفاع الظاهر بيبرس ملك مصر عنها دفاع الابطال ، فان انقسام المغول انفسهم وتجزء امبرطوريتهم الى خمس دول بعد موت منكو خان صرفاهم عن غيرهم .

وتوفق الملك الظاهر بيبرس بواسطة كونه من القبجاق رعية بركة خان بن باطو آل دوشي ملك روسيا الجنوبية وما يليها ان يقنعه على اعتناق الاسلام ، فكانت نتيجة ذلك ، وقوع الشقاق بين هذه الدولة وبين آل هولاكو في فارس ، واشتغالهما بأنفسهما عن سواهما . وهما ادنى ممالك المغول من ديار الاسلام فسلم المسلمون من اذاهما .

على ان الاسلام لم يقتصر على التسرب الى دولة آل دوشى فحسب وانما اصبح سريع الانتشار بين المغول كافة وعواهلهم ، ولما صار عرش دولة ما بين النهرين الى مبارك شاه المغولي المسلم تحت ادارة مسعود بن محمود يلفادج علت كلمة الاسلام في جوف تركستان ، وشرع المغول يتبدلون في عواطفهم لابناء دينهم في سائر الممالك (٢) .

وكان في جملة من اسلم تكدار بن هولاكو وسمي احمد ، فلما صار

---

(١) Huart Hre des Arabes T.II p. 42-43

(٢) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 380-390

عرش فارس اليه بعد اباقا (وقيل ابغا) بلغ من تأثير اسلامه انه لما علم بان مجلس الشورى المغولي قرر انفاذ خطة سلفه ، بتجهيز حملة كبرى على سوريا ومصر انحاز الى جانب الدين عن العنصرية وعارض قومه ، وكاتب سيف الدين قلاوون ملك مصر يرغب اليه بالصلح والاتحاد.[١]

وقد اثر ذلك في قومه فخرج عليه اخوه قونغرتاي وابن عمه ارغون وتقاتلوا ، ومالأ عليه رجاله فقتلوه وولوا ارغون.[٢] ولكن الفتن كانت قد تأصلت فيهم ، كما استمرت من جهة اخرى بينهم وبين ابناء عمهم آل دوشي . ثم عاد الاسلام اليهم بعهد احدهم غازان ، فتطوروا من بعد تطوراً جديداً ، وزال خطرهم عن بقية الشرق الادنى .

كل ذلك ساعد على ان ينسب الى المماليك الفضل باجلاء المغول عن الشام ومصر .

ولولا ان الاسلام فعل مافعل في احوال المغول الداخلية لما كان بوسع المماليك ، على ما اشتهروا به من الشجاعة ، ان يدفعوا جارفهم .

تأثير المغول على شخوص العثمانيين

« للشرق الادنى »

كانت قبيلة قايي خان (من ترك القانقلي التي ترجع بأصلها الى عشيرة الغز oghuz) تقطن جبال « التون طاغ » في اسية الوسطى .

---

(١) ابن العبري مختصر الدول ص ٥٠٥—٥١٨

(٢) زيني دحلان الفتوحات الاسلامية ج ٢ ص ٣٦

فلما زحف المغول على الجهة الغربية تحت قيادة جنكيز نفر الترك من امامهم ، وشرعوا يتقدمون الى ديار الاسلام ذراعاً كلما تقرب منها المغول باعاً . وفي جملتهم قبيلة قايي‌خان برئاسة سليمان‌شاه ابن قيا الب .

فتقدمت هذه القبيلة الى ماهان في كرمان ، ثم تجندت في خراسان لخوارزمشاه جلال‌الدين في اثناء حروبه مع المغول .

ولما دارت دائرة القتال على خوارزمشاه ، وتشتتت اجناده ولى سليمان‌شاه ، جد آل عثمان ، وجهه شطر كردستان فنزل مدة في جبهة اخلاط (٦٢١هـ—١٢٢٤م) ثم رحل عنها الى ارزنجان .

وكأن تلك الربوع لم ترق لسليمان شاه ، فلما علم بسكون الكارثة المغولية على اثر موت جنكيز ، وارتحال الامراء الى قره كوروم عاصمتهم لمبايعة خليفة له ، أمّ خراسان ، فعاجله الاجل وغرق في اثناء اجتيازه نهر الفرات عند قلعة جعبر (٦٢٩هـ—١٢٣١م) ولايزال قبره هناك معروفاً باسم (ترك مزاري) اي مزار الترك .

والظاهر ان اولاده لم يكونوا كلهم على رأي والدهم في الرحلة الى خراسان : لانهم لم يلبثوا ان انقسموا عقب موته ، فواصل السير اليها كل من ولديه الكبيرين كونطغدي وسنقورتكين مع القسم الاكبر من القبيلة ، ورجع الى ارمينية كل من ابنيه ارطغرل ودوندار [(١)] مع عدد قليل يتراوح بين ٤٠٠ و ٥٠٠ شخصاً وشرعا يتنقلان ما بين باسين وسورمه‌لي جوقور في آسيا الصغرى .

---

(١) مختصر اسلام تاريخي ص ١٠٢

ولما لم تلائم ارطغرل هذه المنازل ، تقدم الى الجهة الغربية . وبينما هم سائرون على مقربة من حدود دولة سلاجقة الروم وقع نظرهم على جيشين متلاحمين، وبسائق العطف الطبيعي على الضعيف منهما ، كما يقولون ، او بغضاً في المغول ، كما اعتقد، هب ارطغرل لنجدة مناجزهم فكفل له الانتصار (٦٣٠هـ—١٢٣٢م)

فكان الضعيف الغالب، بما بذلوه له من المساعدة، علاء الدين الاول سلطان قونية السلجوقي ، والقوي المغلوب فرقة من جيش الخان اوكطاي ابن جنكيز، عهد اليها اكمال الفتح في اسيا الصغرى .

واعترافاً بالجميل ، اقطع علاء الدين ارطغرل بك المنحدرات الشرقية من جبال طومانيج وأرمني للصيف ، وسهول سكود للشتاء (٢) مع لقب « اوج بكي » . اي محافظ الحدود .

وكان ارطغرل بك طموحاً مقداماً فلم يقنع بمهمة المحافظة على الحدود، بل اتخذ طريقة الهجوم وشرع يبذل الجهد للاستيلاء على البقية الباقية من بلاد الروم التكفوريين باسم السلطان علاء الدين، وما زال السعد حليفه حتى بلغ اسكيشهر .

فنظراً لما تقدم ولما ابرزه من المفاداة والجسارة في حرب علاء الدين والمغول، التي دامت ثلاثة ايام بلياليها مابين بورصة ويكيشهر، منحه ذلك السلطان ولأولاده من بعده الولاية على اسكيشهر ومشتى سراجق مابين

---

(٢) Lavallée. Hre de la Turquie I p. 181

قره‌حصار وبيله‌جك ومصايف‌طوما‌نيج وأرمني مع لقب «سلطان‌اوكي»[١] اي جبهة السلطان

وكان قد ولد في سكود لأرطغرل بك في سنة ٦٥٦هـ=١٢٥٨م عام دخول هولاكو الى بغداد وانقراض العباسيين، ولد سماه عثمان، خلف اباه عقب موته (٦٨٠هـ=١٢٧١م) فكان خير خلف لخير سلف، كما كان ذلك العام صلة الوصل ما بين نهاية وبداية دولتين عظيمتين العباسية والعثمانية .

وقد ساعد عثمان على امانيه ما اصاب وقتئذ الامبرطورية البيزنطية من الاضطراب . فشرع يمتلك المدينة تلو الاخرى من بلادها في اسية الصغرى . وقد قدر سلطانه علاء الدين الثالث خدمته، ولاسيما لما استولى على قره‌حصار من عدوه الكبير نقولا عامل البيزنطيين، فأرسل له لواء ابيض والات الموسيقى ومنشورا بامارته ولقبه فيه عثمان غازي حضرتلري مرزبان عاليجاه عثمان شاه[٢] (٦٨٨هـ=١٢٨٩م)

تأثير المغول على استقلال آل عثمان

وبينما كان عثمان شاه جد آل عثمان، عامل سلطنة قونية السلجوقية على الحدود البيزنطية في القسم الشمالي من اسيا الصغرى، يواصل تقدمه ويقسم فتوحاته على اولاده وقومه كان مثل السلجوقيين كمثل المغول في اشتغالهم بانفسهم عن غيرهم

على ان المغول كادوا يجددون عهد الفتح لما تولى غازان بن ارغو

---

(١) احمد راسم، رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ج١ ص١٠

(٢) المفتي الفاخوري تحفة الانام ص١٩٠

على عرش جده هولاكو : فان هذا الخان ، على رغم نشأته الصينية البوذية ، اختار الاسلام ديناً له وحاول ان يجمع تحت سلطته بلاد المسلمين

وكان في هذه المرة ايضاً لمماليك مصر اليد الطولى في دفعه عن البلاد العربية الواقعة على البحر المتوسط ، فتحول عنها الى الاناطول حيث قضى على دولة قونية السلجوقية (٦٩٩هـ=١٣٠٠م)



« السلطان عثمان الاول »

(مؤسس الامبراطورية العثمانية)

وكان ذلك من حظ آل عثمان ، لان عثمان شاه اقتدى بغيره من الامراء الذين بلغ عددهم ثلاثة عشر اميراً أسس كل منهم حكومة مستقلة على انقاض الدولة السلجوقية فاعلن استقلاله وتلقب بالسلطان عثمان ، فكان بذلك مؤسس الامبراطورية العثمانية التي شغلت حيزاً واسعاً من تاريخ العلم القديم .

٣

حال عالم الشرق والاسلام

« حين ظهور العثمانية »

حقيقة بيان حال عالم الشرق والاسلام سياسياً ومادياً وادبياً واخلاقياً ،
حين ظهور السلطنة العثمانية ، في المشرق والمغرب ، وما كان
لذلك من التمهيد لظهور تلك الامبرطورية وتغلبها

فهرست الجزء الثالث

الجزء الثالث

انا وان كنا نتوخى في هذا الكتاب البحث في الأمبرطورية العثانية فحسب ، غير ان فلسفة التاريخ وما تقتضيه من ربط الاسباب بالمسببات تجعلنا نخرج الى التاريخ العام وخصوصاً فيما يتعلق منه بأهل الشرق والمسلمين

فان هذا الجزء وان كان المقصود منه الاشارة الى كيف تسنى للامبرطورية العثانية البسطة في الملك والعظمة وذلك في تبيين حال عالم الشرق والاسلام حين ظهورها ، فانه في نفس الوقت يجعل تاريخ العالم المذكور متسلسلاً ، ويسجل جميل آل عثمان في جمعهم شتاته ، ورفعهم رايته في قلب الغرب

ومن الانصاف ان نذكر ما كان لآل عثمان من الحسنات ازاء ما نحفظه للترك من ضررهم المستطير على العنصر العربي وما نواخذهم عليه من وقوفهم في وجه تمدن الشرق الادنى

تزاحم الشرق والغرب

ما العالم الا عائلة واحدة ، تتباعد كلما تكاثرت وتجزأت : فالاوروبيون هم اخوان الأسيويين ومواطنوهم في الاصل ، ولكن الحوادث الجيولوجية والتكاثر دفعاهم للشخوص الى الغرب ، فأثر عليهم مناخه حتى تباين الاخوان بالخلق والخلقة واللغات .

غير ان خيرات آسية ما فتئت تستهوي افئدتهم ، ومذ آنسوا من انفسهم القوة شرعوا يتعرضون للفتح فيها : فاتصلت بينهم وبين الاسيويين

الحروب . اما السيادة فكانت للشرق الى ان دفع اليونان جارف الفرس ، ونهض الاسكندر بن فيليب المكدوني سنة ٣٣٨ ق.م فرفع راياته في اواسط اسية .

ثم كان للرومان الفضل بنشر سيادة الغرب على اطراف الشرق ، فقضوا على قرطاجنة الفينيقية في شمال افريقية ، واستولوا على مصر فضلاً عن الشرق الادنى ، وكادوا يبلغون مرامهم من اواسط اسية لاضمحلال شأن الفرس . ولكن نهوض العرب وقتئذ بالاسلام لم يوقف تيارهم فقط ، بل استعاد سيطرة الشرق على الغرب واحتفظ بها نحو الف عام .

وفي اثناء ذلك لبث الغرب يتحفز طويلاً للوثوب على الشرق ، غير انه وان ارتاح لما آل اليه حال الدول العربية ومدنيتهم ولا سيما العباسية من الاضمحلال بسبب تغلب الترك البدو وتخاصمهم ، فانه ما زال يتهيب جانب الاسلام ويرهب سطوته لاخذ الاتراك الداخلين في الاسلام حديثاً على عاتقهم امر حمايته ورفع شأنه : ولهذا فان كلاً من دعوتي البابا سيلفستر الثاني (٣٩٣هـ=١٠٠٢م) والبابا غريغوار السابع (٤٦٨هـ=١٠٧٥م) ذهبت عن غير صدى .

بيد انه لما شب الخصام بعد موت ملكشاه السلجوقي بين قومه لعشرين عاماً خلت من نداء البابوية ، كانت دعوة ناسك فقير كافية لأن تجمع كلمة اوروبة على حرب الاسلام تحت ستار انقاذ قبر المسيح ، متذرعين بتبديل الترك تلك المعاملة الحسنة التي كان يبذلها العرب

للحجاج[١]، فحمل الصليبيون على الشرق الادنى ثماني حملات :

الحملة الاولى : ٤٠٩ —٤٩٣ هـ ١٠٩٦—١٠٩٩م كلفت هذه الحملة الصليبيين نحو نصف مليون قتيل، حتى مكنتهم من اقامة اربع امارات لهم في سورية : (١) امارة القدس (٢) امارة انطاكية (٣) كونتية طرابلس (٤) كونتية اورفه[٢].

الحملة الثانية : ٥٤٢ —٥٤٤هـ ١١٤٧—١١٤٩م لما اشتد ساعد آل زنكي عكروا على الصليبيين صفو عيشهم ، وهاج خبر انتصارات احدهم نورالدين صاحب حلب عواطف اوروبة فزحف منها جيشان بقيادة كل من ملكي فرنسا وجرمانيا ولم يلبثا ان عادا بخفي حنين .

الحملة الثالثة : ٥٨٥ —٥٩٠ هـ ١١٨٩—١١٩٣م لما استتب لصلاح الدين الايوبي الامر وأسس ملكه على انقاض آل زنكي في مصر ولى وجهه شطر الصليبيين ، فألقى خبر فوزه واستيلائه على بيت المقدس الذعر في اوروبة ، فانضمت في هذه المرة جيوش الانكليز بقيادة الملك ريشار قلب الاسد الى كل من الجرمان والفرنسيين . غير انهم لبطولة صلاح الدين ولاختلاف نياتهم لم ينجحوا الا باسترداد عكا ، ولبث الصليبيون محصورين فيما عدا

---

(١) Eva M. Tappan. England. s Story p. 47

(٢) Larousse Illustré T. III. p. 413

امارة انطاكية بين صور ويافا متخذين عكا قاعدة لملكهم .



« نفر من جنود ريشار قلب الاسد وإلى جانبهم انكليزي بثوبه الوطني »

الحملة الرابعة : ٥٩٩ — ٦٠٤ هـ ١٢٠٢—١٢٠٤م كان البابا اينوسان الثالث حريصاً جداً على تخليص بيت المقدس ، بيد انه وان نجح بتأليف حملة افرنسية لهذا الامر لكن بعض الحوادث حولت مطامعها الى القسطنطينية حيث انشأت امبرطورية لاتينية دامت ٥٧ عاماً .

الحملة الخامسة : ٦١٤ — ٦١٨ هـ ١٢١٧—١٢٢١م مات صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ فقسمت دولته في مصر وسورية بين ابنائه السبعة عشر واخيه الملك العادل الذين استهانوا بالافرنج واشتغلوا عنهم بالتنازع فيما بينهم . ولو وصلت

اليهم الحملة الصليبية الرابعة وهم على هذا الحال لأصابت منهم فرصة .
واما الحملة الخامسة التي نزلت ثغر دمياط فانها جاءت بعد الاوان إذ اجتمع ملوك الاسلام لنجدة الملك الكامل وضيقوا على الافرنج حتى اجابوهم الى الصلح راضين بالسلامة غنيمة .

الحملة السادسة : ٦٢٦ — ٦٢٧ هـ / ١٢٢٨—١٢٢٩م سئم الفرنج من الحروب الصليبية

وخف تعصبهم لاستئناسهم بالمسلمين بسبب اختلاطهم بهم اكثر من قرن، فلذلك لم يعودوا يلبون دعوة البابا الامكرهين . وما كان فردريك الثاني امبرطور جرمانيا ليتوفق في حملته — وقد ترأس هذه الحملة بضغط البابا غريغوريوس ، وسار وهو محروم — لولا ان اعتمد على السياسة مع ملوك المسلمين ، بينما كان هؤلاء في تنازع شديد بينهم .
ولكن لما تمت الغلبة للملك الصالح ايوب على اقربائه استرد بيت المقدس (٦٤٢هـ=١٢٤٤م) فاضمحلت بذلك سلطة الصليبيين .

الحملة السابعة : ٦٤٦ — ٦٥٢ هـ / ١٢٤٨—١٢٥٤م عظم على لويس التاسع ملك فرنسا

ضياع بيت المقدس فعزم على تخليصها وفاء لنذر نذره ، فنزل بعكا ثم أمّ مصر ، فأسر قرب المنصورة سنة ٦٤٨هـ وافتدى نفسه على ان لايعود لمصر
ولما كان في قبرص جاءته رسل الخان منكو المغولي للاتفاق على اكتساح المسلمين من الشرق والغرب ، فقابل لويس ذلك بارسال وفد من لدنه الى الخان ولكن خلط كليهما الدين بالسياسة انقذ المسلمين من

مغبة اتحادهما ، فتسنى للماليك البحرية اجلاء الصليبيين عن بقية البلاد السورية كما تسنى لهم دفع المغول عنها ايضاً .

الحملة الثامنة : ٦٦٩ هـ ١٢٧٠م ما زال بيت المقدس يهيج قلب لويس التاسع فهيأ حملة جديدة سار بها بطريق تونس حيث توفي ، فماتت بموته فكرة الحروب الصليبية .

. . . .

تلك ثماني حملات اغار بها الغربيون على الشرقيين مدة جيلين فافنى بعضهم بعضاً . ثم تحرر الشرق الادنى بواسطة العناصر الاعجمية التي جرت بمنازعاتها هذه البلايا ، وانسحب الصليبيون منها كما كف المغول عن شرهم عنها ، ولكن بعد ان ترك كلاهما المدنية العربية اثراً بعد عين ، والديار الاسلامية خراباً يباباً ...

حال الشرق الادنى

« حين ظهور العثمانية »

اربعة أجيال توالت على الشرق الادنى ، فجمعت من المصائب ما لو اصابت واحدة منها امة لدكتها د كاً

فعقب ان انقضى القرنان الرابع والخامس للهجرة اللذان ذاقت فيهما رعية الدولة العباسية الأمرين من المتنازعين من ترك وديلم على امارة الامراء ، ثم على السلطنة في دار الخلافة ، تلاهما قرنان آخران ادهى وأمر

كانت مصائبهما نتيجة تغلب وتنازع اولئـك الاعاجم الذين كانوا على خشونة البداوة

في القرن السادس والسابع انشقت كلمة السلاجقة فتقاتلوا ، ثم استهان بهم عمالهم والخليفة فنازعوهم على الأمصار: وعدا الانقسامات العائلية التي حصلت بين الملوك آل زنكي وآل ايوب وآل خـوارزم والحروب التي استعرت نيرانها بين هذه الممالك ، طالما تخاصم اهل السنة والشيعة ، وفاز الأسماعيليـة بخراسان والباطنية في واسط ، وكانت احوال المسلمين هذه مطمعة بهم الأغيار ، فانهار عليهم الجارف الصليبي من الغرب كما أغار على الشام البيزنطيون ، وعلى ارمينية الكرج من الشمال . ثم داهمهـم المغول من الشرق فكانت الطامة الكبرى .

وماذا عسى ان يكون حظ بلاد كانت دار حرب مدة قرنين ونيف غير الخراب المدقع ، وقد شـاهدنا اخيراً كم هي مصائب الحرب العامة وهي لم تدم غير اعوام قليلة ؟

المصائب المعنوية

تقوم قواعد العمران على الأمن والعدل . لان الصناعـة والزراعة والتجارة والعلم تلك القواعد الأساسية للعمران والمدنية ، لا تنمو وتروج الا حيث انبسط الأمن والعدل .

وأنى للأمن ان يستتب وقتئذ وللنـاس في كل يوم مشهد حرب جديدة ، ان ابقى فيها اصحابها على شئ ، فما كان المنتصر يبقي ولا يذر ؟ واذا حباهم الدهر بيوم سلم ، قال قائلهم: حبذا الحرب ولا طغيان الأمراء واجنادهم .

وأنى للعدل ان يدوم ، والملوك في حاجة مستمرة للرجال والمال ، والحاجة تميت الوجدان ؟

فأذا ذكر السلجقيون ذكرنا امثلة من مصادراتهم حينما نشب الخلاف بينهم. منها ما كان من مديد السلطان بركيارق لأموال الرعية في بغداد حتى انه لم يوفر الخليفة نفسه فتقاضى منه خمسين الف دينار [١]. وكذا فعل كل من السلطانين مسعود بمصادرة التجار [٢] وارطغرل بن محمد بمصادرة الأمراء وبيعه المناصب منهم وسماحه بذلك لعماله .

على ان الخلفاء العباسين الذين هم اولى الناس بالعدل ، لم يسلموا من عدوى الزمن ، ولا عجب بعد ان ضيق عليهم المتغلبون وارهقوا كواهلهم بمطالبهم ، وأنا لذاكرون خلاصة من كلام ابن الاثير بالثناء على الخليفة الظاهر بأمر الله ففيها تعريض كاف لمظالم اسلاف له . قال : « انه اعاد من الاموال المغصوبة في ايام ابيه وقبله شيئاً كثيراً ، واطلق المكوس ، وأمر باعادة الخراج القديم وان لا يجبى الا من الاشجار السليمة فاسقط بذلك جميع ما جدده ابوه وكان كثيراً لا يحصى »

« وكانت صنجة الذهب التي للمخزن تزيد على صنجة البلد نصف قيراط يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التي للبلد فمنع ذلك . وهكذا فعل في اطلاق زيادة الصنجة التي للديوان . وتقدم الى القاضي ان كل من عرض عليه كتاباً صحيحاً بملك يده يعيده اليه »

---

(١) ابو الفدا المختصر في اخبار البشر ج٢ ص ٢١٣

(٢) ابن الاثير الكامل ج٢ « ١٧٥

«وكان الناس في حجر عظيم من التجسس فقال: « اي غرض لنا في معرفة احوال الناس في بيوتهم الخ ... »[١]

فيفهم من ذلك ماوصلت اليه حال البلاد وقتئذ من المظالم . والظلم ان دام دمر . وهو لا يقتصر على تخريب البلاد بل يصيب محاسن الاخلاق ايضاً .

المصائب المادية

دع عنك فظائع المغول في ديار الاسلام ، فانها معلومة ومتشابهة في كل بلد فتحوها ، ولنترك هراة[٢] وسواها ، وحسبنا ان نروي مثلاً واحداً عنهم حينما استولوا على مدينة باميان وقتلهم اهلها قاطبة ، حتى الدواب والبقر والأجنة التي في بطون الحبالى[٣] وهكذا فعل هولاكو في بغداد اربعين يوماً ، واختلفوا في عدد القتلى فقيل ١،٠٠٠،٠٠٠ وقيل مليونان[٤] .

ودع عنك خشونة عشائر الترك المكتسحة ، فالبدو اذا دخلوا قرية جعلوا عاليها سافلها ، كما فعل اتراك الغز لما تغلبوا على خراسان وهزموا السلطان سنجر . قال الاصفهاني «أذهبوا الاموال والنفوس واعدموا النعم واوجدوا البؤس ، وخربوا مدينة نيسابور وقتلوا اهلها تحت الخراب ، وسفكوا دماء العلماء والائمة في المحراب »[٥] .

اجل دع عنك هذا وذاك ، وذكر اخبار مفاسد مكتسحي الشمال

---

(١) ابن الأثير ج١٢ ص ٢٠٣ (٢) ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٨ ص ٦٥١ (٣) ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٤٢١ (٤) جرجي زيدان هلال م ١٩ ص ٣٩٦ (٥) عماد الدين الاصفهاني ص ٢٥٩

البيزنطيين والكرج واللاز ومكتسحي الغرب الصليبيين، واذكر ماحل في الشرق الادنى من تخاصم ملوكه بعضهم مع بعض فحسب

فبسبب الحروب بين ابناء ملكشاه السلجوقي في فارس وخراسان وجرجان « خرب العسكر البلاد ، وعم الغلاء تلك الاصقاع حتى اكل الناس بعضهم بعضاً بعد فراغهم من اكل الميتة والكلاب » [1] (٤٦٤هـ= ١١٠٠ م) .

وبسبب التقاتل بين عزالدين وركن الدين بعد وفاة ابيهما علاء الدين الكبير سلطان قونية اشتد الجوع بملطية وبلدها حتى اكل الناس الكلاب والسنانير ، وكانوا ينقعون الجلود اليابسة التي لُدِم بها النعال ، فيأكلونها مطبوخة . قال ابن العبري : « واجتاز جماعة من اصحابنا بقرية اسمها باعبدون فرأوا جماعة من النساء قد اجتمعن في بيت وقدامهن ميت ممدود وبايديهن السكاكين وهن يشرحن لحمه ويشوين ويأكلن ، وامرأة اخرى شوت ابنها الصغير في تنور لها . ولما كبسها مجاوروها حلفت انها لم تقتله » [2] .

وبسبب هذه الحروب بين الاقارب تارةً والاباعد طوراً انسد اكثر ما احتفره الخلفاء المصلحون باوائل الدولة العباسية من الترع والانهر لري الارض وتسهيل الاستغلال [3] ، فتوالى القحط والوباء . ويا ويل مدينة كانت هدف المتقاتلين فانها تمسي كأصفهان لما تقاتل عليها السلطان

---

(١) ابن العبري تاريخ مختصر الدول ص ٣٩٣ (٢) ابن العبري ص ٤٦٨

(٣) جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ٢ ص ١٢٨

مسعود السلجوقي واتابك منكوبرس . قال الاصفهاني :

« ووصلوا (اي جيش السلطان) الى اصفهان وكان القحط في الابتداء فكانوا سبب الوباء والغلاء واكلوا ما وجدوه من الرطب واليابس والحقوا الغني بالفقير البائس[١]. وجاء منكوبرس الى اصفهان فخلفهم في الظلم والاظلام ورعى الغلال قبل ادراكها ، واعجل الارماق عن امتساكها »[٢]

على ان توالي القحط لم يعد ليقع عن قلة بالامطار بل عدا انسداد وسائط الري ، أمسى للناس بالحروب مشاغل تلهيهم عن الزراعة وغيرها من موارد الكسب، وما اشد ما تصرف الحروب البشر عن العمل : فقد رأيناهم في جبل لبنان في اثناء الحرب العامة ينتظرون الموت من الجوع وهم عن تدارك الامر بالعمل غافلون .

وهكذا فقد حصل الجوع والغلاء عن غير قلة بالمطر في الموصل والجزيرة (٦٢٢هـ=١٢٢٥م) حتى اكل الناس الميتة والكلاب والسنانير.

واضاف ابن الاثير الى ذلك قوله :

« ولقد دخلت يوماً الى داري فرأيت الجواري يقطعن اللحم ليطبخوه فرأيت سنانير استكثرتها فعددتها فكانت اثني عشر سنوراً . ورأيت اللحم في هذا الغلاء في الدار وليس عنده من يحفظه من السنانير لعدمها وليس بين المرتين كثير »[٣]

تلك امثلة قليلة من كثير مما اصاب الشرق الادنى في القرنين السادس والسابع للهجرة من المصائب المادية ، ولا بدع فما الحروب الا مهدمة العمران

(١–٢) عماد الدين الاصفهاني ص ١٦٧–١٦٨

(٣) ابن الأثير ج ١٢ ص ٢٢٦

المصائب الادبية

اذا كانت الحروب ملهـاة للناس عن موارد العيش ، فهـل لها ان تستبقي على شيء بالنفوس من الميل الى طلب العلم ومزاولة الادب ؟

كلا . فأن الخوف والجوع والوباء ، كانت وقتئذ صارفة الناس عن الاشتغال بالعلوم والفنون رغم تنشيط بعض امراء الأعجام الذين ارادوا استمالة شعور العالم الاسلامي بانشاء المدارس والمكتبات : نذكر منهم نظام الملك وزير ملكشاه السلجوقي ، ونور الدين زنكي صاحب الشام، وصلاح الدين الايوبي ملك مصر والشام .

على ان تلك الحملات والحروب لم تصرف المسلمين عن العلم فحسب بل نكبتهم بملاشاة بيوت العلم واوقافها العظيمة حتى حرمتهم من التجدد فيما بعد

واليك جدولاً بما وصل الينا من المكتبات العربية التي اتلفتها تلك الحروب :

عدد المجلدات	اسم المكتبة	منشئها	مكانها	ملاحظات
	بيت الحكمة	الرشيد غالباً	بغداد	القيت كتبها مع سواها من المكتبات في دجلة ويقال انه بني ببعضها الاسطبلات لما دخل هولاكو بغداد .
١٠,٠٠٠	مكتبة سابور	سابور بن ازدشير سنة ٣٠٨هـ	بغداد	احترقت فيما احترق من محال الكرخ حينما دخل ارطغرل بك السلجوقي بغداد سنة ٤٤٧هـ .
١,٠٠٠,٠٠٠	خزائن القصور	العزيز بالله الفاطمي سنة ٣٦٥هـ	القاهرة	اتلفتها الحروب والفتن والقي بعضها في النيل وترك البعض الآخر في الصحراء فسفت عليه الرياح حتى صار تلالاً عرفت بتلال الكتب
١٠٠,٠٠٠	دار الحكمة	الحاكم بأمر الله الفاطمي سنة ٣٩٥	القاهرة	
٣,٠٠٠,٠٠٠	مكتبة طرابلس		طرابلس	احرقها الصليبيون
١٢,٠٠٠	〃 العزيزية	عزيز الدين ابوبكر الزنجاني	مرو	
	〃 الكمالية	ابي سعيد محمد	〃	
	〃 شرف الملك	بن منصور	〃	
	〃 نظام الملك			

على انه فضلاً عن ذلك فقد كان في سمرقند وبخارى ومرو وسواها

دور للعلم عامرة . فان ياقوت الحموي قال عن مرو :

« انني فارقتها سنة ٦١٦ه بسبب حملة المغول وفيها عشر مكتبات موقوفة ، وفي العزيزية منها نحو اثني عشر الف مجلد »[١]

فاذا قابلنا ذلك مع عدد الكتب التي توجد الان في أشهر مكتبات العالم على ما اصبح عليه اقتناء الكتب في هذا العصر من الميسور بفضل الطباعة وترقي الصناعة يمكننا ان نقدر بعد خسارة العرب بل كافة الشرقيين بضياع تلك المؤلفات .

فقد زرنا قبل الحرب العامة مرات مكتبتي باريس ولندره، وهما اكبر مكتبات العالم في هذا العصر ، واستقصينا موجوداتيهما فوجدناها كما يلي :

عدد المجلدات	اسم المكتبة	مقرها	ملاحظات
٣،٩٠٠،٠٠٠	المكتبة الوطنية	باريس	عن L Holtz,guide de Paris
	مكتبة المتحف		منها تسعماية الف خطي
٢،٠٠٠،٠٠٠	البريطاني[٢]	لندره	عن Baedeker, Londres

وكفى بهذه المقابلة برهانا على خسارة الشرقيين ، ولا سيما العرب في تلك الأجيال المظلمة ، وهل ترى يسمح الزمن بتعويض ذلك الخسران ؟

(١) ياقوت الحموي معجم البلدان ج ٨ ص ٣٥

(٢) في عدد يونيو ١٩٢٤ من مجلة الهلال ان في هذه المكتبة خمسة ملايين كتاب ولا ادري فيما اذا حصلت هذه الزيادة بين المدتين او ان احد المصادر مغلوطاً

حال العالم الاسلامي في الغرب

« حين ظهور الدولة العثمانية »

لما عمدنا الى الكتابة عن حال العالم الاسلامي في الشرق لم نحتج الى مقدمة تمهيدية لأن كل ما اوردناه قبل ذلك الفصل كان بمثابة تمهيد له . وأما البحث عن حال المسلمين في الغرب بالقرنين السادس والسابع للهجرة فبما انه غريب عن الموضوع الذي عالجناه حتى الآن ، فهو يحتاج الى توطئة مختصرة .

فساد الاخلاق مصدر الشقاء

ان قيام التمدن العربي في الاندلس هو اثر عن تغلب الشرق على الغرب . ولما كان التنازع على السيادة بين هاتين القارتين مستمراً والحرب سجالاً ، لم يلبث ان صار تطرف مقام الاندلس عن بقية الامصار العربية من جملة الاسباب لانفصالها عنها سياسياً ودينياً .

على ان هنالك عللاً اخرى ساعدت على التعجيل بذلك الانفصال ، ومنها ما يرجع بأصله الى عهد الفتح ، كالحسد والافراط بالحب الذاتي .

أفما رأيت موسى بن نصير ، عامل الامويين على شمال افريقية ، وقد دب الحسد في فؤاده ، لما جاءه رسول القائد طارق بن زياد مبشراً بالفتح في الاندلس ، كيف كتب اليه يأمره ان يلبث بمكانه ، ويتوعده ان خالف . وهو يريد بذلك ان يكمل الفتح بنفسه فيختص بالفخر !

فاذا كان حب الذات لم يؤثر في هذه المرة ، فلكم اضر بعدها وانا

لنذكر حادثة اخرى لموسى المذكور ، كانت من ثم مصدر الشرور :

ذلك انه لما نهاه الخليفة الوليد عن ان يبلغ الشام مجتازاً اوروبة الى قسطنطينية ، اثر في نفسه الامر فقفل الى الشرق قبل استئصال الخطر من جرثومته . وكانت عاقبة ذلك اغفال المسلمين اللحاق بالقوط Visigoths الذين التجأوا الى جبال قنطبرية Cantabres في شمال اسبانيا بعد انقراض دولتهم في وقعة الشريش Xérès (٩٣هـ=٧١١م) فأقاموا لهم هناك دولتي استورياس وليون وغيرهما تلك الممالك التي تقوت في اثناء تلاهي العرب عنها حتى حانت الفرصة للثأر منهم واجلائهم[1] .

ان عهد عبد الرحمن الناصر (٣٠٠--٣٥٠هـ) (٩١٢--٩٦١م) كان احسن ايام الاندلسيين في الغرب ، وكذلك عهد ابنه الحكم الثاني (٣٥٠--٣٦٥هـ) (٩٦١--٩٧٥م) غير ان الترف والدعة والتخنث التي نتجت عن السعة مدة حكمهما بعثت على انقلاب الاخلاق وأدت من بعد الى انقراض دولتهما الأموية (٤٠٧هـ=١٠١٦م) وانقسام الاندلس الى احدى عشرة مملكة ، وناهيك بانفصال افريقية عنها ومخاصمتها لها بعد ان كانت تابعة ونصيرة . وقد روى ذلك الشاعر ابن الخطيب بقوله :

حتى اذا سلك الخلافة انتثر وذهب العين جميعاً والأثر

قام بكل بقعة مليك وصاح فوق كل غصن ديك

---

(١) للمؤلف في عدد حزيران وتموز سنة ١٩٢٤ من مجلة الهلال مقال بعنوان « اسبانيا الجميلة بين الشرق والغرب » استوفى فيه درس هذا الموضوع فلسفياً مبيناً عاقبة التعاون ومغبة التخاذل في حياة الأمم .

هذا ولولا يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين في المغرب الاقصى (٤٥٣—٥٠٠هـ) واجتيازه الاندلس مستجيباً دعوة الاندلسيين فيها، لاستردت دولة قشتالة Castilles البلاد قبل حين. ولكن دولة المرابطين ازاحتها وكانت على وشك القيام بعمل مجيد حينما هبت دولة الموحدين في جانبها فأشغلتها ويبست رطبة قبل ان تثمر (٥٤١هـ=١١٤٦م)

على ان الموحدين لم يتغلبوا على المرابطين إلا بعد زمن طويل، وحروب متصلة تركت المجال لمملكة قشتالة فتقدمت فاتحة في الاندلس حتى كادت تمتلك قرطبة عاصمتها.

فلما استتب الامر للموحدين انصرفوا لاسترداد ماذهب من الاندلس فاشتبك المسلمون والمسيحيون منذ ذلك بحرب طاحنة كانت العاقبة فيها للفريق الثاني.

الحروب بين الخليفة والبابا

كبر على الغرب نجاح الشرق، ولكن قوة دولة المرابطين في المغرب حولت وجهة الصليبيين شطر الشرق المنقسم. ولما فشلوا هناك، وكانت دولة المرابطين قد انقرضت، هموا بالقضاء على دول الاندلس.

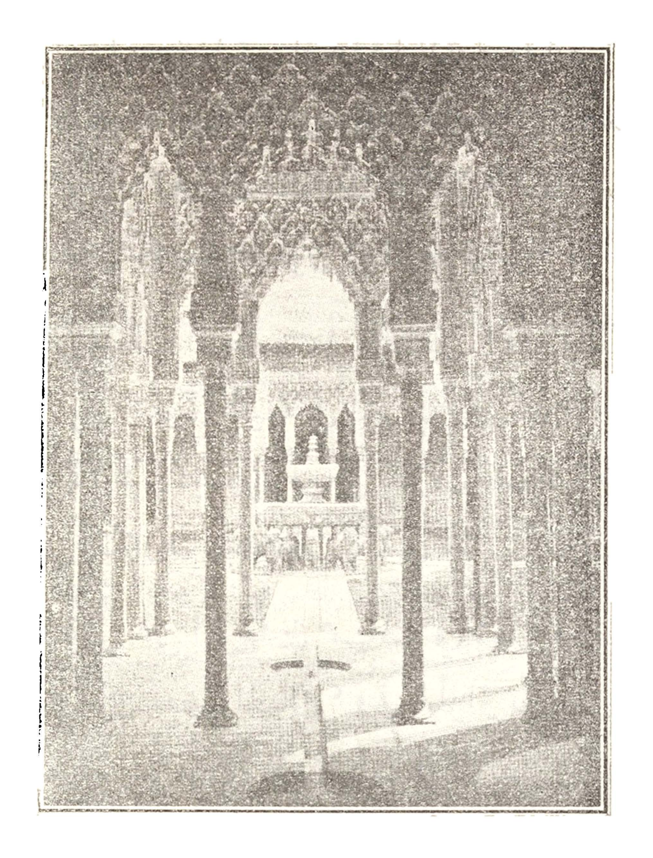
فكان البابا يشوق المسيحيين للاتحاد على اجلاء (الهراطقة) من لاندلس، بينما كان خليفة دولة الموحدين البربر يستفز المسلمين لجهاد (المشركين) فيعبر بهم الى العدوة الاندلسية. ولبث النصر حليف المسلمين الى انكسارهم بوقعة العقاب Toloza بأوائل القرن السابع للهجرة، ولم تقم لهم من بعدها قائمة.

ان فشلاً واحداً ما كان ليؤثر الى هذا الحد لولا ما انصرف اليه الخليفة محمد الناصر من اللهو بعد الجهاد ، ولو لم يخلفه على عرش الموحدين الضعفاء ، فخرج عليهم الخوارج ، وأدت الثورات للانقسام ، حتى استعان بعضهم على بعض بالاعداء ، كما فعل المأمون بن المنصور .

ولا بدع ان يتغلب المتفقون على المختلفين ، فانه بينما كان امر البابا لا يرد ، لم يكن يلبي دعوة الخليفة في المغرب للجهاد الا بعض القبائل والاقطار التابعة له ، لان الجمهور لم يكن يعترف بصحة خلافته وهو من البربر ، فضلاً عن انكارهم مبتدعات المهدي مؤسس دولته .

هذا وكما انتقض على الموحدين عمالهم في شمال افريقية : فاستقل في تونس زكريا ابن ابي حفص الهناتي ، وفي الجزائر يغمر بن زيان الزناتي ، وفي ضواحي المغرب بنو مرين ، فان السادة في الاندلس استأثروا بالحكم ثم اجمعوا على اخراج دولة الموحدين منها . وتولى كبر ذلك ابن هود الجذامي (٦٢٥هـ=١٢٢٧م)

على ان التنازع لم ينتهِ بانتهاء دولة الموحدين ، بل هب ابن الاحمر يزاحم ابن هود على رئاسة البلاد ، وتقرب كل منهما الى الافرنج للاستعانة بهم . وكان هؤلاء يغتنمون تلك الفرص لامتلاك المدن واحدة بعد واحدة . لذلك لم يستتب الأمر لابن الاحمر الا عقب ان اضاع من الاندلس خيارها حتى بلغ به الأمر اخيراً الى ان يتعاهد مع ملك قشتالة على ان ينزل له عن جميع بسائط عرب الاندلس ويلجأ بقومه الى سيف البحر ، واتخذ غرناطة قاعدة لدولته .



« قصر الحمراء في غرناطة »

على انه لما قامت دولة بني مرين في مراكش على انقاض مملكة الموحدين (٦٦٧هـ=١٢٦٨م) كاد بطلها السلطان يعقوب يخلق لملك قشتالة برده رغماً عن اتحاده مع ابن الأحمر . ولكن سرعان ما ماتت الآمال بموت هذا السلطان ، اذ ما لبث ان اشغل الانشقاق خلفاءه وكان ذلك من حسن حظ دولة البرتغال التي تأسست وقتئذ ، فصارت تمتلك ثغور الغرب واحداً تلو الآخر .

أما بنو الأحمر فسرعان ما شب الخصام بينهم ايضاً ، واتحد عرشا

ارغوان وقشتالة بزواج ملكيهما فرديناند الخامس وايزابل في اثناء التنازع بين ابي الحسن علي واخيه ابي عبد الله ، فأدب الدهر بني الاحمر بانقراض مملكتهم (٨٩٧هـ=١٤٩١م) .[١] وكانوا بغفلتهم هم الجانون على مسلمي الأندلس بما اصابهم من الاسبانيين من الاضطهاد والعذاب الأليم .

نتيجة تلك الحروب مادياً

لا اسهل من معرفة النتيجة اذا بدت المقدمات . حروب وفتن اتصلت خمسة قرون ، ما بين داخلية وخارجية ، وما عسى ان تكون مغبة تلك المصائب غير الخراب المدقع والشقاء

ان الاندلس وبلاد المغرب التي يذكر المؤرخون عن ثروتها ، قبل ان اصابها ذلك ، اشياء تتجاوز حد التصديق توالى عليها من بعد قحط وغلاء ووباء ونقص في الانفس تفوق المعقول .

فلقد روى صاحب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى انه لما اكتسح القوطيون الاسبان عدداً من حصون المسلمين في الاندلس سنة (٦٢٢هـ=١٢٢٥م) استلحموا من اهلها عدة الوف حتى خلت المساجد والاسواق من الرجال

اما الجوع والوباء فلقد طالما عاودا المغرب ولا سيما في اوائل القرن السابع للهجرة ، فقد بيع سنتي (٦١٤و٦٢٤هـ) القفيز من القمح في الاندلس وغيرها بخمسة عشر ديناراً . ثم ازداد الغلاء سنة ٦٣٠ هـ في بلاد المغرب حتى بلغ ثمن قفيز القمح ثمانين ديناراً . ولما عاود الغلاء والوباء البلاد بعد

---

(١) احمد السلاوي الاستقصا لاخبار دول المغرب الاقصى

خمسة اعوام من ذلك اكل الناس بعضهم بعضاً ، وكان يدفن في الحفير الواحد المائة من الهلكى . هذا وما كنا لنصدق هذه الأخبار لولا ان ارتنا الحرب العامة بالعيان امثلة منها .

نتيجة تلك الحروب ادبياً

كان امويو الأندلس حريصين على التشبه بنهضة الخلفاء العباسيين . ولما صار الامر الى الحكم بن الناصر (٣٥٠–٣٦٦هـ) ، وكان محباً للعلوم ، اقتدى بالمأمون بتنشيط العلماء ، وانشأ في قرطبة مكتبة جمع اليها الكتب من انحاء العالم ببذل وسخاء حتى بلغ عدها ٤٠٠,٠٠٠ مجلد [١]

ولما كان الناس على دين ملوكهم اقتدى بالحكم رجال دولته وتنافسوا في اقتناء الكتب حتى قيل انه بلغ ما في غرناطة وحدها من المكاتب العمومية سبعين مكتبة [٢]

غير انه لما نشبت الفتن ، واشتعلت نار الحروب ، انصرفت الناس عن العلوم وادواتها فأهملت المكتبات كما اهملت المدارس ، ثم تشتت تباعاً . واما مكتبة قرطبة فما زالت في قصرها حتى بيع اكثرها في اثناء حصار البربر لتلك المدينة ، ثم أتم عليها الأفرنج

ولقد رأينا في كتاب الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى ان السلطان يعقوب المريني طلب من سانش ملك قشتالة على اثر الصلح الذي عقد

---

(١) نفح الطيب ج١ ١٨٢–١٨٦

(٢) جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ٣ ص ٢٠٨

بينهما سنة ٦٨٤هـ ان يبعث اليه بكتب العلم العربية التي استولى عليها فارسل له منها ثلاثة عشر حملاً نقلها الى فاس

هذا واما البقية الباقية من ثمرة التمدن العربي هناك فقد طمس عليها الدهر وما الدهر براحم للغافلين

الدولة العثمانية تجمع شتات الشرق

لكل شيء اذا ما تم نقصان ، فلقد تمت في القرن السابع للهجرة مصائب كل من الشرق والغرب الاسلاميين ، حتى طفح الكيل وانقطع الرجاء .

ففي الشرق من حدود الصين الى الفرات غرباً والى البحر الاسود شمالاً انبسط المغول وتربعوا . وما ملكوا تلك الأمصار الشاسعة الا بعد ان هلك سكانها ، واندثر عمرانها ، ومع ذلك فما سكنت من ثم ثائرتهم يوماً .

وفي الغرب من حدود فرنسا الى شاطيء البحر تغلب الاسبان ولم يبق للمسلمين حكومة غير دولة بني الاحمر في غرناطة ، وما تمكن الاسبان من استرجاع بلادهم الا بعد ان استمرت الدماء تهرق نحو اربعماية عام .

اما الشرق الادنى والمغرب الاقصى اللذان احتفظ بهما المسلمون فقد كانا على اسوإ حال . ولا بدع فقد امسى الشرق الادنى خراباً يباباً من حملات كل من الصليبيين والمغول فضلاً عن فتن المتغلبين ، كما بات الغرب الاقصى دار حرب اتصلت بين المرابطين فالموحدين فالمرينيين ،

وبينهم وبين الخارجين عليهم فضلاً عن البرتغال التي هبت لامتلاك ثغورهم .

ففي الشرق الادنى ، كان يحكم اسية الصغرى سلاجقة قونية ، ويملك مصر وسورية المماليك البحرية . اجل كانت هاتان الدولتان من الدول التي استطاعت ان تحتفظ باستقلالها ازاء الجارفين الصليبي والمغولي ، ولكنهما امستا وقتئذ في عهد الفوضى :

فبعد علاء الدين الكبير السلجوقي تفرقت كلمة اولاده فتركوا المجال لتداخل المغول في مملكتهم الى ان قضت عليهم في آخر القرن السابع للهجرة .

وبعد البطل بيبرس اتصل التنازع على العرش بين خلفائه من المماليك البحرية حتى تولى منهم في مدة ٢٢ سنة منذ ٦٧٦هـ الى ٦٩٨هـ ثمانية ملوك وهكذا استمر حالهم من بعد حتى انقرضوا .

واما في الغرب الاقصى فلما توفي بطل بني مرين السلطان يعقوب (٦٨٤هـ) وتنازع خلفاؤه ، وهن امرهم كما تلاشى شأن بني الاحمر في غرناطة لمثل ذلك .

فبعد تلك النكبات التي توالت على الشرق والغرب الاسلاميين ، مدة اربعة اجيال ، فدوختهما ، وفي اثناء تلك الحال الطافحة بالتضعضع السياسي ، والفقر والذل ، ظهرت الدولة العثمانية . ظهرت في السنة الاخيرة من القرنين السابع للهجرة والثالث عشر للميلاد ، فكان لها من تضعضع الامم والدول خير معين للتغلب . وعقب ان استتب لها الامر في الشرق ولت وجهها شطر الغرب فمدت بعد قليل سلطانها العظيم على الجانب الشرقي من اوروبا .

وناهيك بارتفاع راياتها ثلاث مرات تجاه اسوار فينا .

فالغربيون الذين كانوا قد استهانوا بالشرقي الى حد انهم تعرضوا له في عقر داره ، لم يلبثوا الا قليلاً حتى عادوا للخوف منه ، وصار على اسم التركي ولا سيما خير الدين باربروس ، امير البحر في عهد السلطان سليمان القانوني ، مسحة من الهيبة حتى كانوا يخوفون باسمه صغار اولادهم (وتلك الايام نداولها بين الناس)

وبعد فاذا كان الترك قد اساءوا للعالم الاسلامي عموماً والعرب خصوصاً لأنهم كانوا الباعث الاساسي لتضعضع الخلافة العباسية التي هي فخر الشرقيين بمدنيتها بسبب تنازعهم المستمر فيها على السلطة حتى طمع بها المكتسحون ، فالعثمانيون قد كفروا عن سيئة قومهم برفع شأن الشرقيين اجيالاً . ولو انهم جروا مجرى العباسيين بالاهتمام بالتمدين والعمران اهتمامهم بالسيف والفتح لاستطاعوا اذاً ان يحتفظوا للآن بما استولوا عليه من عرش وملك . ولقال العرب انهم خير خلف لخير سلف . ولكنهم ويا للاسف حكموا اجيالاً لم يضيء فيها حق الضياء الا السيف ، حتى اذا فل مهندهم ، ودالت دولته وانفرطت رابطة امبراطوريتهم العظمى الفوا انفسهم يتخبطون في ظلام بهيم . وليس ذلك فقط ، بل انهم بحكمهم العسكري الصرف قضوا على العناصر التي حكموها ان تستمر في غسق الجهل في اثناء رأد الضحى .

٤

ما الذي ساعد على فلاح العثمانية

« العوامل الداخلية »

يبحث هذا الجزء في المساعدات والمؤثرات الداخليــة التي كانت من عوامل نجاح الامبرطورية العثمانية

فهرست الجزء الرابع

الجزء الرابع

التنازع البقائي مستمر ومن سنته فوز الاكمل نسبياً ، بيد انه لابد لكل نتيجة من مقدمات : فلا ترتقي امة او تنحط عن غير سبب ·

وكما كان لفلاح الدولة العثمانية اسباب خارجية في شخص مناظريها ومخاصميها من معاصريها ، فان هناك اسباباً داخلية في اهل الدولة ومقرهم وشريعتهم ·

وهذا ماسنبحث به في هذا الفصل، فنتكلم عن تاريخ الدولة العثمانية المعنوي الذي سها عنه المؤرخون لاقتصارهم غالباً على تاريخها الحربي والسياسي ·

شريعة الدولة

« تأثيرها في نجاح الامبراطورية العثمانية »

للشرائع تأثير مهم على تطوير حياة الافراد والجماعات ، ولا سيما في العهود التي تقيد الناس باوامرها جد التقييد ·

ولما نشأت دولة آل عثمان كان الترك على وجه الاجمال قريبي العهد من اعتناقهم الاسلام · وبينما كانت الجذوة الدينية تخمد في نفوس العرب وغيرهم من عناصر الاسلام بتأثير الحضارة ، كانت تلك الشعلة تضطرم في افئدة الترك وتدفعهم الى تناول دور العرب في صدر الاسلام والمبادرة الى تمثيله · لذلك ، ولما درج عليه آل عثمان من التمسك بالشريعة في عهد

الفتح ، ومن تكريم خدمتها وتعزيزهم ، كان لهذه الشريعة ولرجالها المفعول الكبير في مقدرات دولتهم .

قال دوسن Dohsson : « فسواء للسلم او الحرب ولنظام سياسي ام لقانون عسكري ، ولعقاب وزير ، او قائد عام كانت تركيا تلجأ الى المفتي[١] طالبة فتواه . وكثيراً ما كانت تفاوضه وتفاوض كبار العلماء قبل الفتوى : اذ لا يكفي الاطمئنان الى جواز الامر شرعاً ، بل من الواجب استفتاء علماء الدين ولا سيما رئيسهم . »

وقال صاحبا « تاريخ العالم » عن المفتي « كل شيء في المملكة تحت نفوذه لانه هو نائب السلطان المطلق في الامور الشرعية والمدنية سواء . وله مقام سام حتى انه اذا قدم يخف السلطان لاستقباله ويتقدم سبع خطوات على حين انه لايتقدم لاستقبال الوزير الاول إلا ثلاث خطوات ، وفضلاً عن ذلك فان للمفتي ان يقبل كتف السلطان بينما هو لايسمح لكبير الوزراء بغير تقبيل ذيل ثوبه .[٢] »

ويصح ان يقسم تأثير الاسلام على الامبراطورية العثمانية الى قسمين :

(١) من حيث مفعوله بواسطة قيام سياسة الدولة على احكامه

(٢) من حيث مفعوله في اخلاق السلاطين ، على ما كان لهم من الاطلاق في الحكم والنفوذ في تطوير مناهج حكومتهم .

فنقتصر هنا على البحث في القسم الاول ونرجىء الثاني منهما الى الفصل التالي حيث البحث في تأثير سلاطين آل عثمان الشخصي .

---

(١) ما زال الرئيس الديني في السلطنة العثمانية يلقب مفتياً الى حكم السلطان محمود الاول (١١٤٣ — ١١٦٨هـ) فسمي مفتي استامبول شيخ الاسلام كما ان سليمان القانوني كان قد بدل قبله لقب الوزير الاول بصدر اعظم

(٢) Jouannin & Vangaver, L'univers, Turquie p. 32

خصائص شريعة الدولة

قال الدكتور شبلي شميل « شريعة موسى مادية عملية ايضاً ' ولكنها غير مستوفاة، وشريعة عيسى، وان كانت حكماً ومواعظ تعتبر اصولاً كلية ' الا انها في جملتها نظرت الى العالم الروحاني اكثر من الحياة الدنيا ' بخلاف شريعة محمد ' فانها نظام اجتماعي عملي مادي قانوني حقيقي ' وطالما جرى اتباعها عليها صلحت امور دنياهم على سواهم بالقياس الى حالة البشر في تلك الفصول ' لان كل شيء نسبي في هذا الوجود . »(١)

وقد قسمت الشريعة الاسلامية الناس الى طبقات خمس : المسلم ' والذمي والمستأمن والعهدي والحربي . واقامت لكل منهم حقوقاً ازاء الواجبات المفروضة عليه . ولم تهمل الحربي نفسه من مثل تلك الاحكام .

١ (المسلم) ساوت الشريعة بين المسلمين كافة رفيعهم ووضيعهم ' عربيهم واعجميهم ' مساواة تامة ديمقراطية وجعلتهم كتلة واحدة شعارها « انما المؤمنون اخوة ». وان في جواب عمر بن الخطاب لما طُعن وقيل له « يا امير المؤمنين لو استخلفت » خير مصور لحال الاسلام الديمقراطي وقتئذ ' فقد قال لهم :

« ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني (اي النبي مات ولم يوص) وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني (يعني ابا بكر) ولو كان ابو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته ' فان سألني ربي قلت سمعت نبيه يقول انه امين هذه الامة ' ولو كان سالم مولى ابي حذيفة حياً لاستخلفته ! ! ! فان سألني ربي قلت سمعت نبيه يقول « ان سالماً ليحب الله حباً لو لم يخفه ما عصاه . الى آخر قوله . »

وهل اكثر ديمقراطية ومساواة اجتماعية من افتقاد عمر احد الموالي لمقام الخلافة بعده ؟

---

(١) النشوء والارتقاء ص ٣٥٢

ب (الذمي) في الازمان السالفة حينما كانت الاديان هي المحور الذي تدور عليه اعمال الجماعات ، وحيث كان الفتح باسم الدين فحسب كانت الجامعة المقدمة ، والجامعة المعول عليها وقتئذ ، هي الجامعة الدينية وحدها ، حتى ان الفاتحين كانوا يعتبرون ابناء عنصرهم الذين هم على غير دينهم غرباء عنهم فلا يساوونهم بالحقوق ، وانما يسومونهم مع بقية المخالفين في الدين سوء العذاب .

فلما ظهر الاسلام جرى مجرى بقية الاديان والمدنيات من تمييز ابنائه على سواهم ، الا انه ، وقد اعد نفسه للفتح وتشكيل الدولة ، رجع الى الحكمة في عدم الاصرار على نشر الاسلام بالسيف ، وخير الناس بين الاسلام والجزية ، ووضع لاهل الذمة حقوقاً تجعلهم في رغد نسبةً لامثالهم الذين هم في غير دياره . فانه جعلهم في ذمة المسلمين لهم ما لهم وعليهم ما عليهم .

وقد خصص علماء الشريعة فصولاً لتلك الحقوق ولا سيما الماوردي يرجع اليها من اراد التوسع في هذا الموضوع . ومن امثلة ذلك ما جاء في كتاب الغاية :

(١) حرية الدين والاستقلال الديني

« ليس لنا ان نتعرض لاهل الكتاب فيما يعتقدون حله ، وليس لنا ان نحكم عليهم ، اذا لم يطلبوا منا المحاكمة على موجب احكامنا »

(٢) مراعاة دين الذمي في معاملاته

« يحرم احضار يهودي يوم سبت لقوله « ص » في اثناء حديث « وانتم يهود عليكم خاصة ان لاتعدوا في السبت . »

واذا تحاكم اهل الذمة الينا وقبضوا ما يعتقدون جوازه كالربا وثمن الخمر والخنزير فليس لنا فسخ ذلك .»

(٣) الدفاع عنهم . وتكليفهم طاقتهم

« يقاتل الامام عن اهل الذمة كما يقاتل عن المسلمين ولا يكلفون الا طاقتهم »

وقد شدد الاسلام في الحرص على حقوق اهل الذمة وحفظ العهد لهم حتى قال العلماء انه اذا كان للعدو حصن وفيه واحد من اهل الذمة غير معروف فاقتحمه المسلمون عنوة ولم يؤمنوا من فيه لا يحل لهم قتلهم بسبب ذلك الذمي الواحد الذي لا يمكن تعيينه [١]

ووصى بهم النبي بقوله :

« من اذى ذمياً فقد اذاني » — « ومن اذى ذمياً فاناخصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة »

وجرى مجراه الخلفاء بعده فاوصى بهم ابو بكر . وكفى بما قاله ليزيد بن ابي سفيان في هذا الشأن حينما عقد له راية على فرقة من جيش الشام [٢] . أما عمر بن الخطاب فهو لم ينسهم حتى في حين الاحتضار : اذ قال موجهاً كلامه لمن سيخلفه

« واوصيه بذمة الله وذمة رسوله ان يوفي لهم (لاهل الكتاب) وان يقاتل من ورائهم . ولا يكلفوا الا طاقتهم .»

وقد اعترف جمهور المنصفين بذلك فقال غوستاف لوبون « ان محمداً رغم مايشاع عنه على وجه عام ظهر بمظهر الحلم الوافر ، والرحابة الفسيحة ازاء اهل الذمة .[١]»

---

(١) الشيخ مصطفى الغلاييني الاسلام روح المدنية ص ١٤٠

(٢) الواقدي فتوح الشام . ج١ ص٤

G. le Bon. La civilisation des Arabes P.101

وقال ڤان دانبرج «كل الحريات الشخصية والعمومية ولا سيما حرية الدين مكرسة للذميين [١]» اي في الاسلام .

وقال م هوداس « يتمتع الذميون بحظ وافر : فهم احرار في مزاولة دينهم يحتفظون بقوانينهم الخاصة . ولما لا يكون علاقة ما لمسلم يُقضى بينهم في خصوماتهم الجزائيــة والحقوقية بواسطة واحد منهم مفوض من السلطة . [٢]»

ج (المستأمن [٣]) قضت حاجة البشر بعضهم الى بعض ان يختلطو ويتزاوروا على رغم ما حدث بينهم من بعدٍ وافتراق ديني وجنسي . وقد وضعو لحفظ حرية وحقوق الغرباء قوانين تكاد تكون متشابهة في كل دولة ولا سيما من حيث عزلة الغرباء عن اهل البلاد .

فكأن الامم كانت ترى في جامعة الوطن سواء أكانت دينية ام جنسية شيئاً مقدساً لا يجوز للغريب ان يتمتع بــه فتضع للمستأمن حقوقاً خاصة وعهوداً .

مضى على ذلك اليونان والرومان ومن خلفهم في اوروبا من البربر وملوك المقاطعات [٤] وجرى على ذلك الاسلام ايضاً : فسهل للغرباء الاسباب وحرص على حفظ العهود لهم بشكل بسيط ممتاز قال عنه فيليب بروان

« من الصعب تحديد نظام المستأمن بشكل اكثر بساطة واختصاراً مما وضعتــه الشريعة الاسلامية [٥] »

---

(١) Vandenberg, op. cit. p. 231

(٢) M. Haudas. P. 172

(٣) المقصود به الغريب الذي ينزل في ديار الاسلام للتجارة او لسواها

(٤) Manuel des consuls T T

(٥) P. Brown, Islamisme p. 7

د (العهدي) لقد امتـاز العرب بالوفاء وحفظ العهـد ، وأتى الاسلام مثبتاً هاتين الفضيلتين ، بما جاء فيه من آيات واحاديث كثيرة منها في القرآن الكريم :

« الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً ، ولم يظـاهروا عليكم احداً فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم ان الله يحب المتقين »

فاستقرتا في نفوس القوم استقراراً مكيناً اميناً يؤيد ذلك حديث عمير بن سعد الانصاري مع عمر بن الخطاب ، فقد قدم عليه وقال له :

« ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس وان اهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهروننا على عورات عدونا ولهم علينا عهد »

واستشاره في امرهم فقال له عمر :

« اذا قدمت فخيرهم ان تعطيهم مكان كل شاة شاتين ، ومكان كل بقرة بقرتين ، ومكان كل شيء شيئين ، فان رضوا فاعطهم اياه واجلهم (ابعدهم) واخربها . فان ابوا فانبذ اليهم واجّلهم (اخّرهم) سنة ثم اخربها »[١]

وقد قدر المؤرخون ما في الاسلام من رعاية العهد ، فقال الدكتور انريكو انسباتو :

« كل شيء في الاسلام مستند على العقد والعهد ، ولا نستثني من ذلك اصول الدين نفسها ما زال الدين هو عهد بين الانسان وربه . وكذلك فان البيعة بين الرعية والخليفة هي من قبيل العهد ، كما ان العلائق بين المؤمنين وسواهم هي ايضاً قائمة على التعاهد . ويقسم الحربيون في نظر المسلمين الى طبقتين : المعاهدين ، والذين ليس بينهم وبين المسلمين معاهدة . ولا يسمح باعـلان الحرب المقدسة الا ضد الثانين . »

---

(١) الاسلام روح المدنية ص ١٣٩ — ١٤٠

(٢) L'Islam et la politique des Alliés p. 154-155

وقد ايد الدكتور حجته هذه بالآيات والاحاديث والأخبار[٢].

وحسبنا ما شهدت به الاغيار.

ه (الحربي) لم يغادر الاسلام حالة من الاحوال العامة الاوقد وضع لها قيوداً واحكاماً حتى انه لم يهمل الحرب. بل قسمها الى اربعة اقسام وجعل لكل قسم منها حدوداً واصولاً.

(١) الحرب المقدسة ضد الكفار

(٢) حرب المرتدين

(٣) حرب البغاة والخوارج

(٤) حرب المعاندين والاشقياء.

ولا يتسع المجال لايراد ماوضعه الاسلام من الاحكام المملوءة بالرحمة ازاء هؤلاء الحربيين: فقد ذكر ذلك بالتفصيل الدكتور انريكو المذكور، وانما نكتفي هنا بذكر جملة ختم بها هذا المؤلف البحث قال:

« اذا روعيت هذه القواعد حسبما قررته الشريعة القرآنية فان مواقف المسلمين تجاه خصومهم لا تكون مواقف انسانية فقط، بل تكون اوفر عدالة مما طالما عاملت به جملة حكومات اوربية رعاياها، ولا سيما في المستعمرات[١].»

ومثل ذلك رأي دوزي المستشرق الهولندي الذي يأتي حديثه عن درس واختبار فقد قال:

« ومن المهم ان نتأكد ايضاً ان قواعد الحرب في الشريعة الاسلامية هي طافحة بالرحمة وبانسانية لم تطبقها الشعوب المتمدنة الحاضرة قط على ما بلغته من درجة الحضارة السامية. !»[٢]

---

(١) L'Islam et la politique des alliés p. 151

(٢) Dozy, Hre des musulmans d' Espagne p. 41

العرب واهل الذمة

لقد كان العدل افعل من السيف في سرعة الفتح العربي في صدر الاسلام : فان حسن معاملة الفاتحين دفعت كثيراً من الامصار الى تفضيل العرب على حكامهم الاولين على ما بينهم من رابطة الدين .

فان العرب الفاتحين وُجدوا كما قال غوستاف لوبون « تجاه شعوب ظلمها حكامها العديدون من غير شفقة منذ اجيال حتى باتت تستقبل بسرور كل فاتح تترقب منه التخفيف من آلامها » الى ان قال :

« وكانت الخطة مرسومة بجلاء امام الخلفاء ، فعرفوا ان يضحوا فكرة الاكراه على الدين في سبيل مصالحهم السياسية ، وهم خلافاً لما يفترون عليهم كثيراً ، كانوا بعيدين عن التوسل لنشر اعتقاداتهم بواسطة القوة ، وكانوا يصرحون ، حيثما نزلوا ، باحترامهم المذاهب والعادات والتقاليد عامة .

ولقاء حماية البلاد اكتفوا بجزية زهيدة هي اقل مطلقاً من الرسوم التي كان يتقاضاها منها الحكام القدماء .

وان سيرة عمر بن الخطاب في القدس توضح لنا باي عذوبة كان العرب الفاتحون يعاملون المغلوبين ، خلافاً لما ارتكبه في تلك المدينة الصليبيون بعد بضعة قرون [١] »

ذلك ماجعل تيشن يصرح بان الخلفاء الاولين عاملوا المسيحيين برحمة لم يأت مثلها الفاتحون المسيحيون قط [٢] .

وانا نقتصر على مثال واحد من عدلهم اورده جرجي زيدان قال : لما دعي المسلمون للاجتماع في اليرموك وكانت حمص في ذمتهم فقد ردوا الى اهلها ما كانوا اخذوه منهم من الجزية ، وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم

---

(١) G. le Bon p. 114-115

(٢) Droit des gens p. 540

والدفع عنكم ، فانتم على امركم . فقال اهل حمص «لولايتكم وعدلكم احب الينا مما كنا فيه من الظلم ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم[١] »

وان غوستاف لوبون بعد ان اورد الى اي حد اثر عدل العرب في مصر حتى جعل اهلها يختارون « لغة الفاتحين ودينهم » قال :

« انها لنتيجة لا تحصل قط بالقوة . ولم ينلها شعب قبل العرب من الشعوب التي تغلبت على مصر[٢]»

ولما انتشرت اخبار عدلهم في كل مكان رغبهم فريق من اهل اسبانيا في بلادهم فكانوا فيها عند حسن ظن الناس بهم ، ولا سيما عند الاكليروس ، فانهم على قول غوستاف لوبون :

« علموا او جربوا ان يعلموا الشعوب النصرانية اثمن الفضائل البشرية : وهي الرحمة : وبلغ من حسن معاملتهم للبلاد المفتوحة ان سمحوا لاكليروسها بعقد مجمعي اشبيلية (٧٨٢م) وقرطبة (٨٢٥م) فضلاً عن ان الكنائس الكثيرة التي شيدت في عهد العرب هي شهادات دامغة على حسن رعايتهم الاديان التي تحت قانونهم[٣]»

هذا واستمر اهل الذمة زماناً على ولاية دواوين الحكومة فيكتبون في سوريا بالرومية ، وفي مصر بالقبطية . ثم لما جعل عبد الملك بن مروان في نحو سنة ٨١هـ=٧٠٠م العربية لغة الدواوين اضاعوا مكانتهم في الحكومة ، الا انهم احتفظوا على وجه عام بحريتهم الدينية وحقوقهم الاجتماعية ولا سيما في عهد كل من الوليد وسليمان ابني عبد الملك وعمر

---

(١) التمدن الاسلامي ج١ ص٥٧

(٢) G. le Bon. p. 116

(٣) idem p. 286

بن عبدالعزيز من اموبي الشام ، وهشام بن عبدالرحمن وعبد الرحمن الناصر والحكم بن عبدالرحمن ، من اموبي الاندلس .

ثم امتاز العباسيون في اكرام اهل الذمة : فقد شغفوا في نقل العلوم الى العربية فقربوا اليهم العلماء من سائر المذاهب واحترموا لاجلهم اقوامهم . واشهر المقربين لديهم من اهل الكتاب آل بختيشوع وآل حنين وآل ماسرجويه وآل الكرخي وآل ثابت وغيرهم . وبلغ التساهل منهم شأواً بعيداً حتى انهم كانوا لا يستكبرون طلب العلم على غير ابناء دينهم فقيل ان الفارابي اخذ بعض علمه عن احد نصارى حران [١] .

وتجاوز تسامحهم ذلك الحد ايضاً ، ولطالما تغاضى العلماء والخلفاء عن انتقاد العبرانيين والنسطوريين والنصارى الانتقاد المر على الشريعة المحمدية [٢] .

واذا ذكر انصاف العباسيين فاول ما يتبادر الى الذهن كل من المنصور وهرون الرشيد والمأمون والمهتدي بن الواثق .

عهد الفترة

وما عهد الفترة الا حين طغى تيار الاعاجم ولا سيما المغول والترك على المدنية العربية فطموا عليها واجتثوا دول العرب من اصولها .

اهل بداوة وخشونة جعلوا ديار الاسلام ميادين حرب دائمة ، فأوهنوها واطمعوا بها الاجانب من لاز وفرنجة وسواهما ، فقضوا على

---

(١) زيدان التمدن الاسلامي ج ٣ ص ١٦٥

(٢) Dr E. Insabato p. 151

البقية الباقية فيها من مدنية وعمران .

ولا يخفى ما يصير اليه حال الرعية من السوء والشر في مثل هذه الظروف . يستوي بذلك المسلم والذمي ، لان الحروب والثورات نار ملتهبة مكتسحة لا توفر احداً لأجل دينه . وكان في جملة اسباب الحروب الصليبية التي اوردتها دائرة المعارف الافرنسية : « تدحرج سيطرة العرب الرحيمة في آسيا وتغلب حكم الترك الحربيين المتعصبين » .[١]
كما كان في جملة المنشطات لها « استغاثة نصارى سوريا المتوالية باوروبا اولئك الذين ما فتئوا منذ واقعة بواتيه يعقدون آمالهم على الفرنجة .[٢] »

فزادت تلك الحروب وما تخللها من الحوادث البغضاء بين المسلمين وسواهم فساء حال اهل الذمة ولا سيما بعد جلاء الصليبيين .

غير انهم مع ذلك كانوا بالنسبة لامثالهم في اوروبا وقتئذ في نعيم : فان اليهود في فرنسا والمانيا اصابهم من الاضطهاد العظيم في اثناء ماحدث في الحروب الصليبية من الحماس الديني الى حد ان الوفاً منهم « كما روى درابر » قتلوا بالعذابات المختلفة انتقاماً من اجدادهم لذنوب اقترفوها قبل اكثر من الف سنة في القدس[٣] .

---

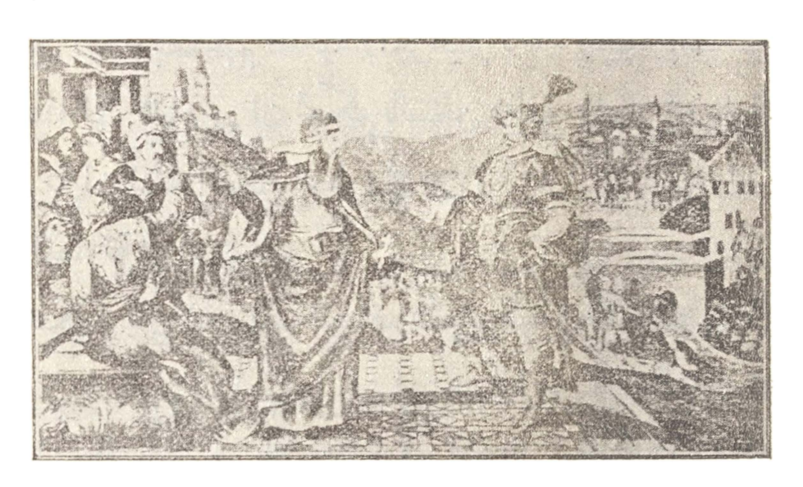
(١) Larousse illustré T. III p. 413

(٢) Lavallée, Hre de la Turquie T. I p. 155

(٣) Drapper, Hre. du développement intellectuel de l' Europe T. II p. 287

آل عثمان واهل الذمة

لما استتب الامر لآل عثمان عدلوا عن طريقة اسلافهم الاعاجم الخشنة الى سياسة الخلفاء الراشدين في الحكم والفتح . وعدا الرأفة والعدل كانوا اذا نزلوا للقتال يخيرون الخصم بين الاسلام والجزية والحرب ، فمن آمن مثل ميخائيل كيوسه Michel Kieucé كان له ما لهم وعليه ماعليهم من الحقوق والواجبات ، ومن رضي بالجزية ، كما فعل اصحاب لفكه واق حصار وبكدجه وسواهم ، ضموا الى جسم الامبراطورية على احتفاظهم بالحرية الدينية والاستقلال في الشؤون الطائفية . ولا يؤدون لقاء حمايتهم الا الجزية عن الانفس والخراج عن الاراضي .



« السلطان محمد الفاتح يقلد بطريرك الروم الرئاسة على قومه ويثبته فيها »

على ان هذه الرحمة لم تكن خاصة بالذين يرضون بالجزية طوعاً وانما كانت شاملة ايضاً الامصار المفتوحة قسراً : فان محمد الفاتح ما دخل القسطنطينية (٢٩ مايس ١٤٥٣م) الا وامر الروم الذين تشتتوا على اثر

الفتح بالعودة واعداً اياهم بحرية الدين والاحتفاظ باملاكهم واموالهم كافة ، فضلاً عن منحه البطريرك كل الحقوق التي كان يتمتع بها اسلافه [١] وجرى بذلك مجرى عمر بن الخطاب في معاملة البطريرك صفرونيوس في داربيت المقدس. هذا وما عدا اياصوفيا احتفظ الروم بكنائسهم كافة وبحرية دينهم ، واستقلالهم الاداري ، فشكلوا بذلك كتلة في الامبراطورية العثمانية تختلف عن قومها ، وتؤدي رسماً مزدوجاً ، فما كان منه على الانفس سمي جزية ، وما كان منه على الاراضي سمي خراجاً .

وكان على رأس تلك الكتلة البطريرك وحوله المجمع الطائفي . ولهذا الرئيس مرتبة الوزراء ، وله مثلهم حرس من الانكشارية ، وهو يقضي بين الروم بمصالحهم المدنية والجزائية كافة . ولهذه المحكمة المؤلفة من رؤساء الاكليروس ان تحكم بالسجن والنفي والجلد ، وعلى السلطات العسكرية ان تنفذ احكام البطريرك بين رعيته ، كما عليها ان تنفذ احكام المطارنة في ابرشياتهم [٢]

وهكذا كان شأن بقية العناصر المستوطنة في الامبراطورية العثمانية كالجنويين : فانهم ما لبثوا ان استحصلوا من السلطان محمد الفاتح على فرمان عال يأذن لهم بالاحتفاظ في احوالهم الخاصة ، ويعفيهم من كل ضريبة الا الجزية المرتبة على اهل الكتاب [٣]

---

(١) De la jonquière, Hre de l'Empire Ottoman p. 102

(٢) Lavallée, Hre. de la Turquie T. I p. 257

(٣) Miltitz, p. 115

وفضلاً عن ذلك فان الفاتحين من آل عثمان كانوا يقنعون بالسيادة والجزية ، ويتركون احياناً للبلاد المفتوحة امرها بما فيه استقلالها السياسي : من ذلك تثبيت السلطان مراد الاول اسيره سيسمان ملك البلغار اميراً على نحو نصف مملكته . ومن ذلك تنصيب السلطان بايزيد بن مراد الامير اسطفان مكان ابيه لازار على حكومة الصرب .

ولم تبدلهم القوة ، عن تقديس حرية الاديان ، بل انه لما اعتُرض على محمد الفاتح لعدم تخييره رعيته من النصارى بين الاسلام والقتل ، على ما هو عليه من السلطان ، قال « كم هو فوق الواجب الادعاء بالحرص على الاسلام زيادة علي حضرة الشارع ؟ [١] » وهو يشير بذلك الى ان النبي لم يفعل ما يقترحونه عليه .

على انه لو لقي هذا الاغراء أُذناً صاغية لدى السلطان لما مكنه منه العلماء اهل الفتوى . ولقد جاء الدليل الفعلي على ذلك في حكم ياوز سليم : فقد طغى على آسيا الصغرى جمهور من هراطقة الفرس يسمون « قيزيل باش » وامسوا خطراً سياسياً ومذهبياً على البلاد . ولما استأصلهم السلطان بفتوى العلماء تشجع لطلب فتوى مثلها منهم بحق النصارى . ولكن خاب ظنه فان اصراره لم يفده شيئاً وانما تلاشى ازاء انكار المفتي زنبيللي عليه ذلك الطلب [٢]

هذا وكما راعى آل عثمان جانب الشريعة في معاملة رعيتهم فقد

---

(١) احمد راسم ، رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ج١ ص ١٣٨

(٢) Dr. E. Insabato, l' Islam et la politique des alliès p. 149

حاولوا جهدهم ايضاً ان لا يحيدوا عن احكامها في الحروب، حيث لا نظام ولا قانون ولا سيا في تلك الاعصر الطافحة بالتعصب[١].

فقد جاء في كتاب « سلاطين آل عثمان » ما ترجمته « كانت انتصارات السلطان عثمان طاهرة من فظائع الحروب . بلى : وليبينوا لنا اياً من الاولاد بقر بطنه ؟ واي مدينة احرقت ، وصبغت بالدماء ؟ ام اي ناحية بذل السيف في رقاب اهلها ؟ — الى ان قال — على انه ولئن سمح السلطان لجنده بالنهب اذا دخل بلداً قسراً ، فبوسع اي قائد ان يمنعهم عن ذلك في تلك الازمان ؟[٢]

قلت ان هذا هو بوسع اورخان بن عثمان الشهير في الشفقة مع الحزم . فلما دخل ازنيق حافظ على سلامة اهلها ، وخيرهم بين البقاء والهجرة ولهم امو الهم كافة .

وقد علق المؤرخون على عمله هذا الاطراء الجم وقال قائلهم « انها لمرحمة نادرة جداً في ذلك الحين تشرف اسم هذا البطل الاسلامي[٣] »

وفضلاً عن ذلك فقد ذكروا امثلة عدة عن عواطفه الشريفة : فقد استوقفه امام باب مدينة يكي شهر منظر غير مرتقب : نساء باليات الثياب انطرحن على قدميه ، هن ارامل الروم الذين ذهبوا ضحية الواجب .

---

(١) يذكر التاريخ شيئاً كثيراً من فظائع الاتكشارية ولا سيا في الحروب . غير ان تلك الحوادث اذ كانت في عهد الاختلال فانها لا تكون دليلاً على ما نورده لانا نبحث في هذا الكتاب عن عهد الفتح .

(٢) رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ج١ ص ٣٣

(٣) Hre. de l'Empire Ottoman p. 132

رق السلطان لبؤسهن ، ورفعهن بيديه بلطف . وبعد ان عوضهن عن رجالهن بازواج من كبراء حاشيته واصل السير بين التهليل . ذلك اللطف وتلك الانسانية اكسباه القلوب كافة الى حد ان جمهوراً من المدن المجاورة خف اليه لاداء الطاعة[١] .

وبعد فاذا صح ما رواه بعضهم عن مرافقة فتح قسطنطينية قتل وسلب فان صوت الشاكين ليخفت ازاء خشونة الصليبيين لما فتحوا عاصمة البيزنطيين على ما بينهم وبين الروم من وحدة الدين . فقد بلغ طغيانهم فيها حد اختلاس كنوز الكنائس . على حين ان محمد الفاتح لما دخل كنيسة ايا صوفيا ورأى جندياً يكسر في جدرانها الفسيفساء ضربه فالقاه صريعاً[٢] .

وبعضها نصير الاشياء

يراعي المؤرخ المنصف في حكمه على الافراد والجماعات روح عصرهم وظروفه . وإلا فان من يجعل ظروف مدنية اليوم مقياساً لغيرها فهو بعيد عن الانصاف . وكيف يكون منصفاً من يقارن بين قومين بينهما مئات السنين ، وناهيك بما بينهما من اختلاف الذهنية والافكار والتقاليد . مثلاً لو قابلنا بين معاملة آل عثمان للذميين وبين معاملة الدول الحاضرة لرعيتها التي هي على غير دينها اذن لانقلب اطراؤنا آل

---

(١) Jouannin & Vangaver, l'univers Turquie p. 27

(٢) Lavallée, Hre de la Turquie T. 1 p. 254

عثمان الى ذم . كيف لا ونحن في زمن كادت تتلاشى فيه الفوارق الدينية ازاء الجامعة الوطنية .

اما الانصاف فيقضي بغير ذلك . يقضي باجراء المقابلة بين معاملة العثمانيين وسواهم لاهل الذمة في عصر واحد . وحينئذ تظهر ميزة العثمانيين بظهور البون الشاسع ، ويبين كم استفاد آل عثمان بواسطة احسانهم ، من حيث سرعة الفتح استفادة العرب من قبلهم .

غير انا لانود ان نتوسع في توضيح سؤ معاملة اوروبا وقتئذ لابناء غير دينها ، كيلا نخرج عن الموضوع ، وعلى الخصوص لان ذلك صار من قبيل الثابت المعروف ، وحسبنا الاشارة الى مظالم اسبانيا وسوم اهلها وحكامها المتخلفين فيها من المسلمين الخسف والهوان واكراههم اخيراً على التنصر ولا نذكر اليهود وحالهم وقتئذ فيها وفي اوروبا كافة ، فان اخبارهم يضيق هذا الكتاب عن استيعابها : انهم فئة كانت اذا خدمها الحظ ومنحت الحماية ، فلم يكن يقصد منها الا من قبيل « ما كان يفعله ملوك انكلترا في القرون الوسطى من حماية اليهود باعتبارهم رأس مال ثمين للملك [1] . »

بلى والاجدر ان لانتوسع في هذا الموضوع مازال في اخبار الطوائف من اهل الدين الواحد بل في نكبات الهراطقة وهم من نفس الطائفة كفاية وغنى عن التطرف في معاملة الاوربيين للاغيار . واذكر اخبار مذابح الكاثوليك والبروتستانت ، واذكر مجلس التفتيش ، ولا تنسَ هجرة

---

(١) رمزي ميور ، ترجمة عبد الرحمن زهدي ، سر توسع اوربا الدولي ص ٢٧

البيورتان الانكليز في اوائل القرن ١٧م الى مستعمرة «انكلترا الجديدة» فراراً من مخالفيهم في المذهب من ابناء دينهم .

واما اوروبا الفاتحة فانها رغم مجيء زمانها متأخراً عن الفتح العثماني فانها لم تحذ حذوه من حيث احترام حقوق المغلوبين .

قال رمزي ميور عن البرتغال :

« ومما يلاحظ ان البرتغاليين كانوا في كل مكان يحتلونه مثالاً للعنف وعدم التسامح . فان روح هؤلاء الصليبيين لم تكن مما يساعد على ايجاد روابط حسنة ودية بينهم وبين اقوام غير مسيحيين . وارتكب البرتغاليون في منازعة منافسيهم من التجار العرب في المحيط الهندي كل اساليب القسوة حتى قضوا عليهم[1] »

وقال عن الاسبان في امريكا :

« على اننا لاننسى ايضاً ما كان عليه هؤلاء من القساوة والغلظة[2] »

وقال عن الهولانديين في شمال البرازيل :

« ومن موجبات الاسف ان استغلالهم هذه الاقطار كان على طريقة تأباها الرحمة والعدل[3] . »

ولما اتى دور انكلترا في البحث فان هذا المؤلف رغم ارادته رفعها عن مصاف بقية الدول لم يسعه الا ان يقول :

« نعم انه وقع في تاريخ التوسع الدولي البريطاني امثلة معدودة من الظلم : كالاشغال الشاقة التي كانت تفرض على اهل كاناكا في المحيط الهادي ، ولكنهم لم تقع منهم مظالم كالتي وقعت في الكنغو ، او كالفظائع التي حدثت في البوتومايو او مساوىء

---

(١) سر توسع اوربا الدولي ص ٢٤ (٢) ص ٢٦ (٣) ص ٣٨

الرقيق كالتي اشتهرت في بكونيا ' او مجازر كالتي ارتكبت في رجال الهريروس في افريقيا الجنوبية الغربية الالمانية[1]»

واما الفظائع الحربية التي كانت تقع في عهد الفتح العثماني فحسبنا ان نشير الى ما كان منها في الحروب العثمانية الاوروبية : فلما اندحرت فرقة من جيوش محمد الفاتح في زحفها على المجر (١١٦٣هـ = ١٤٧٩م)

« ارتكب الغالبون فظائع تفوق حد التصور : فانهم نصبوا على جثث المسلمين التي كانت لا تزال تضطرب موائد تدفق عنها الخمر تدفق الامواج. وقد بلغ السكر من الخمر والدم بالكنت كينس حاكم تمسوار ان رفع باسنانه جثة وشرع يرقص وهو حاملها رقصة حربية . وفي اليوم التالي شيدوا من جثث القتلى اهرامات كثيرة وذبحوا الاسرى كافة على قبر باتوري قتيل تلك الوقعة احتفالاً بمأتمه [2] »

وفي انتصار آخر سنة (١٤٩٣م) :

« خيطت الاكياس على فريق من الاسرى بامر (الكنت كينس) والقوا احياء في الماء ' على حين كان نصيب الباقين من الاسرى يختلف ما بين سلخ جلودهم والطحن بالرحى والشي والالقاء الى الخنازير الوحشية [3] »

وجرى مجرى الكنت كينس ميخائيل الباسل امير الافلاخ الثائر على الامبراطورية العثمانية ' فانه لما اخذ حصن تركو فيتز :

« خوزق الحامية وشوى على نار خفيفة القائدين علي باشا وخوجه بك Kodji Bey[4]

وهنالك فظائع الروس وما ادراك ما هي : فقد عددها روتيارس Ruthières ولاسيما ماوقع منها في القرم: دع الفتك والتمثيل والتعذيب

---

(١) سر توسع اوروبا الدولي ص ١٣٣

(٢-٣-٤-٥) Hre de l' Empire Ottoman p. 179 196, 288, 283, 386, 388 et 389

فقد بلغ منهم التوحش انهم لما دخلوا مدينة اسماعيل ظافرين ذبحوا اهلها كافة في مدة ثلاثة ايام (١٢٠٥هـ=١٧٩٠م) غير مشفقين على صغير او كبير ، وغير مراعين الجنس من لطيف او قوي !

هذا ولم يقتصر انحطاط اوروبا وقتئذ على معاملة الذميين والحربيين والمخالفين لمذهب الدولة فحسب ، كلا بل بلغ من انحطاطها الاجتماعي الى حين قريب انها كانت في اريستوقراطيتها المطلقة تميز في احكامها ومراتبها بين طبقات رعيتها . اعتبر ذلك بما قاله بوكله على سبيل الدليل :

« كان يحكم بمائة قطعة من الذهب بدل دية الشريف على حين ان دية سواه كانت ما بين الخمسين والماية . وكذلك فان الجزاء النقدي كان بحسب الطبقات — الى ان يقول — وكانت اكثر الوظائف وراثية او مشتراة بالرشوة ، خذ بروسيا مثلاً . ففي سنة ١٨٠٧م كان كثير من الوظائف فيها مختصاً قانوناً بطبقة ما : فبعضها للاوساط ، والبعض الآخر للاشراف . كما انه الى عام ١٧٨١م كان محظوراً في فرنسا دخول غير الاشراف الى المدرسة الحربية في مازييهر Mazières [١] »

. . . .

ولما كانت الاشياء تتميز بضدها ، وكانت اوروبا على ما اشرنا اليه من الانحطاط الاجتماعي والقسوة آل الامر الى اشتهار العثمانيين في المعاملة فتسهلت لهم سبل النجاح . فاذا عزونا عدم مقاومة تتار القرم اياهم حين الفتح لاجتماعهم والعثمانيين في جامعة الدين ، فما نقول بطرد اهل المورة ابناء دينهم البنادقة ، الذين طالما حاولوا ان يدخلوهم كرهاً بالكثلكة ، ونزولهم طوعاً تحت سيادة السلطان سليمان الثاني ؟ لا شك في ان ذلك

---

(١) L. Bouglé, La démocratie devant la science p.2

نتيجة لحسن المعاملة ، ويرجع الفضل فيه الى شريعة الدولة تلك الشريعة التي رافقت تحضر الترك في صدر عهده فدمثت اخلاقهم الطبيعية و كبحت جماح انفسهم لما آنسوا بها القوة و« ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى »

السلاطين الفاتحون

« تأثير شخصياتهم في انجاح الدولة »

لما انتشر الاسلام بين الترك كانوا على ما كان عليه العرب ، في عهد صاحب الرسالة ، من البداوة ، فلذلك كان تأثيره في الأمتين متشابهاً .

تلك الخشونة ، والتباغض ، والجهل ، والاستبداد ، قد انقلبت بعد اسلام العرب الى لين ، والفة ، وعلم ، وانصاف . وما ذلك لما في الاسلام من فضائل ولما له من نفوذ فحسب ، بل لأن الأمم التي تكون على الفطرة تصير شديدة التقيد باوامر الاديان متى اعتنقتها فتتطور على مقربة من مثلها الاعلى . وانا لانذكر عهد الراشدين ، فقد اصبح حديث اولئك الخلفاء اشهر من ان يذكر ، بل حسبنا ان نلفت نظر القارئ الكريم الى ما جاء من الأمثلة الفاضلة في حكم كل من الوليد بن عبد الملك ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز ، من الامويين . وهشام بن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن الناصر ، والحكم بن عبد الرحمن الناصر ، من اموي الاندلس ، والمنصور ، وهرون الرشيد ، والمأمون ، والمهتدي بن الواثق من العباسيين .

وهكذا كان تأثير الاسلام في الترك ، فانه كما قلب مجموعهم فقد بدل في افرادهم .

قال ليون كاهن :

« انه حول اولئك الذين كانوا الوسطاء مابين الصين واوروبا في التجارة ، الى جيش شديد اعد لخدمة دين اسيوي خصم لدين اوروبا . ولذلك كان مشيرو اعظم الحروب الدينية التي شبت في القرون الوسطى ضد اوروبا هم عناصر لم تكن عدوة من قبل للمسيحية ، وانما كانت قليلة العناية بالتدين حتى قال عنها الغربيون ان ذلك غريزي بفطرتها[١] . »

الى هذا الحد بلغ تأثير الاسلام على الترك من حيث المجموع ، اما تأثيره الافرادي فهو ظاهر في سير ملوكهم : فانهم مذ استقلوا في ديار الاسلام ، شرع فريق منهم يتحدى الخلفاء الراشدين في تقواهم واخلاقهم العادلة ، وانا لنذكر على سبيل المثال كلاً من :

١ (احمد بن طولون) صاحب مصر والشام (٢٢٠ــ٢٧٠هـ) (٨٣٥ــ٨٨٣م) الذى كان يتصدق بالف دينار في الشهر . فقد رُوي ان وكيله اتاه يوماً فقال « ان تأتيني المرأة وعليها الازار وفي يدها خاتم الذهب فتطلب مني افأعطيها ؟ » فقال ابن طولون « من مد يده اليك فاعطه[٢] »

٢ (محمود الغزنوي) ملك الافغان والهند وخراسان (٣٦١ــ٤٢١هـ) (٩٧١ــ١٠٣٠م) عبر عشر مرات في عشر سنوات متواليات نهر السند بقصد نشر الاسلام حتى بلغ مدينة دلهي[٣]

٣ (طوغرل بك) مؤسس السلطنة السلجوقية كان يقول « استحيي من الله ان ابني داراً ولا ابني الى جانبها مسجداً[٤] »

٤ (ملكشاه السلجوقي) (٤٤٧ــ٤٨٥هـ) (١٠٥٥ــ١٠٩٢م) العمراني

---

(١) L. Cahun : Int. à l'hist. de l'Asie p. 119

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٩٦ــ٩٧ (٣) الخانجي منجم العمران ج ١ ص ٦٠

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٥٧٦ــ٥٨٩

الملقب بالملك العادل . حكى الهمذاني انه لما اجتاز هذا السلطان بمشهد علي بن موسى الرضي بطوس وهو ذاهب لحرب اخيه تكس سأل وزيره نظام الملك وقد اطالا الدعاء « باي شيء دعوت ؟ » قال « دعوت الله ان ينصرك ويظفرك باخيك » فقال « اما انا فلم ادع بهذا بل قلت : اللهم انصر اصلحنا للمسلمين ، وأنفعنا للرعية ! »

٥ (نور الدين زنكي) (٥١١—٥٦٩هـ) (١١١٧—١١٧٣م) صاحب الموصل والشام ومصر ، الملقب بحق بالعادل . شكت اليه زوجته من الضائقة فاعطاها ثلاثة دكاكين في حمص كانت له يحصل منها في السنة نحو العشرين ديناراً ، فلما استقلتها قال : ليس لي إلا هذا ، وجميع ما بيدي انا فيه خازن للمسلمين لا اخونهم فيه ، ولا اخوض نار جهنم لاجلك ! [1]

هذا واذا امتاز في الدول التركيــة المتقدمة افراد ، فان معظم سلاطين آل عثمان في صدر دولتهم كانوا على فضائل كبرى . ولذلك تسنى لهم ما لم يتسنَ لسواهم من الترك من بسطة الملك وامتداد اجله .

ولما كان السلطان في الحكومة المطلقة هو الدولة لأن ارادته هي القوة المسيرة لها ، وكان لذلك ، يتوقف عليه فلاحها او انحطاطها ، رأينا ان نتوسع في البحث عن فضائل الفاتحين من آل عثمان تبييناً لمــا كان لصفاتهم من المساعدات في سرعة الفتح .

الاصالة والتقوى

كانت البداوة قوة عظيمة في العصور الغابرة وكثيراً ما اكتسحت الحضارة المتخنثة . فلما ضعفت شوكة العرب بالحضارة والترفه ، خلفتهم عشائر الترك القريبة العهــد بالاسلام واخذت على عاتقها ان تمثل دور ابطاله الاولين في الدفاع عنه ونشره .

---

(١) ابن العبري ص ٣٣٥

وأظهر العثمانيون منهم خاصة ميزة في اقتفاء اثر الخلفاء في التقوى والقناعة والاحسان .

وقد تجلى ذلك فيهم منذ شرع عثمان الاول في تأسيس دولتهم فقد قال عنه جوانن وفانكافر:

« الاحسان من الفضائل المميزة للمسلمين ، ويظهر ان ملوك آل عثمان كانوا ميالين الى ان يكونوا قدوة لرعيتهم في هذا الشان : فعثمان ما فتئ يبدي من الفضائل ازكاها ، حتى ان عطاياه كانت تتحرى المعوز من ارملة ويتيم ، فضلاً عن انه ما كان يصادف فقيراً الا ويواسيه وكم مرة خلع رداءه على المحتاج ? هذا عدا مائدة السلطان اليومية التي كان يمدها في قصره للفقراء ويكادان لا يكون لها آخر ، وكثيراً ما كان السلطان يقف عليها بنفسه يناول الطعام لاولئك المساكين فيخجلهم لطفه المفرط[١] »

وفضلاً عن الاحسان الى الفقراء فقد عمل عثمان الاول ايضاً على استجماع القلوب اليه بتقريب العلماء والاتقياء وانشاء مجامع ومدارس لهم[٢] اشتهر منهم شيخ علوان جلبي والشيخ حسن[٣] والشيخ اده بالي الذي تزوج السلطان من ابنته تبركاً بتقواه .

اما حياة عثمان فكانت كالزهاد في التقشف ، فلم يخلف الا شعاراً مزركشاً وعمامة وبضع قطع من الحرير الاحمر ، وملعقة ومملحة وخيولاً ثمينة مع جملة قطعان من الغنم[٤]

---

(١) Jouannin & Vangaver. L'univers, Turquie p. 117

(٢) Lavallée, Hre de la Turquie T 1 p.184

(٣) احمد راسم رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ج١ ص٣٣

(٤) Histoire de l'Empire Ottoman p.118

ومن يقرأ وصيته لولده اورخان لما حضره الموت يقدر الى اي حد كان حريصاً على الدين واحترام الخلفاء والشفقة على الرعية والجهاد[١]

وكان من حظ تلك السلطنة ان اورخان عمل بوصية والده ، وفضلاً عن انه عُرف بالتقوى والاحسان الى حد انه لما احتفل بافتتاح احدى التكايا اشعل بيده مصابيحها ، ووقف بنفسه لاطعام الفقراء[٢] فانه اكرم العلماء والاتقياء وشاد لهم التكايا واشتهر منهم حوله كل من جليك بابا (اب الايائل) ، ودوغلو بابا (الاب الفخاري) وآبدال مراد وآبدال موسى[٣]

وبلغ من اخلاص اورخان انه لما انشأ فرقة الانكشارية سار بها الى اماسيا ليطلب من الزاهد الشيخ بكطاش الدعاء لها ، وان يتولى بنفسه تسميتها ، تبركاً وتفاؤلاً .

اما خلفه السلطان مراد الأول ، فانه وان لم يكن ديّناً ، فانه كان متقشفاً يجتنب الحرير ويلبس الصوف الخفيف ، مكرساً نفسه لنشر الدين[٤] وكان يحترم العلماء الى حد ان احدهم تجرأ على رفض شهادة السلطان بحجة انه لا يصلي جماعة ، فراق له هذا التأنيب وشاد في ادرنه المسجد المسمى مرادية تكفيراً عن ذنوبه[٥]

وكذلك كان شأن ابنه يلديرم بايزيد من الاصغاء لنصائح العلماء : فانه اقتنع فوراً بما اورده له صهره الشيخ الامير سعيد من الامثلة على

(١) تاريخ جودت باشا ج١ ص٣٩

(٢) L' univers, Turquie p. 28

(٣) Lavallée, Hre. de la Turquie T. 1 p. 184

(٤–٥) L, univers Turquie p. 32-38

التعاليم السيئـة التي يعطيها لشعبه ، فانكف عن اللهو ، وشدد على اهل دولته ولا سيما العلماء . وكفر عن استرساله في اللهو بتعمير مسجدين جميلين في بورصة [١]

ولكن كانت قد تمكنت من آل عثمان روح الحضارة ، واخـذتهم طبيعة الملك ومافيها من حب الزخرف والرفاهية . فصارت انفس السلاطين ميادين حرب بين غريزتهم المطبوعة على البساطـة والدين وبين طباعهم المكتسبة المتأثرة بالتمدن والملك .

فلما استتب الامر الى السلطان جلبي محمد بدأ باستعمال آنية الفضة والذهب ، وكأنه شعر بوخز في وجدانه ، فاراد ان يقوم ازاء ذلك بعمل صالح ، فأولم ثلاثة ايام في قصره الى الفقراء ولائم استعملت فيها تلك الاواني [٢] .

على انه كفر عن بدعته في خير من ذلك : وكان اول العثمانيين في ترتيب ارسال (الصرة) الى شريف مكة لتنفق على فقراء الحرمين .

ثم ان خلفاءه عافوا استعمال الاواني هذه الى عهد ياوز سليم : فقد خلفه مراد الثاني وكان تقياً محسناً يعمر في كل مدينـة فتحها مسجداً وزاوية وتكية وخاناً [٣] ، وكذلك كان بايزيد الثاني ابن محمد ومن عادته ان يثابر على الخلوة في العشر الاخير من رمضان معـتزلاً للعبادة وحده او مع الشيخ محي الدين ياوز [٤] وبلغ من ورعه انه جمع ما علق بثيابـه

---

(١) L'univers, Turquie p. 42-43

(٢) Idem p. 45-55

(٣) Idem p. 68

(٤) Idem p. 105

من غبار في اثناء الجهاد ، وامر ان يبسط في قبره تحت رأسه[١].

وكان قد حكم بين عهد هذين السلطانين محمد الفاتح المتهم بضعف العقيدة[٢]. والارجح ان هذه التهمة صحيحة رغم انه لم يعدل عن خطة اسلافه من اكرام رجال الدين وتشييد المساجد. وكذلك كان السلطان ياوز سليم ، فلما لقبه خطيب جامع ملك الضاهر في حلب بمالك الحرمين الشريفين انكر عليه ذلك وقال « لي الفخر بان اكون خادماً لهما » فدعي من ذلك الحين كلٌّ من سلاطين آل عثمان بخادم الحرمين الشريفين[٣]. ولما زار جامع محمد الضاهر في القاهرة رفع الطنفسة التي تغطي رخام المسجد ومرغ بها جبينه حتى رطبها بدموع الخشوع[٤].

اما ولده السلطان سليمان القانوني فانه لم يجنح الى المداراة وان قيل انه ندم في آخر حياته فاهمل الحرير ومحا آثار الحانات في العاصمة[٥]. وكذلك كان شأن معظم خلفائه من التمادي في اللهو ، فعملوا على اسقاط دولتهم باخلاقهم مثلما عمل من سلفه على رفع شأنها بفضائلهم ، وانما الامم الاخلاق...

الرحمة والحلم

ان الطيبات تولد الطيبات مثلما تولد الخبيثات الخبيثات : فالشجاعة

---

(١) Lavallée, Hre de la Turquie p. 292

(٢) Drapper T. III p. 4

(٣) مسكوكات عثمانيه تاريخي ص ٦٤

(٤) L'univers, Turquie p. 7

(٥) احمد راسم رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ج ١ ص ٣٤٩

التي فطر عليها آل عثمان مضافة الى تمسكهم بالدين على ما في الاديان كافة من الحض على مكارم الاخلاق ولدت بانفسهم بعض الفضائل كالشفقة والحلم والعفو عند المقدرة.

ولقد اوردنا امثلة من سيرتهم في الحروب ومعاملتهم المغلوبين فاذا قلنا ان ذلك من الواجبات الدينية التي طالما راعاها العرب قبلهم، فاحرِ بنا ان نشكر لفريق منهم رحمته التي تكاد تتجاوز الواجب. ولنذكر عفو الدولة مرات متوالية عن علاء الدين امير القرمان وعن حاكمي ازمير قرهجنيد ثم فيلوبوليس رغماً عن حنثهم بايمانهم التي كانوا يقسمون عليها وانتقاضهم على السلطنة.

وما كان ذلك العفو الا عن اعتماد كلي على النفس، بدليل ما تفوه به السلطان جلبي محمد لما قدم بين يديه امير القرمان قال:

« ان قصاص خائن مثلك يسود صفحات عظمتي، فاذا ما دفعتك نفسك الغدارة للحنث بايمانك، فان نفسي توحي اليَّ شعوراً ارفع من اسمي: فانت اذاً ستعيش[1] »

ولما امر يلديرم بايزيد باحضار الكونت دي نيفر ابن دوك بورغونيا الفرنسي الذي كان قد هب لنصرة سجسموند ملك المجر فوقع اسيراً، قال له قبل ان يبشره باطلاق سراحه:

« اني اسمح لك ان تحنث بيمين الاخلاص وتعود لمحاربتي، اذ لا شيء احب اليَّ من محاربة جميع اوروبة والانتصار عليها[2] »

ثم لما جيء بفيليب دوليل آدم حاكم رودس اسيراً الى حضرة

---

(١) Hre. de l' Empire Ottoman p. 144

(٢) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠

سليمان القانوني ، وقد كان عجّز الترك بالدفاع عن جزيرته خاطبه السلطان وقد اغرورقت عيناه : « اني لآسف على اخراج مثل هذا الشيخ من داره . » وامر ان يشيع بمزيد الاكرام الى حيث شاء[1] .

هذا ما كان يبدر من السلاطين بينما كان خصومهم متى تمكنوا منهم يمثلون بهم شر تمثيل . وقد اوردنا امثلة ذلك في الكلام على شريعة الدولة

فمن مقابلة اعمال العثمانيين مع اعمال اعدائهم عند المقدرة ظهرت افضلية آل عثمان فساعد ذلك على امتداد سلطتهم ، ولا بدع فقد قال ابن خلدون (فمن حصلت له العصبية الكفيلة بالمقدرة ، واونست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ احكام الله في خلقه فقد تهيأ للخلافة في العباد وكفالة الخلق)

العلم والهلم والعمران

لم يقصر آل عثمان بشيء من موطدات الملك تقصيرهم في نشر العلم ، وتعزيز التمدن : فقد حكموا مئات السنين وهم لم ينشئوا في اثنائها مدنية حديثة ، ولم يعملوا على احياء حضارة قديمة . وانما كان مثلهم كمثل ملوك الرعاة « هيكسوس » الذين تسلطوا على مصر نحو خمسة قرون (منذ القرن ٢٢ ق.م) ، ثم اجلوا عنها ولم يخلفوا فيها اثراً يذكر .

غير ان آل عثمان وان قصروا في هذا الميدان على الاجمال وغفلوا

---

(١) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٧

بعد فتحهم القسطنطينية، حين بدء عهد يقظة الغرب ، الا انهم لم يعدموا سلاطين عطفوا على العلم واهله ، مثل اورخان ومراد الاول وجلبي محمد ومحمد الفاتح وسليمان القانوني . فاذا نوهنا باسمهم ، فما ذلك عن اعتقاد بانهم وفوا الواجب ، وانما نفتقدهم في تاريخ آل عثمان كما تفتقد الواحة في الصحراء الكبيرة ، ونذكر لهم حسنتهم لانهم بعطفهم على العلم اعدوا الرجال الذين عملوا على انجاح السلطنة .

وربما امتاز السلطان اورخان من بين السلاطين الفاتحين بميله الى العمران ، فانه لم يطاوع عواطفه بالاسترسال في الفتح ، وانما اكتفى بما استولى عليه من البلاد ، وتحول الى تعميرها فقضى بذلك مدة ٢٢ سنة حتى وافاه الاجل . قال لافلليه :

«وكما كان اورخان صلباً في دينه فقد كان شغفاً بالعلم واهله : فاتخذ العلماء رجال شوراه ، ونصبهم على رئاسة المدارس ، فتناوب على رئاسة كلية ازنيق العليا كل من الملا داود والملا تاج الدين وسنان باشا . وقد احتفظت مدينة بورصة بشهرتها بالعلماء والزهاد والكتبة مدة طويلة ، بعد ان نقلت منها دواوين الملك [١] . »

ولما استتب الملك للسلطان جلبي محمد بعد كارثة تيمورلنك ، جرى مجرى اورخان في العناية بالعلم والعمران ، واشتهر بين حاشيته افراد منهم عربشاه السوري استاذ ابناء السلطان وصاحب التآليف الكثيرة [٢]

وامتاز عهد مراد الثاني بازدهار الاداب والشعر [٣] حتى اذا صار الأمر

(١) Hre de la Turquie T I p. 195

(٢) Hre de l'Empire Ottoman p.147

(٣) L' univers Turquie p. 69

الى محمد الفاتح واقام سلطنته على انقاض الامبراطورية البيزنطية ومدنيتها لبس عصره حلة مدنية ازرت بعصر اسلافه

يقال في الحكم : « لايعرف الفضل الا ذووه » فالسلطان محمد الفاتح كان على جانب عظيم من العلوم والفنون واللغات شهد بذلك درابر فقال :

« ان هذا السلطان فضلًا عن معرفته العلوم الرياضية ، واتقانه تطبيقها على الفن الحربي ، فقد كان يتكلم بخمس لغات ويعجب بالفنون الجميلة ، ولطالما اسرف في اكرام رسامي ايطاليا (١)

وبلغ من تقديره للادب انه لاجل قصيدة رفعها اليه شاعر لاتيني اطلق جملة من اسرى اللاتين .

وكان معظم عطفه على الادبيات اليونانية والعربية والتركية والفارسية . وانشأ في القسطنطينية جملة مدارس اعظمها دار الفنون كان كثيراً ما يتردد اليها ليلاً ويحث طلابها على التحصيل . هذا ولم يهمل بقية المدن الكبرى ، وقد اشتهرت في عصره باهل الفضل كل من بروسة وادرنة وازنيق

وكان شديد الحفاوة باهل العلم وكثيراً ما رؤي وهو يقبل يدي استاذه الملا كوراني ، وشوهد في المسجد يخف لاستقبال الملا خسرو اشهر علماء زمانه (٢)

واقتفى اثره ياوز سليم ، فكان شاعراً وله آثار بالتركية والفارسية

---

(١) int. à lhist. de l'Europe T III p. 3

(٢) احمد راسم ، رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ج ١ ص ٢٢٣

والعربية ، واشتهر بميله لمصاحبة العلماء والادباء في حله وترحاله . ولم يضاهِ محمداً الفاتح برفع شأن العلم والعلماء من سلاطين آل عثمان غير سليمان القانوني على ما بينهما من البون في التحصيل .

ان سليمان لم يبلغ منزلة الفاتح العلمية ولكنه مع ذلك لم يقصر في خدمة العلم والاصلاح الدولي (١) وعرف بالقانوني لوضعه وتنقيحه انظمة الدولة فضلاً عن الترتيبات التي اجراها بسلك العلماء

« فقد اهتم بهذا السلك ، وزاد في امتيازات رجاله ، ووسع نفوذهم ، واعفاهم من كل اتاوة وضريبة . ورفعهم فوق نظام المصادرة والقصاص الكبير . حتى لم يحكم على الجناة منهم فيما بعد بغير السجن والنفي (٢) . »

وبالنظر لميل السلطان للشعر والموسيقى والطرب ، التف حوله جمهور من الشعراء على اختلاف المناهج كعبد الباقي اشهر شعراء الترك الموسيقيين ويحيى بك الشاعر الخيالي الكبير وفضولي شاعر الخمر والأفيون وسواهم ..

غير ان ما ينتقد عليهم هو بقاء ذلك الاهتمام بالعلم والعلماء ضمن منطقة ضيقة حتى اذا تجاوز حاشية السلطان فقلما يتعدى باب دار الملك . فلهذا لم تقم للترك مدنية ، ولم يذكر التاريخ ان امتهم اصبحت من الامم التي اشتهرت بالعلوم والسعي لنشرها في ارجاء حكم سلاطينها المتسع . وانّى يتم لهم ذلك . وقد اهمل السلاطين خلفاء القانوني رعاية العلم واهله

---

(١) احمد راسم ، رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ص ٢٢٣

(٢) Hre de l' Empire Ottoman p. 262

على حين ان الغرب كان قد تيقظ للنهضة ، وما هي الا اجيال مرت كلمح البصر حتى اتسع الفرق بين الشرق والغرب . وهل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون ؟

عنصر الدولة

« تأثيره في انجاحها »

يتوقف تفوق الجماعات والأفراد على ملاءمة روح عصرهم لاستعداداتهم التي يمتازون بها على سواهم : ففي عهد القوة المجردة تحصل الغلبة للاشدين باساً ، وفي عهد العلم يسود اهله .

ولما لم يكن في الازمان الغابرة بون مذكور بين معدات اهل الحضر والوبر ، كان اهل البادية الاشداء بالفطرة ، والمتمرنون على القتال خطراً دائماً على ارباب الحضارة ، وما تغلب الهون فالعرب فالمغول فالبربر اللمتونيين والمرابطين ، إلا كتغلب الترك بعدهم مثالٌ على هذا الخطر .

نشأ الترك اشداء صبورين على تحمل المشاق لعراقتهم في البداوة ، ولتشعث مواطنهم ووعورة المسالك فيها ، وازدادوا بأساً باستسلامهم الى الحياة الجندية طيلة تاريخهم ، ولاتخاذهم القوة بمثابة المثل الاعلى لهم . قال ليون كاهن :

« مما يلفت الانظار في الترك روح الانتظام والتربية الجندية وحرصهم على ذلك حتى قضوا بقتل من يرتكب العصيان او المؤامرة . وقد اصطلحوا على تقدير الناس بحسب قوتهم ومعداتهم . ولا عبرة عندهم للتقدم بالسن . والشرف كل الشرف

بالموت في القتال . والعار كل العار بالوفاة على الفراش[١] . » « امـا الجامعة التي يعولون عليها فهي جامعة الجندية فحسب ، وليست جامعة النسب[٢] »

وقد ذكروا مايؤيد ذلك في اخبار فصيلة منهم تسمى الكيماك ، فكان اذا ولد للرجل منهم ولد رباه وعاله وقام بامره حتى يحتلم ثم يدفع اليه قوساً وسهاماً ويخرجه من منزله ويقول له احتل لنفسك ويجعله بمنزلة الغريب الاجنبي[٣]

لذلك فان الصين والفرس جيران الترك القدماء كثيراً ما كانوا يتخوفون منهم ويجتنبون التعرض اليهم . ولم يبنِ الصينيون السد الكبير سنة ٢٥٠ق م إلا رغبة باتقاء شرهم .

وكانوا اذا قضت الظروف بارسال تجريدة صينية الى منازل الترك تأخذ النائحات تنوح عليها سلفاً ، كما ان مؤرخي الارمن معاصري الدولة الساسانية كثيراً ما اوردوا عن مخاوف فرسان فارس ومحاولتهم الفرار حينما يُضطرون للزحف فيما وراء نهر سيحون . مع ان هؤلاء الفرسان هم هم الذين كانوا يبلون البلاء الشديد في قتال الرومان ، ولهم الشهرة الواسعة بالبسالة والاقدام[٤] .

ولشدة تخوف النـاس من الترك اطلقوا عليهم اسماء وان اختلفت لفظاً ومعنى الا انها تتحد بالدلالة على الحذر والتأذي منهم . وكما اطلق

---

(١) L. Cahun. Int. à l'hist. de l'Asie p. 60

(٢) idem

(٣) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٩٥ (٤) L. Cahun p. 54

عليهم الصينيون هي يونغ نو [١] ولقبهم الفرس واليونان بافتاليت ومعناها الرعية الباغية، فان البيزنطيين كانوا يسمون تركستان بلاد الظلمة . وزيادة على ذلك فان العشائر التركية الهونية التي نزلت من زمن بعيد في الجنوب الغربي امست ممن يرهبون جانب الترك . وتلقب بحر الخزر « قوزقون دكز » اي بحر الغربان [٢] .

ومن الغريب ان العثمانيين انفسهم الذين اصبحوا في عهد الجمهورية الحالية وقبيلها يقدسون اسم الترك كانوا الى عهد قريب يرون في اسم الترك ما يرادف البربرية : فقد جاء في دائرة معارف البستاني (ص ٦٩) ما نصه :

« واما العثمانيون الذين هم اتراك بالحقيقة فيجعلون هذا الاسم مختصاً بقبائل متبدية متوحشة . ومن ذلك انهم يسمون الرجل الجافي الطباع في لغتهم باسم ترك! »

هذا واذا صح ماروي عن معاوية عن النبي انه قال: «لاتبعث الرابضين اتركوهم ما تركوكم الترك والحبش . » ومـا روي ايضاً عنه « اتركوا الترك ماتركوكم [٣] » فتكون اخبار الترك المخيفة قد اخترقت جزيرة العرب ايضاً ، حتى حذر صاحب الرسالة اتباعه من التحرش بهم .

اجل، ولا شك في ان العرب مـا كان ليفوتهم خبر الترك ، فتلك الخرافات التي يرويها بعض الرواة تعليقاً على ما جاء في القرآن الكريم من ذكر يأجوج ومأجوج ان هي الا صدى اخبـار شائعة في تلك

(١) احمد راسم ج ١ ص ٦٠ — (٢) L. Cahun. p. 25

(٣) ياقوت الحموي معجم البدان ج ٥ ص ٣٧٨

الازمان عن بأس الترك وشرهم وان هي الا صور لمخيلة خائفة ، كبرها الزمان بريشة الرواة .

ومما يؤيد ذلك ان الصين كانت تلقب سكان ما وراء السد من ترك ومغول نيوتشي (Nue - Tchi) فتحرف بالتوالي هذا اللقب الى دجوجي ودجورجي وتشورتشا [١] حتى وصل الى العرب يأجوج ومأجوج . او ان ذلك الاسم (يأجوج ومأجوج) منحوت من كلمة جوجو التركية التي معناها الصغير او القزم [٢] .

ويزيدنا تمسكاً بهذا الرأي ما يقوله ثقات المفسرين من ان يأجوج ومأجوج هم الترك في جانب الصين :

فقد ذكر صاحبا الجلالين ان السدين المذكورين في هـذه القصة « هما جبلان بمنقطع بلاد الترك ، وان يأجوج ومأجوج هما اسمان اعجميان لقبيلتين [٣] . »

وقال البيضاوي عن السدين : « هما جبلا ارمينيـة واذربيجان وقيل جبلان في اواخر الشمال في منقطع ارض الترك منيعان ، من ورائهما يأجوج ومأجوج : قبيلتان من ولد يافث بن نوح وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل [٤] »

وقال الضحاك عن يأجوج « هم جيل من الترك [٥] »

اما الشيخ محمد بيرم فهو ينكر على من يقول ان سد يأجوج ومأجوج هو سد الصين قائلاً انه من المحتمل ان يكون سد ذي القرنين

---

(١) L. Cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p. 199

(٢) للمؤلف مقال ممتع يؤيد هذا الراي نشر في مقتطف مايس سنة ١٩٢٤

(٣) الجلالين ج ٢ ص ٧٠ (٤) البيضاوي هامش الشربيني ج٥ ص١٤٩

(٥) الخطيب الشربيني ج ٢ ص ٣٣٠

في احد القطبين! [١] وهذا بعيد

وبعد فمهما يكن من امر السد ويأجوج ومأجوج فان من الثابت ان العرب في صدر الاسلام قد احجموا بالفعل عن التعرض للترك ولم يباشروهم القتال الا حين دفعتهم اليه الظروف فذاقوا منهم الأمرين «ولولا ان العرب كانوا اكثر حذاقة ونباهة لكانت الغلبة للترك [٢]»

على انه وان غُلب الترك اخيراً الا انهم تركوا في نفوس الغالبين اعجاباً شديداً ببأسهم، حتى اذا ما اضعف الترف العرب، التجأوا الى فتيان الترك وجعلهم العباسيون عصبية الدولة واجنادها. وقد اظهروا في خدمة الاسلام من الشجاعة ما اشهرهم في دياره شهرتهم في مرابضهم. فاعجب بهم الشعراء ومدحوهم. قال ابراهيم بن عثمان الغزي (٤٤١ — ٥٢٤ هـ) من قصيدة:

في فتية من جيوش الترك ماتركت — للرعد كراتهم صوتاً ولا صيتا
قوم اذا قوبلوا كانوا ملائكة — حسناً وان قوتلوا كانوا عفاريتا [٣]

ثم لم يلبثوا ان تغلبوا بشجاعتهم على سائر العناصر والأمصار الاسلامية في الشرق، وجعلوا التاريخ الاسلامي منذ اواسط الدولة العباسية عبارة عن تاريخ الترك

. . . .

وكان ممن اشتهر بالشجاعة بين الترك في اثناء حرب المغول ودولة

---

(١) صفوة الاعتبار ص٢٨ (٢) L, Cahun: Int. à l'hist de l'Asie p. 131

(٣) ابن الاثير الكامل ج ١٠ ص ٢٨٤

ودولة خوارزم ، عشيرة قايي خان وامراؤها اجداد آل عثمان . وازدادت شهرة حينما كانت تحارب باسم سلاجقة قونية واما شهرتها العظيمة فقد حصلت بعد استقلالها حينما هبت للفتح باسم السلطنة العثمانية .

ان الامبراطورية الرومانية هي الدولة الحربية الممتازة في التاريخ، وها نحن نورد هنا بعض ما جاء في جريد الورلد النيوركية من المقابلة بين الامبراطوريتين الرومانية والعثمانية . ومن المقارنة تتميز الاشياء ، قالت :

« حفظ التاريخ للدولة الرومانية ذكراً مجيداً ، مع ان الرومانيين انفقوا ستمائة سنة في الغزوات والفتوحات حتى تمكنوا من انشاء مملكة لا تكاد مساحتها تبلغ ثلاثة ملايين ميل مربع . اما العثمانيون فمن الواجب ان يحفظ لهم التاريخ ذكرا ومجدا : فقد برزوا على الرومانيين في حلبات الفتوحات بعدد يقل عن عددهم ومدة تقصر عن مدتهم : فقد خرجوا من بقايا الدولة السلجوقية عددا مؤلفا من ثلاثمائة اسرة فامتشقوا السيوف وساروا يدوخون البلدان ويفتحونها بحيث انهم في مدة تقل عن ثلاثمائة سنة اوجدوا مملكة تزيد مساحتها على مساحة المملكة الرومانية حين كانت في قمة مجدها وشمخ علائها .

ولما غاب العثمانيون على امرهم وفت في عضدهم تحت اسوار ڤينا عام ١٥٢٩ كانت املاكهم ممتدة من بلاد فارس الى تخوم بلاد المجر ، وكانوا مستولين على البلقان كله وجاعلين البحر الاسود بحيرة عثمانية ، ومالكين كلما كان للرومانيين في افريقية .

وبناء على ما تقدم يظهر انه ما من دولة اسرعت الخطى في الفتوحات نظير الدولة العثمانية ، فاذا كان الرومانيون قد فاقوا العثمانيين بالدهاء في الامتلاك بعد ان قضى الحسام مهمته فان العثمانيين قد فاقوهم في الفتح المحض . وبالنظر للقوة التي يتمكن معها الفتح لم تكن كتائب الاسكندر المكدوني الجرارة ولا جيش حرس المملكة الرومانية ، ولا جنود كرمويل ، في الثورة الأنكليزية ، ولا حرس نابليون الاول المشهور تكاد تذكر في جنب فرقة الانكشارية العثمانية التي جند سلطان العثمانيين رجالها من الفتيان

النصارى ، وابعدهم عن كل الروابط البيتية ' وموجبات الرقة ، ودربهم على القتال حتى لم يعد لهم رجاء او قصـد في غير ساحات القتال وفتح الأمصارالخ »[١]

وقد فات الجريدة ان تذكر ما اعترض ذلك الفتح العظيم في البر والبحر من العقبات الكأداء وما انتصب بوجه الترك من ابطال الأمم. كجان هونيـاد المجري ' واسكندر بك المكدوني ' واسطفان الرابع البغداني ' وميخائيل الفلاخي ' وموشنجو الاميرال البندقي ' واندريا دوريا الاميرال الاسباني . وحسبنا في ذكر المواقف التالية ' بعد ان اوردنا اسماء الابطال الذين هبت لحربهم ' دليلاً على ما كان لبأس الترك وفطرتهم الحربية من المساعدات على نجاح آل عثمان

(ا) عبور سليمان باشا بكر السلطان اورخان الدردنيل مع اربعين من الشجعان ، وسحبهم من الضفة الاوروبيـة قوارب للبيزنطيين انتقل عليهـا الجيش العثماني لاكتساح شرقي اوربة (٧٥٩هـ=١٣٥٧م)

(ب) ما اظهره جيش السلطان مراد الأول من الصبر في وقعة قوصوه حتى ظفروا بالجيوش المتحدة من الصرب والمجر والفلاخ والارناؤط التي كانت تفوقهم بكثرة العدد والعُدد (٩٥٠هـ ١٤٥٣م)

(ج) فتح القسطنطينية وما تخلله من الدهاء الحربي والشجاعة (٨٥٧هـ ١٤٥٣م)

(د) ما ابداه العثمانيون من البسالة في حرب فرديناند الأول ملك النمسا واخيه شارلكان الكبير بشأن المجر حتى اضطر بوسباك Busbek سفير النمسا ان يصرح قائلاً : « اننا لانحارب عدوا من جنسنا، وانما مصيبتنا بالتركي وهو عدو يقظ قنوع متدرب ، متصلب في الأعمال الحربية ماهر ومستعد لتحمل كل مشاق الخدمة . فبهذه الميزات انفتحت له السبل في الممالك التي دمرها ، واستخضع الدول كافة من حدود فارس حتى هدد فينا »[٢]

---

(١) الهدى الأسبوعي س ١ ع ٤١ ص ٦

(٢) Lavallée, Hre de la Turquie T.1 p. 318

على ان الترك وان فشلوا فيما بعد لما احاق بجيشهم الانكشاري من الفساد ، ولتحول القوة في العالم الى قيادة العلم ، غير انهم ما فتئوا مع ذلك يحافظون على سمعة البسالة والشهرة العسكرية . فقد قال جوليان دولاكرافيار : « للعسكري التركي فضائل كبيرة ، فهو لا يزال يستطيع ان ينال اعجاب العالم حينما يحظى بقواد معلمين وشرفاء[١] . »

ولقد صدق ظنه فان التركي الأسيوي الذي اطراه لا فلليه بقوله : « هو العثماني النقي من كل اختلاط ، هو التركي الاصلي ، وهو الكبير المحسن الوقور ابن الفاتحين ، وهو المسلم المتكبر ، والحربي المتعصب ، المملوء من الفضل والصدق والطاعة ، الشجاع السوداوي المزاج الذي توجد فيه سمة الشرف والعظمة حتى بين احط طبقات الشعب » اجل ان هذا التركي هب بعدما اصاب الدولة العثمانية من الانحلال بعد الحرب العامة (١٩١٤—١٩١٨) بهمة شماء ، هب مجيباً دعوة مصطفى كمال باشا وقدم للعالم براهين على ان بأس الترك لا تمحوه الدهور ، وان رجال الاناضول لا يزالون على ما كان عليه اجدادهم الاقدمون من تقديس القوة ، والمفاداة في سبيل الاستقلال[٢] .

---

(١) J. de la Gravière, La marine d' aujourd'hui.

(٢) للمؤلف مقال في مجلة الهلال نيسان ١٩٢٤ يلم فيه بما حصل من التطور في امبرطورية آل عثمان منذ تأسيسها حتى آل بها الامر للانقلاب الكمالي .

الجند والدربة والعدد

لاشك ان الشجاعة هي خير سلاح للكفاح ، لا سيما في الاعصر السابقة . ولكنها مع ذلك لا تستطيع ان تؤمن النصر الدائم اذا لم تقترن بميزات اخرى اهمها الدربة في الفن الحربي وافضلية العُدد .

ذلك ما تسنى جميعه الى آل عثمان في عهدهم الاول فتوطد لهم الظفر المستمر حتى حق لهم ان يلقبوا باصحاب البرين والبحرين .

. . . . . .

كان فن الحرب الذي وضع اساسه فيليب المكدوني [1] قد ترقى في عهد العرب ولا سيما في ايام الدولة العباسية : فانها كما احسنت تقسيم الأجناد وتدريبهم ، ووضع الخطط الحربية لهم على نحو ما هو جار في هذا العصر ، فقد جمعت العدد الكثير منهم [2] فقد روى ابن خلدون ان المعتصم نازل عمورية في جند عدده ٩٠٠,٠٠٠

ولما صارت السلطة في الشرق الادنى الى ملوك الاعاجم ولا سيما الترك لم يهملوا هذا الفن وعنوا بصورة خاصة باعداد المماليك الى الجندية وتنظيمهم فرقاً . وقد ظهرت الدولة العثمانية والجند الاسلامي اكثره مؤلف من هؤلاء المماليك الذين بيعوا بالاموال او وقعوا اسرى

---

(١) تاريخ جودت باشا ج ١ ص ١٣١

(٢) جرجي زيدان تاريخ التمدن الاسلامي ج ١ ص ١٢٩

او نحو ذلك [١]

وكان آل عثمان في اول امرهم هم وقبيلتهم اجناد يحاربون مع من ينضم اليهم من المتطوعة ، فلم يلبث السلطان عثمان الاول ان شعر بعدم كفاءة ذلك ، فانشأ فرقة الخيالة المسماة (اقنجي) ،ولم يكونوا يمتازون بشيء من اللباس او الطراز فيرتدي كل منهم الثوب الذي يختاره ولكنهم كانوا يتدربون على الحركات العسكرية تدرباً حسناً .

توفي عثمان بعد ان فتح معظم ولاية بورصة فخلفه عليها ابنه اورخان واتخذ اخاه علاء الدين وزيراً ، فاشار هذا على اخيه بالجند المنظم وعهدا الى جندرلي قره خليل احد زعماء الدولة بذلك ،فنظم جنداً فرض له اعطية وسماه «يايا» او «بياده» اي المشاة ،ورتبه عشرات ومئات على نحو ما كان في الدولة العباسية . ولكنه ما لبث ان خاف تمرد اولئك الجنود لاختلاف عناصرهم ، فارتأى انشاء جند الانكشارية .

وكان العثمانيون يومئذ قد ولوا وجوههم شطر العالم المسيحي ، فشرعوا يفتحون البلاد واكثر اهلها نصارى فدخل في حوزتهم جماعة من غلمانهم ،فعول قره خليل على ان يربي اولئك الغلمان تربية اسلامية ويدربهم على الفنون الحربية ، ويجعلهم جنداً دائماً لا يخشى منه التمرد . لانه لا يعرف عصبية غير الدولة ولا عملاً غير الجندية ، ولا ديناً غير الاسلام . فجندهم وسار بهم الى الحاج بكطاش شيخ طريقة البكطاشية باماسية ، فدعا لهم وسماهم «يكي جري» اي الجند الجديد وهو اصل كلمة

---

(١) الهلال م ١٧ ص ٤٥٧

الانكشارية المحرفة . وقد وضع لهم قره خليل انظمة وترتيبات لم يسبق لها مثيل حتى اذا صار الحكم للسلطان مراد الأول فانه عـدا احداثه فرقاً جديدة بين الجنود الموظفة واضافته اليها فرقتين سماهما بلوك سباه وبلوك سلحدار، فقد عني عناية خاصة بجيش الانكشارية وتنظيمه .



اغا الانكشارية وحاشيته

ويرجع الفضل الاكبر له فيما صار اليه الانكشارية منذ ذلك الحين من الشهرة حتى بلغ من جريدة الورلد النيوركية انها فضلتهم على كتائب اعظم الفاتحين .

وقد حظر عليهم السلطان مراد المومى اليه فيما وضعه من القانون لهم ان يتزوجوا وان يرسلوا لحاهم ، كما منع ان يقبل في سلكهم غير غلمان الاجانب الذين يتربون التربية الخاصة . وقد حافظ خلفاؤه كل المحافظة

على خطته. ولذلك لبث عددهم قليلاً جداً في عهد الفتح العثماني على ما أدوا للفاتحين من الخدمات الجلى ، وقد بلغ في زمن السلطان سليمان القانوني احصاء الانكشارية اثني عشر الفاً . ثم بدأ عددهم في التكاثر منذ حكم مراد الثالث لانه سمح للناس بالانخراط في سلكهم ، فبلغ عددهم في عهده سنة ١٠٠٢هـ ثمانية واربعين الفاً ، ولم يزالوا يزدادون حتى اذا ابادهم السلطان محمود الثاني سنة ١٢٤٠هـ كانوا قد بلغوا ١٤٠٠٠٠[١] وبذلك ، وقد افسدهم الخلطاء الداخلون بينهم ، صاروا وبالاً على تركيا .

ولم تتكل الدولة العثمانية في عهد فتوحاتها عليهم فقط بل كانت تعول على الفرق الاخرى التي كان الامراء والعمال يأتون بها من الولايات ويعرف كل منها باسم خاص كالتمرجية والعزب وغيرهم ويسمون (يرلي قولي) اي الجند المحلي .

ثم احدثت الدولة في حكم ييلديرم بايزيد اصول التعليم الجندي وشرعت في تحسين جيشها ، بزيادة اصناف جديدة عليه طبقاً للحاجة[٢] فلم يأت عليها حين من الدهر الا واصبحت ارقى الدول الشرقية والغربية في الفن الحربي ، حتى ان مماليك مصر الذين كانوا على جانب عظيم من الشهرة بالشجاعة والتدرب والذين يرجع لكفاءتهم الحربية اجلاء المغول لم يقووا على الوقوف امام تيارها . اما اوروبة فان فن الحرب كان قد تلاشى فيها على اثر تلاشي المدنيتين اليونانية والرومانية وامست جنودها

---

(١) الهلال م ١٧ ص ٤٦٢

(٢) تاريخ جودت باشا ج ١ ص ٣٩—٤٢

كافة من المتطوعة التي يجمعهــا اصحاب الاقطاعات . وتستثنى من ذلك امبراطورية بيزنطة اذ كان معظم جيشها خليطاً ومستأجراً .

على ان فرنسا وان سبقت سواها وقتئذ بالاقتداء بتركيا من حيث انشاء الجند الموظف ، ولكنها جاءت متأخرة العهــد ، فلم تبدأ بتنظيم جيشها البالغ ١٦ الفــاً من المشاة الرماحة وبينهم من يستعمل القوس والمقلاع و٩ آلاف من الفرسان في حكم محمد الفاتح سنة ٨٦٠ هـ = ١٤٥٦م . وفي ذلك العهد كانت الامبراطورية العثمانية قد بلغت امنيتها من المجد وبسطة الملك .

وعلى اثر فرنسا سارت بقية الدول الاوربية باعداد الجيوش الدائمة ، وشرعت تتنافس فيها ، وتساعدها النهضة التي كانت قد توطدت في الغرب . ولكن مع ذلك فان الجيش العثماني استمر على ميزته حتى في القرن السابع عشر ، وظل قدوة لأوروبة . اعتبر ذلك بقول مونتهقوقولي القائــد النمسوي في ذلك العصر قال : « اذ لم ينظم جند النمسا وفقاً لنظام الجيش العثماني الذي لا ينفك عن ممارسة الفنون الحربية والتمرن عليها تأهباً للحرب فعبثاً نحاول ان نكلفه الثبات بوجهه [1] »

. . . .

ولم يتفوق العثمانيون بتنظيم الجيوش فحسب ، بل امتازوا في صدر دولتهم بمبادرتهم لاستعمال المعدات الحربية وخصوصاً النارية منها ، فكان ذلك مساعداً لتحقيق امنيتهم في الانتصار ، ولاسيما في الديار الشرقية حيث

---

(١) تاريخ جودت باشا ص ١٣٢—١٣٤

لم يكن لها عهد وقتئذ بالاختراعات الحديثة .

ولما نشأت الدولة العثمانية ، كان قد تم اختراع الاسلحة الخفيفة النارية من نوع التفنك والطبنجة ، ولكنها لم تكن معروفة في الشرق كما كان يندر استعمالها في الغرب [١] ولذلك قد اقتصر السلاطين المؤسسون على استعمال الاسلحة القديمة . ولكنهم سرعان ما اهتموا بالمدافع ، فحينما علم مراد خداوندكار باختراعها في اوروبة بادر لطلبها ، فلم تأت لفائدة المنتظرة لانها لم تكن على انتظام كاف .

بيد انها ما لبثت ان ترقت فاصبحت ساعد الدولة الأول ، ويرجع اليها الفضل في كثير من الانتصارات العثمانية في اوروبة الشرقية وغيرها . فهي التي مهدت للسلطان مراد الثاني اجتياز برزخ كورنته بما فيه من الحصون ، واحتلاله تلك المدينة التي هي بمثابة باب المورة [٢] . وهي التي سهلت للسلطان محمد الفاتح فتح قسطنطينية ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م ثم اشقودره في حرب البندقية (٨٨٠—٨٨٤هـ=١٤٧٥—١٤٧٩م) وسواهما [٣] وهي التي ساعدت سليمان القانوني على دخول بلغراد (٩٢٨هـ=١٥٢١م) وعلى هزيمة المجر بوقعة موهاكز ١٥٢٦م [٤] تلك الهزيمة التي مهدت للجيوش التركية بلوغ اسوار فينا ، كما ان المدافع هي التي يسرت لاسطوله فتح

---

(١) قيافت عسكريه . رسملي وخريطه‌لي عثمانلي تاريخي ج ١ ص ٥٦

(٢) محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٧

(٣) Lavallée, Hre. de la Turquie T I. p. 246-249-259

(٤) Lavallée, Hre de la Turquie T. 1 p. 302

رودس ١٥٢٢م ثم بقية الجزر [١]

واما في الامصار الشرقية والعربية منها خاصة ، «فبواسطة القرابينة والمدفع الاوروبيين» كما قال فيكتور بيرار ، فتح التركي بلاد العرب واصبح السلطان خليفة [٢]»

اجل ان المدافع هي التي ساعدت ياوز سليم على الانتصار على قانصوه الغوري ملك مصر في وقعة مرج دابق وسواها [٣]، كما انها هي التي اعطته الارجحية على الشاه اسماعيل في شيلديران (٩٢٠هـ=١٥١٤م [٤])
مثلما رجحت كفة الامبراطورية العثمانية في سائر حروبها مع جيرانها .

. . . .

واما في البحر فلعدم اهتمام العثمانيين بالتجارة ، والجزر فانهم تأخروا الى ما بعد فتح قسطنطينية للتفكير بايجاد اسطول لهم .

غير ان قوة الدولة البرية ، بالاضافة الى ما قدمته لها قسطنطينية من رجال البحار الذين تجنسوا بالجنسية التركية ، كفلت لها فيما بعد بوقت قريب الحصول ايضاً على السيادة في البحر .

كانت البندقية وقتئذ من الدول البحرية العظمى ، فلما تغلب الاسطول العثماني على عمارتها البحرية في عهد السلطان بايزيد الثاني ،

---

(١) محمد فريد تاريخ الدولة العلية ص ٨٢

(٢) V. Berard La mort de Stamboul p. 93

(٣) محمد فريد تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٧٩

(٤) Jouannin & Vangaver, l'univers Turquie p. 109

وشرع يفتح كلاً من جزر الارخبيل ، والجزر الغربية اليونانية حسب لها العالم حساباً ، وخافتها اوروبة حق الخوف .

ثم لما استفحل امر الاسطول العثماني ، واصبح خطراً على كافة جزر البحر المتوسط فضلاً عن الثغور ، اجتمعت لسحقه كل من عمارات البابا ، والبندقية واسبانيا والبرتغال ، ومالطه عام ٩٤٥هـ = ١٥٤٧م ، ولكن لم تغنهم كثرتهم شيئاً ، ولا تسليمهم القيادة الى الاميرال العظيم اندريا دوريا ، عن الاندحار ، ويرجع الفضل في ذلك الى حنكة ودهاء خير الدين بارباروس اميرال البحر العثماني .

ومنذ ذلك الحين شرعت سيادة البحر تتحول الى آل عثمان حتى اصبح السلطان سليمان القانوني يلقب بحق سلطان البرين والبحرين .

دار الملك

تأثيرها مادياً وادبياً في انجاح الدولة

اذا كان الشرق الادنى بمثابة قلب الكرة الارضية ، فان البلد القائم مقام الكف ، حيث يتصافح ساعدا آسية واوروبة ، ومقام الشفاه حيث يتراشف البحران الابيض والاسود ، ذلك البلد المحصن براً بوادي الدانوب ، وجبال البلقان ، وبحراً بالبوسفور ومرمرا ، حريّ بان يعتبر سويداء ذلك القلب .

جل . ن القسطنطينية نظراً لما هي عليه من المركز الممتاز من حيث المعنويات والماديات ، فضلاً عن جمالها ومنعتها الطبيعيين ، حرية بما

قال عنها نابليون : « لو كانت الدنيا دولة واحدة لكانت القسطنطينية اصلح المدن لتكون عاصمة لها . »

مظاهرها الادبية

اذا دققنا في الغاية التي شاد اليونان لاجلها مدينـــة بيزنطة ، وفي السبب الذي اقام لاجله قسطنطين الكبير الروماني من بعد ، بلدتـــه قسطنطينية على انقاضها ، يمكننا ان نقدر ما لهذا الثغر من الاستعدادات لنشر الآراء والمعتقدات .

فقد روى المؤرخون عن سبب اختيار اليونان ذلك المكان لانشاء مدينة بيزنطة سنة ٥٦٨ق.م . انهم توخوا به نشر اللغة والمبادئ الهيلانية الى بعيد . كما انهم ذكروا في جملة ما حبب الى قسطنطين تشييـــد القسطنطينية على انقاض بيزنطة والانتقال اليها من رومة عام ٣٣٠م هو حرصه على تأييد ونشر المسيحية فضلاً عن حماية اتباعها من وثنيي الرومان

مركزها السياسي

على انه مهما كانت الغاية في تشييد القسطنطينية وما قبلها من المدن في ذلك المكان فلا شك في انها تحوم بالدرجة الاولى حول المنفعة السياسية ، وذلك ان اوروبة كانت في حروب متصلة مع الشرق . ولم يكن ثمت افضل من مركز القسطنطينية لجعلها عاصمة لملوكهـــا سواء كانوا من الاقوياء الطامعين ، او من الضعفاء المدافعين : فهي للفاتح مرابض قريبة

من آسية للهجوم : وللضعيف حصن منيع في طرف المملكة ، بل بمثابة السور الذي يكتنفها .

وهكذا كانت لكل من الرومان الشرقيين ، وخلفائهم البيزنطيين ، فضلاً عن تسهيلها لهم السيادة على البحر المتوسط الذي كان محور التمدن . وهكذا صارت من بعد للعثمانيين فمهدت لهم الاسباب ليصبحوا مدة اسياد البر والبحر . وزيادة على ذلك فان القسطنطينية سلمت الى آل عثمان مفاتيح البحر الاسود فاستولوا عليه جملة حتى صار بمثابة حوض عثماني لا اثر للاجنبي حوله ، وذلك ما حدا بغاليتزين معتمد القيصر بطرس الاكبر في الباب العالي ان يكتب عنه : « ان السلطان يعتبر البحر الاسود كداره الخاصة حيث لا يباح الدخول لاجنبي ، او كعذراء في خدرها بين حرمه . وهو يختار الحرب على السماح لمراكب الاجانب ان تمخر فيه [1] » .

موقعها الطبيعي

وليس موقعها الطبيعي ، ولاسيما من حيث الجمال والمنعة معاً ، في حاجة الى الوصف ، فمن ذا الذي لا يعلم ذلك ، ولا يعرف شيئاً عن جمال البوسفور ، ومنعة الدردنيل اما بالسمع او بالعيان . هذا وحسب القسطنطينية لتكون رائعة في جمالها ، عظيمة في منعتها ، ولو لم تتعهدها ايدي البشر ، موقعها الطبيعي . فقد سئل السلطان عبد العزيز في باريس اي البلدين

(١) Pinon, l'Europe & l'Empire Ottoman p. 171

اجمل باريس ام القسطنطينية؟ فقال « ان استامبول يمكن لها ان تصبح مثل باريس واما هذه فليس بوسعها ان تبلغ جمال عاصمة آل عثمان »

مقامها الاقتصادي

ان مركز القسطنطينية الجغرافي لأفصح من القلم في تبيان مكانتها الاقتصادية ، ولسنا في حاجة للاسهاب في هذا الشأن ، بل كفانا ان نورد ما قاله بلانشت فيها : « ان مرفأها الفخم في القرن الذهبي كان محور تجارة العالم طراً فبتماسها السهل مع كل من اوروبة ، بطريق الدانوب الواسعة ، ومن افريقية بوادي النيل والاسكندرية ، ومن آسية التي لم تكن مفصولة عنها بغير مجاز بحري ، كانت القسطنطينية مستودع الثروات وسوق كل من الشرق والغرب الكبرى[١] . »

اجل انها بالاختصار (مفتاح العالم) كما سماها بذلك النائب الافرنسي فرنان انجهران في الجلسة البرلمانية الكبرى التي عقدت للمناقشة بشأن معاهدة لوزان (٢٥ اب ١٩٢٤) وفسر ذلك مقرر تلك الجاسة بقوله : « انها كانت بمثابة الباب التي يجب ان تخرج منه الحركات التجارية العظمى الخ[٢] . »

مطامع الدول فيها[٣]

مدينة الى هذا الحد فائقة في جمالها ومقامها الحربي والادبي ، وممتازة

(١) Blanchet, Hre du moyen âge p. 83

(٢) Journal officiel de la Rep. Française A 1924 No 104 p. 3116

(٣) للمؤلف مقال مفصل في هذا الموضوع نشر في مجلة المقتطف في الجزء الرابع من المجلد ٦١ .

في مكانتها السياسية والاقتصادية ، لا بدع ان تصبح هدف مطامع الفاتحين ، ومحط آماني الطامعين .

وكان اول من حاصرها زابركان الزعيم البلغاري ، ولكن باليوز بمساعدة الاهالي استطاع ان يدفع أولئك البرابرة رغماً عن قلة الاجناد (٥٥٩م) ثم جاء لحصارها بعد جيل من ذلك خسرويه شاه الفرس (٥هـ=٦٢٦م) فتمكن هرقل من ان يجبره على الانسحاب متخلياً عن بلاد واسعة كان قد افتتحها [1] فجاء ذلك مصداقاً للآية الكريمة التي وردت تبشيراً للمسلمين حينما شمت بهم كفار العرب لانكسار اصحابهم الروم وهي « ألم غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد . »

على ان مسلمي العرب ولئن كانوا في جانب الروم ضد الفرس في الحروب التي استعرت نيرانها بينهما، الا انهم لما هبوا للفتح استوى عندهم الجميع وطمحوا الى فتح عاصمة البيزنطيين مذ احسوا بالشوق الى التوسع والتغلب .

العرب والقسطنطينية

اورد محمد بك فريد في كتاب (تاريخ الدولة العلية) ان العرب حاصروا القسطنطينية سبع مرات عددها فقال : (حاصرها معاوية في خلافة سيدنا علي سنة ٣٤ هـ (٦٥٤م) وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٤٧هـ

---

(١) Nouveau Larousse Illustré T III p. 221

(٦٦٧) في خلافة سيدنا علي ايضاً . وفي سنة ٩٧هـ (٧١٥) حاصرها مسلمة في زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز الاموي ، وحوصرت ايضاً في خلافة هشام سنة ١٢١هـ (٧٣٩)وفي المرة السابعة حاصرها احد قواد هرون الرشيد سنة ١٨٢هـ (٧٩٨) .

ويظهر لي ان في روايته سهواً لأن العرب حاصروها عام ٤٨ في خلافة معاوية ، وليس ٤٧ في خلافة علي ، لان خلافة علي استمرت منذ ٣٥ الى ٤٠ فقط . و كذلك فان حصارهم اياها في المرة الثالثة كان عام ٩٨ وفي خلافة سليمان بن عبد الملك ، وليس عام ٩٧ في خلافة عمر بن عبد العزيز. لان خلافة ابن عبد العزيز استمرت من سنة ٩٩الى سنة ١٠١ للهجرة . وفضلاً عن ذلك فان المصادر التاريخية لاتؤكد محاصرة العرب للقسطنطينية اكثر من اربع مرات كما يأتي :

اولاً : في خلافة علي ،حاصرها معاوية بن ابي سفيان [1] (٣٤هـ=٦٥٤م)

ثانياً : في خلافة معاوية ، حاصرها سفيان بن عوف (٤٨هـ=٦٦٨م) وقتل في اثناء ذلك ابو ايوب الانصاري [2] ، ودفع العرب عنها قسطنطين بو كوتا .

ثالثاً : في خلافة سليمان بن عبد الملك ، حاصرها اخوه مسلمة [3] (٩٨هـ = ٧١٧م) فانقذها قيام آل ايزوريان على عرشها

رابعاً : في خلافة المهدي ،حاصرها هرون الرشيد (١٦٥هـ=٧٨١م)

---

(١) ابن الأثير ج ٣ و Hre. de l'Empire Ottoman p. 99

(٢) ابوا الفدا ج ١ ص ١٨٦ (٣) ابن الاثير ج ٥ ص ١٢

فافتديت بسبعين الف دينار كل عام [١]

على انه مهما يكن عدد المرات التي حاصرها العرب فيها فقد لبثت محتفظة باستقلالها ، وساعد على ذلك انصراف العرب عنها بعد الامويين لاشتغال العباسيين بعمران المملكة ، والعناية بالمعارف مكتفين بما صار لهم من بسطة الملك .

الافرنج والقسطنطينية

على ان القسطنطينية الجميلة وان انصرف عنها العرب بعد ان حاولوا الاستيلاء عليها مراراً فانها لم ترتح بعد ذلك من شر الطامعين . ولما عجز الشرق عنها كر عليها الغرب .

بدأ بذلك جيرانها الروس . فاغاروا عليها في عهد ميخائيل الثالث (٢٢٨ — ٢٥٣ ه) (٨٤٢—٨٦٧ م) ولاوون السادس [٢] (٢٦٥—٢٩٩ه) (٨٧٨ — ٩١١م) ثم اعادوا الكرة عليها عام ٤٣٥ه=١٠٤٣م فلم يفلحوا اكثر من العرب [٣] في كل غزواتهم . وذكر ابو الفداء ايضاً ان الصقالبة حاصروها سنة ٢٨٣ ه (٨٩٦م) ولما لم يجد ملك الروم منهم خلاصا جمع ما عنده من اسرى المسلمين واعطاهم السلاح فكشفوهم وازاحوهم عنها [٤]

غير ان القسطنطينية التي استطاعت بالقوة ان تدفع عنها كل طامع لم تلبث فيما بعد الا قليلا حتى خضعت للغريب عن غير حرب ، وكان ذلك مصداقا لما جاء في الانجيل الكريم « كل مملكة تنقسم على نفسها تخرب »

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ٢٧ (٢) خليل مطران مرآة الايام ص ٢٧٤

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٤ (٤) ابو الفداء ص ٢٦٢

ذلك انه لما خلع الكسي الثالث اخاه اسحاق لانج عن عرش الروم استنجد هذا ببدوين دوفلاندر احد زعماء الحملة الصليبية الرابعة حين وصل الى البندقية ليجتاز منهـا الى فلسطين ، فلباه واعاده قسرا الى عرشه . ولكن موت اسحق بعد قليل اخلى ذلك العرش لبدوين فتغلب اللاتين بهذه الواسطة على عاصمة البيزنطيين واستمروا على حكمها مدة ٥٧ عاماً [١] (٦٠٤—٦٦٠هـ) (١٢٠٤—١٢٦١م). ثم لما قفلوا عنها راجعين صارت بعد قرنين من نصيب الترك .

الترك والقسطنطينية

جوهرة ثمينة متهدلة على نحر المجد شاخصة اليها الانظار، هكذا كان مثل عاصمة البيزنطيين في نظر الامم ، ولذلك فان كل دولة كانت تحس من نفسها القوة تهب لاغتيالها . ولكم حاول الطامعون ذلك عبثا ما عدا الترك فانهم لما تغلبوا على ديار الاسلام ومنوا النفس كسواهم بدار آل قسطنطين خدمهم الحظ وكانوا من الناجحين .

تحرش الترك بدار السعادة (كما سموها) منذ بسطوا نفوذهم على الشرق الادنى ، في عهد سلطنة السلجوقيين الكبرى : فان مؤسسها ارطغرل بك سيّر الشريف ناصر الدين بن اسماعيل رسولاً الى ملكة الروم فاستأذنها في الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية جماعة يوم الجمعة فاذنت له في ذلك فصلى وخطب للامام القائم العبـاسي ، وكان رسول المستنصر العبيدي

---

(١) Larousse p. 1018

صاحب مصر حاضراً ، فانكر ذلك ، وكان من اكبر الاسباب في فساد الحال بين المصريين والروم[1]

ثم كان انتصار خلفه الب ارسلان على البيزنطيين واسره امبراطورهم ارمانوس ، وتزويجه ابنه من ابنته وسيلة لبسط نفوذ الترك على القسطنطينية وتعزيز مطامعهم فيها ، ولا سيما لما هو مرعي عندهم من حقوقٍ لعائلة الزوج في ارض الزوجة[2]

ولكن لم يتم للسلجوقيين ما ارادوا لما نشب بينهم من الانشقاق العائلي ، وانما تركوا تحقيق امنيتهم هذه للعثمانيين الذين قاموا على انقاضهم وورثوا تلك الامنية في جملة ما ورثوه من املاكهم ، وتقاليدهم .

لا بل ان العثمانيين مذ كانوا امراء تحت سلطة سلجوقيي قونية ولوا وجههم شطر الامبراطورية البيزنطية .

اتخذ العثمانيون عواصم متعددة لهم ، فانتقلوا من قره حصار الى يكي شهر (٦٩٩هـ=١٢٩٩م) ثم منها الى بورصة (٧٢٦هـ=١٣٢٥م) ثم منها الى ديمتوقة[3] (٧٦٣هـ=١٣٦١م) . وكأنهم ارادوا قبل التعرض لعاصمة البيزنطيين ان يطوقوها ، فانتقلوا الى ادرنة (٧٦٣هـ=١٣٦١م) واخذوا فيها بعد يحاولون الاستيلاء عليها :

فحاصرها اولا يلديرم بايزيد عامي (٨٠٠و٨٠٣هـ) (١٣٩٧و١٤٠٠م)

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٦٦٢

(٢) L. Cahun : Int. à l'histoire. de l'Asie p. 191

(٣) سالنامهٔ ازمير

ولولا اكتساح تيمورلنك الذي صرفه عنها لقضى منها وطراً ، ولكنه عندما احاق الخطر بمملكة بايزيد عاد عنها مكتفياً بان يستوفي منها عشرة الاف سنوياً ، وان يُحق له بناء مسجد ، واقامة محكمة فيها

ثم حاصرها الامير موسى (٨٠٦هـ = ١٤٠٣م)فاستنجد امبراطورها بالسلطان جلبي محمد ، على اخيه لما كان بين الاخوين من التنازع فانجده وازاحاه عنها

ثم حاصرها مراد الثاني (٨٢٥هـ=١٤٢٢م) ولكنه لم يلبث ان انصرف عنها لعصيان اخيه مصطفى

ثم حاصرها اخيراً السلطان محمد (٨٧٥هـ=١٤٥٣م) ولقب بالفاتح اذ تم له ما لم يتم لسواه من دخولها عنوة . وانتقل السلطان محمد اليها بحاشيته ، فكانت له ولخلفائه من جملة اسباب العظمة ان في البر او في البحر .

وبالنظر لما كان عليه العثمانيون من القوة والهيبة تسنى لدار السعادة ان تسلم زمناً من تعرض الفاتحين ، ولكن ما ظهر التضعضع في تلك القوة الا وكشر لها الطامعون عن انيابهم ، ولا مشاحة فالضعف منبت الادواء .

الدول والقسطنطينية

لم تُحسد امة كما حسد العثمانيون على فتحهم عاصمة البيزنطيين ولا سيما في اوروبة : فان بسط التركي المسلم كفه على طرف اوروبة الشرقي ، واستيلاءه على المدينة التي هي بمثابة مدخل الغرب او حصنه اغلى مراجل

الحقد في نفوس الدول فعقدوا المحالفات تباعاً لدفع الغريب واجلائه .

وعبثاً حاولوا ذلك لان قوة السلطنة العثمانية في صدر ايامها حفظتها من كيدهم، كما صار التوازن السياسي فيما بعد حينما دب الخلل فيها وتمكن منها الضعف حامياً لها من بطشهم. وكان الروس اول الطامعين في الاستيلاء على القسطنطينية فانهم وقد طمحوا الى احياء عهد امبراطورية الرومان الشرقيين، توجهت ابصارهم الى عاصمة اولئك القديمة ولا سيما مذ صار امرهم الى بطرس الاكبر :

فقد طوق اسطول الروس اوروبة الغربية (١١٨٤هـ=١٧٧٠م) قاصداً الى استامبول وبعد ان دمر العمارة العثمانية واتخذ جزيرة لمنوس قاعدة لأعماله الحربية ، هب الترك لتحصين الدردنيل بادارة البارون دي توت الفرنسوي ، وحولوا المراكب الى اسطول حتى قطعوا امل لروس من النجاح ، فقفلوا راجعين.

ثم لما خف نابليون الكبير لاكتساح العالم ، فاتحدت الدول عليه ، كبُر على كل من انكلترا وروسيا ما صار لسفيره سباستياني من النفوذ لدى حكومة السلطان سليم الثالث ، ولما لم ترض تركيا ان توافقهما على اخراجه من عاصمتها اشهرتا عليها الحرب (١٢٢١هـ=١٨٠٧م) وقبل ان يتم تحصين الدردنيل عبره الاسطول الانكليزي . فبعث هذا الامر في الترك همة لا توصف ، وبمعاونة سباستياني اجبروا الاميرال دوكورث الانكليزي على الانسحاب راجعاً بخسارة مركبين خوفاً من انقطاع خط الرجعة عليه ودمار بقية الاسطول .

ثم اتى على ذلك اكثر من قرن ، ورغم ما اصاب تركيا في اثنائه من التضعضع ، لم يتعرض احد لعاصمتهم . ويرجع الفضل الاكبر في تحصين البواغيز الى عبد الحميد الثاني الذي كان يعتبر هذا التحصين من جملة الوسائل للمحافظة على نفسه .

على ان ايطاليا وان تعرضت عام ١٣٣٠هـ=١٩١٢م للدردنيل فضربت قلعتي كوم قلعة وسد البحر ، الا انها لم تكن في الحقيقة تريد الا التهويل كما فعلت اليونان من بعد في حرب الكماليين : ذلك انها رزحت تحت اثقال الحرب الطرابلسية كما رزح اليونان بعدهم تحت اعباء القتال مع انقرة ، فعجل كلاهما على تهديد عاصمة الترك ضغطاً عليهم ، ودفعاً للدول على انهاء مشكلة الحرب .

اما ايطاليا فكانت تعلم حق العلم مقدار قواتها البحرية ازاء الدردنيل ، وقد تأكدت من ذلك حين تراجعت عنه اساطيل الحلفاء المتحدة في اثناء الحرب العامة . واما اليونان ، فبعد ان نزع الحلفاء اسلحة المعاقل فانها لبثت تعرف بان هناك قوة اعظم من تركيا تدفعهم عن عاصمتها الفتانة ، الا وهي قوة التوازن السياسي . وان تلك القوة لم تمنع اليونان فقط عن القسطنطينية ، بل حفظتها من اعظم الدول الحاضرة بأساً ، وهي انكلترا .

فائدة القسطنطينية للعثمانية

لم يكن الترك قوماً تجاراً ، ولا اصحاب عناية بنشر التعاليم والتمدين

لذلك اذا ما بحثنا عن استفادتهم من استانبول فانا نقتصر على ما كان منها من حيث السياسة والفتح .

فقد امنت القسطنطينية للعثمانيين معسكراً وسطاً بين القارات الثلاث اوروبة وآسية وافريقية ، ساعدهم على امتداد الفتح بسهولة. فتسنى لهم محاصرة فينا ثلاث مرات . وعدا ذلك فقد خلقت القسطنطينية لآل عثمان مقاماً بحرياً بعد ان لم يكن لهم باخرة ، فباشروا مذ نقلوا عاصمتهم اليها بناء الاساطيل .

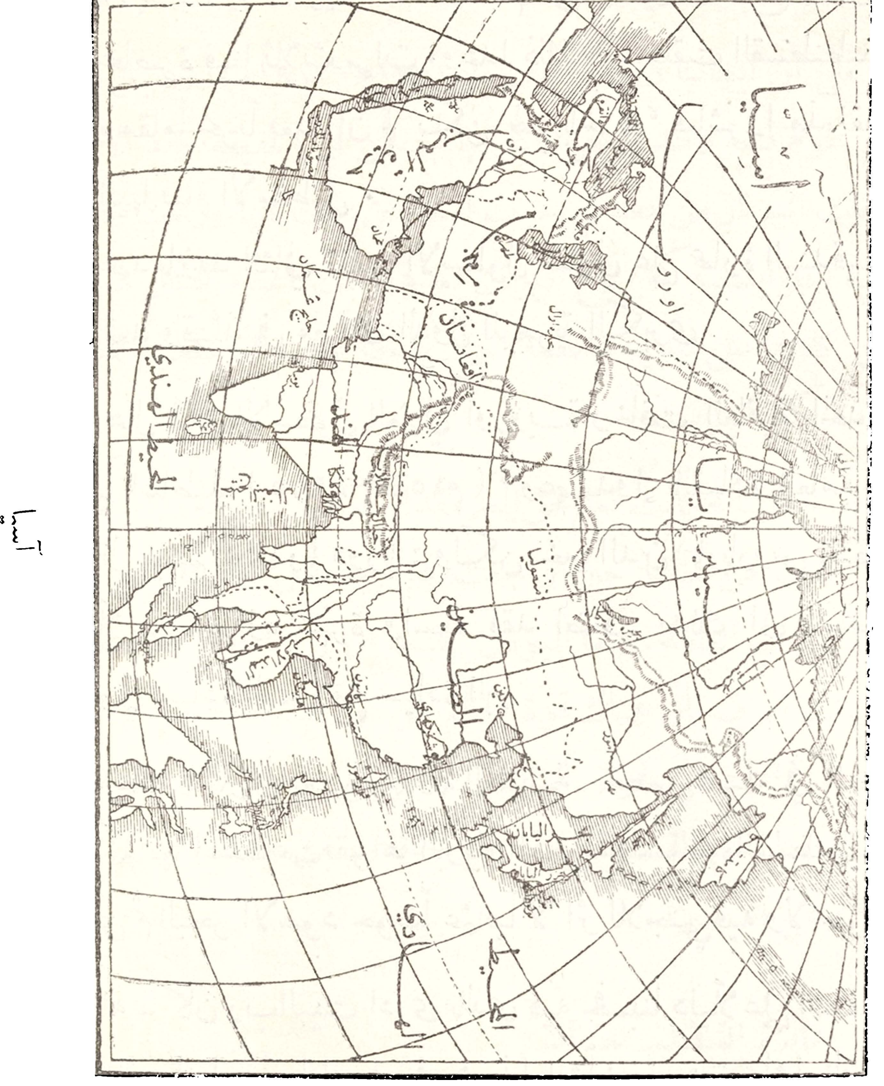
ففي عهد بايزيد الثاني تغلب الاسطول العثماني على عمارة البندقية التي كانت تعد وقتئذ في مصاف الدول البحرية الكبرى

ثم لما هال شأن الاسطول العثماني اوروبة وخافت العاقبة اتحدت عليه معظم اساطيلها (٩٤٥هـ=١٥٤٧م) ، وعهدوا بالقيادة العامة الى اعظم اميرال بينهم : اندريا دوريا : ولكن خير الدين بارباروس انتصر عليه وفضلاً عن احرازه شهرة واسعة فقد اضاف بذلك الى السلطان سليمان القانوني سيادة البحر مع سيادة البر

ومنذ ذلك الحين لم يعد للدولة العثمانية خصم عنيد في البحر المتوسط ، كما انها استطاعت بقواها البرية والبحرية وبمساعدة القسطنطينية ان تجعل من ثم البحر الاسود حوضاً عثمانياً لا اثر للاجنبي فيه ولا حول.

على انه لما كان رب البيت ادرى بالذي فيه فحسبنا دليلاً على استفادة تركيا من القسطنطينية ما اورده في هذا الشأن جودت باشا الوزير المؤلف فقد قال : « لما فتحت الدولة العلية الاستانة ، واستقر لها المقام

فيها بلغت سطوتها درجة الكمال ، واستكملت الغلبة على سائر دول اوروبــة في مدة يسيرة . ولو لم يساعدها القدر على فتح القسطنطينية لما استطاعت ان تبلغ هذه القوة والاقتدار [١] . »



(١) تاريخ جودت باشا ج ١ ص ٤٢

٥

ما الذي ساعد على فلاح العثمانية

« في آسية وافريقية »

يبحث هذا الجزء فيما حصل لآل عثمان من العوامل الخارجية التي ساعدت على نجاحهم في آسية وافريقية

فهرست الجزء الرابع

الجزء الخامس

نشأت تركيا في طرف آسية ، ولما اتيح لها ان تجعل مدينة قسطنطين دار ملكها ، تيسر لها ، لمناسبات زمانية ومكانية ، ان تبسط يديها على كل من العالم الارثوذكسي في اوروبة ، وعلى معظم العالم الاسلامي في آسية وافريقية ، فضلاً عن بعض الامصار الكاثوليكية . وسنقصر بحثنا في هذا الجزء على ما اعان آل عثمان من تلك المناسبات والمساعدات ان في آسية وان في افريقية حتى تمكنوا من مد فتوحاتهم فيهما والتسيطر على معظم اقسامهما

المساعدات الاسيوية

« التي عملت على انجاح آل عثمان »

بينا فيما تقدم ما كانت عليه الممالك الاسلامية في القرن السابع الهجري من الانحلال بسبب الفتن الداخلية التي عمتها ، والاكتساحات الخارجية التي استنزفت معين قوتها ، وكيف لاشى اكتساح المغول كل حكومة فيها تقريباً . ولذلك فان دولة سلاجقة قونية مالفظت انفاسها ، الا وتركت مجالاً واسعاً لقيام دولة في العالم الاسلامي المتشتت ، جمعت اليها القوة والسلطان .

انحلت سلطنة السلاجقة في الاناضول (٦٩٩هـ=١٣٠٠م) فقام على على انقاضها عدة امارات منها امارة آل عثمان في اسكود ، واسكي شهر

وقره حصار وخرمنجك وبيلهجك في اواسط آسية الصغرى.

وكان يحيط بهذه الامارة عدا الحكومات التي خلفت سلطنة قونية، مملكة الروم التكفوريين وطرابزون شمالاً ، وامارة سيواس شرقاً ، ودولة الارمن الصغرى في كيليكيا جنوباً . ثم يليهن في الجانب الشرقي دولة المغول، وفي الجانب الجنوبي دولة المماليك البحرية حاكمة سورية.

فلايضاح ما كان لتركيا من المساعدات الزمنية والمكانية في آسية نورد خلاصة عن احوال تلك الحكومات ، ونستثني منها دولة المماليك: لان البحث عنهم سيأتي في جملة الكلام عن ممالك افريقية .

خليفات دولة قونية

تقاص ظل دولة قونية ، المعروفة بسلاجقة الروم ، في اواخر ايامها ، حتى انحصر في الاناضول ، ولكنها مع ذلك لبثت منبسطة الحدود فيه ، ولا يشاركها في ارضه الخصبة الا البيزنطيون في الشمال ، والارمن في الشرق والجنوب .

ولما قضي عليها بالانحلال تجزأت مملكتها الى امارات متعددة[1] نجمعها في جدول بحسب مقامها الجغرافي من العثمانية لتبيين الوضعية السياسية وقتئذ :

---

(١) من اراد التفصيل عن هذه الامارات فليرجع الى كتاب طوائف الملوك لمؤلفه توحيد بك

اسم الامارة	قاعدتها	اميرها	موقعها من العثمانية
قرەسي	باليكسر	عجلان بك	الشمال الغربي
صاروخان	مغنيسيا		الغرب الجنوبي
اياسلوغ (ايدين)	ازمير	آل آيدين	الغرب الجنوبي
منتشا	منتشا		الغرب الجنوبي
تكة	انطالية		الجنوب
حميد ايلي	يكيشهر	آل حميد	الجنوب
كرميان	كوتاهية	آل كرميان	الغرب
قرمان	قونية	محمود آل قردمان	الشرق الجنوبي
قسطمونى	قسطموني	آل اسنفديار	الشرق الشمالي
جمهورية انقرة	انقرة	اخيلر	الشرق
جانيك	جانيك		الشرق

ولم يتحرش آل عثمان بالحكومات الاسلامية المجاورة لهم في اول الامر وانما استمروا على نهجهم في عهد السلاجقة من مواصلة الفتح في بلاد الروم التكفوريين التابعين للامبراطورية البيزنطية حيث كانت في شمال آسيا الصغرى

غير ان وقوع امارة قرەسي في طريقهم ، ونشوب الخلاف بعد عجلان بك اميرها بين ولديه على الامارة جعلاها عرضة لطمع السلطان اورخان باملاكهم فالحقها بسلطنته سنة ٧٣٦هـ = ١٣٣٦م [١]

ثم قضت سنة تنازع البقاء على آل عثمان بالخلاف بينهم وبين جيرانهم ، ومن حسن حظهم انه كان على امارة القرمان ، وهي اشد

(١) محمد فريد بك الدولة العلية العثمانية ص ٤٣

الحكومات المجاورة خطراً عليهم ، امير مراهق اسمه محمود خلفه والده يخشي وهو على ميل تام للسكون والراحة فتسنى في اثناء ذلك للسلطنة العثمانية ان تترعرع وتتقوى حتى اذا صارت امارة قرهمان في قونية الى علاء الدين ، ذلك الرجل الطامح لان يخلف وحده دون غيره السلجوقيين في الاناضول [1] ، كانت الفرصة قد فاتت وصار آل عثمان اشد منه بأساً فخبطت امانيه واخفقت مساعيه

فان مراد خداوندكار لما علم بتآمر كل من اميري قونيه وانقره عليه ، اراد قبل ان يباشر فتح ادرنة ان يكتفي شر جيرانه ، فخف اليهما بقوة لا قبل لهما بها واستولى على انقرة وعلى جملة حصون في جوارها (٧٦٢هـ =١٣٦٠م) وحباً في تعزيز عصبيته زوج ولده بايزيد من ابنة امير كرميان ، فكان له بذلك مدينة كوتاهية على سبيل المهر ، كما صار له فيما بعد وسيلة لالحاق هذه الامارة وامارة آل حميد بسلطنته من غير حرب ، فاصبحت حدود مملكته متصلة بحدود آل قرمان

وقد اثار هذا الاتصال مخاوف القرمانيين وجعلهم يفكرون في درء الخطر العثماني عنهم قبل استفحاله واغتنموا فرصة اشتباك السلطان مراد في حروب الروم ايلي فاغار اميرهم علي بك ، باغراء ملك البوسنة ، على البلاد العثمانية ، ولكنه اندحر اندحاراً شديداً في معركة بجوار قونية اكسبت الامير بايزيد لقب يلديرم اي الصاعقة [2]

---

(١) احمد راسم رسملي وخريطه لي تاريخ عثماني ج١ ص ٦٥

(٢) احمد راسم رسملي وخريطه لي تاريخ عثماني ج١ ص ٦١-٨١

ولما صار الملك الى الامير بايزيد المذكور بعد والده مراد (٧٩١هـ = ١٣٨٨م) وامعن في الفتوحات باوروبة الشرقيــة خافه جيرانه وشرعوا يتخلون طوعاً له عن املاكهم. وممن فعل ذلك امراء ايـدين ومنتشا وصاروخان، واضطر امير القرمان ان يحذو حذوهم فتخلى عن قسم من مملكته رغبة في الاحتفاظ بالباقي.

وما كان ذلك الامير ليحفظ عهداً: فلما ابصر السلطان مشتغلاً في حرب دولة الفلاخ (رومانيا) حاول ان يسترد بالقوة مـا تنازل عنه من بلاده، فكانت عاقبة ذلك انقراض دولته واسره

ولما تم لبايزيد ما طمح اليه بتلاشي حكومـة قونية، تحول الى امارة سيواس وتوقات، فضمها اليــه ايضاً رغم ما ابداه اميرها الغازي برهان الدين من المقاومة.

وهكذا لم يبق من الامارات التي قامت على انقـاض الروم السلجوقيين غير حكومة قسطموني، ولما لم يذعن اميرها ويسلم للسلطان اولاد امراء آيدين وصاروخان الذين احتموا به، كان للسلطان بايزيد حجة عليه، فاستولى على بلاده. وبذلك تم للعثمانيين الاستيلاء الـتام على الاناضول وصفا لهم الامر الى حين: فان احتماء امير قسطموني بتيمورلنك خان المغول، والتجاء احمد جلاير صاحب بغداد الى ييلديرم بايزيد عدا اسباب اخرى ادت الى الحرب بين العاهلين، ولما تمت الغلبة لتيمورلنك وبسط سلطانه على الاناضول، اعاد امراء قسطموني وصاروخان وكرميان ومنتشا وقرهمان الى ممالكهم، فتلاشى سريعاً ما فعله العثمانيون في زمن.

غير ان القوة المعنوية كانت قد وهنت في نفوس اولئك الامراء ، فما استتب الامر للسلطان العثماني محمد جابي حتى قهر كلاً من امير القرمان ، وقره جنيد ، حاكم ازمير . ثم في عهد مراد الثاني تخلى له امير قسطموني عن نصف املاكه ، كما استعاد مراد بلاد ايدين وصاروخان ومنتشا وقره مان وكرميان . ثم الحق السلطان محمد الفاتح بمملكته بقية بلاد قرمان ، واخذ مدينة سينوب من آل اسفنديار ، وفتح مملكة طرابزون البيزنطية (٨٦٦هـ = ١٤٦١م) فعاد العثمانيون للانفراد بحكم آسية الصغرى .

الامراء التكفوريون

كان امراء الروم التكفوريين في بورصة وازميد وازنيق وما بينها من البلاد يؤلفون امارة طرابزون ، البقية الباقية من سيادة الامبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى

فلما قامت امارة آل عثمان ، في عهد السلجوقيين ، على حدود الروم التكفوريين ، اتخذت غزوهم قاعدة لاعمالها . ويظهر ان ثواب الجهاد كان الدافع لها على ذلك فضلا عن الرغبة بالتوسع في الملك .

فان السلطان عثمان الاول ارسل يخير امراء التكفوريين بين ثلاثة : الاسلام . ام الجزية . ام الحرب ، فأسلم فريق منهم وانضم اليه ، ورضي فريق بدفع الخراج ، واما الباقون فقد استعانوا عليه بالمغول فلم يجدهم ذلك نفعاً فهزمهم السلطان عثمان معاً واستولى علي بورصة وما حولها من

القلاع[1] (٧١٧ هـ = ١٣١٧ م) فضلا عن فتحه قره حصار واينه كول ويار حصار[2]

ومع ذلك فان الامراء التكفوريين استمروا رغم الخطر العثماني على ما كانت عليه امهم الامبراطورية البيزنطية من الغفلة ، ولا بدع فان الامم اذا شاخت لا تفيدها العبر . فلما صار الامر لاورخان اكمل ما بدأ به ابوه من الفتح في ديارهم مغتنماً فرصة الحرب بين الامبراطورية البيزنطية والسرب . وما قدر التكفوريون على الاحتفاظ فيما عدا مدينة ألاشهر (فلادلفيا) ، فقد بقيت وحدها بيدهم الى حكم ييلديرم بايزيد فاستولى عليها وقرض سلطان الروم في الاناضول الشمالي وطوق الترك القسطنطينية

اما امارة طرابزون البيزنطية فقد احتفظت باستقلالها الى بعيد فتح قسطنطينية . ولكنها ما لبثت ان استسلمت الى العثمانيين قبل ان تبلغها جنود محمد الفاتح

دولة الارمن الصغرى

كان للارمن دولة كبرى تمتد ما بين بحري الخزر والاسود الى البحر المتوسط جنوباً ، ولما قضى عليها اكتساح البيزنطيين والسلجوقيين انشأ الارمن الذين التجأوا الى جبال طوروس واطنة في كيليكيا حكومة دخلت تحت حماية البابا وامبراطورية المانيا (٥٩٥ هـ = ١١٩٨م)

---

(١) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤١

(٢) Lavallée, Hte. de la Turquie. T I p. 183-184

تولى الحكم فيها ثلاث عائـلات (١) روبانيان Roupéniens (٢) وأوتوميان Hétommiens(٣) ولوزينيان Lusignans واتخذت مدينة سيس عاصمة لهـا

ولما استظهر المسلمون على الصليبيين ادى لهم الارمن الجزيـة الى ان تغلب التتر (المغول) على المسلمين فدخلوا في طاعتهم واجلبوا معهم في غزواتهم الى الشام [١] وكان ذلك من جملة الاسباب لـتأصل العداوة بينهم وبين المماليك حكام مصر وسورية

ولهذا السبب لما تراجع المغول عن سوريا خف المماليك للانتقام من الارمن واستمروا يغزونهم في عقر ديارهم الى ان تمكنوا من الاستيلاء عليها فانقرضت الدولة الارمنية (٧٧٦ هـ = ١٣٧٤م)

جرت هذه الحوادث بينما كانت دولة آل عثمان الفتية تنمو وتترعرع لذلك لم يقم من الارمن اي حاجز دون ارتقائها ويمكن ان يقـال ان دولة الارمن ساعدت على اشتداد امر آل عثمان من حيث انهـا كانت حمى لهم في عهد طفولتهم من مماليك مصر الاشداء

المغول في العصر المغولي التركي

بينا في الكلام على العصر المغولي [٢] ما حدث بعد موت جنكيز في تلك الامبراطورية وذكرنا اسماء من خلفه على عرشها وكيف آل امرها الى التجزؤ بين اهله الى خمس دول متشاكسة

وقد صار اشهر هذه الدول حكومة بني دوشي في شمال القوقاس

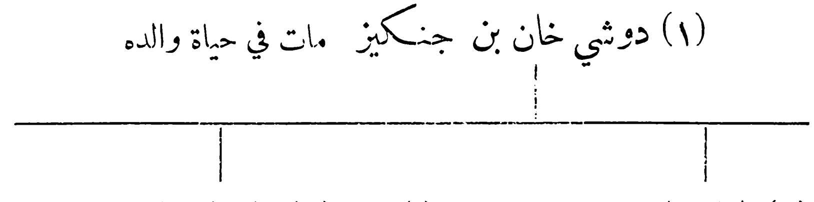
(١) زيني دحلان الفتوحات الاسلامية ج ٢ ص ٤٥

(٢) يراجع ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب

وخوارزم وروسياوبلغاريا، وحكومة بني هولاكو من سبطه في العراقين وخراسان. وانا نخصص الكلام عليهما هنا تتمة لتاريخ المغول ليس لشهرتهما فحسب، بل لانهما عاصرتا عهد الفتح العثماني الاول ليتضح لنا كيف ان المغول الذين كانوا الخطر المحيق بالعالم الاسلامي وفي شرق اوروبا ما وقفوا دون ارتقاء آل عثمان . وعملاً بالاختصار نضع جدولين في اسماء الخانات الذين تعاقبوا على عرشيهما مع خلاصة اخبارهم ثم نورد على اثرهما الملاحظات التي تتعلق بهذا البحث [١]

دولة دوشي خان
١

عاصمتها صراي على نهر الفولغا في روسيا



(١) نستند في وضع هذين الجدولين على اهم المراجع التاريخية ولا سيما على تاريخ ابن خلدون

(٢) اكتسح باطو خان من سنة ١٢٣٧ م الى سنة ١٢٤١ كلاً من روسيا والمانيا الشرقية وبولونيا وسيليسيا ومورافيا والسكس والمجر ودلماسيا وانتصر بقيادة سوبطاي القائد الشهير على جنود اوروبا المتحدة ولبث يتقدم في اوروبا حتى بلغ اواسطها مابين جبال بوهيميا وبين البحر الادرياتيكي فدخلت بذلك النمسا في حكمه . ولولا موت الخان اوقطاي وطمع باطو بالحصول على مقامه لما رجع المغول عن اوروبا

طغان

(٤) بركة خان اسلم وحمل قومه على الاسلام واقام المساجد والمدارس وقرب العلماء اليه وحارب مع هولاكو ٦٦٠ ه ومات ٦٦٥ ه

لم يملك

(٥) منكوتمر زحف سنة ٦٧٠ ه على القسطنطينية فلقيه صاحبها طائعاً ثم زحف على الشام في مظاهرة ابغا بن هولاكو فردهما السلطان منصور قلاوون خائبين

(٦) توان تزهد وترك العرش بعد خمس سنين ٦٨٥ه

(٧) قلابغا اجمع على غزو بلاد الكرك واستنفر ابن عم له حاكم قسم من بلاد شمال آسيا واسمه نوغينه فداهمهما الشتاء فعاداعنها ثم تنافرا فتقاتلا

(٨) طغاطاي استمر على قتال نوغنيه الى ان قتله سنة ٦٩٩ ه ومات ٧١٢ ه

طغرلجاي لم يملك

(٩) ازبك اسلم واتخذ مسجداً للصلاة وحصلت بينه وبين ابي سعيد من آل هولاكو في العراق فتنة فغزاه وملك قسماً من بلاد ابي سعيد

(١٠) جاني بك كان الشيخ ابو سعيد المومى اليه قد هلك وانقسمت البلاد على عهد خلفه الشيخ حسن فارسل جاني بك العساكر الى خراسان وملكها

(٧٥٨هـ) ثم الى اذربيجان فاستولى عليها واعتل وهو راجع فمات في الطريق

(١١) بردبيك مات بعد ثلاث سنين من ولايته

(١٢) طغطمش تولى صغيراً فتغلب على المملكة صهره ماماي (٧٧٦هـ) ففر طغطمش الى تيمورلنك صاحب سمرقند فامده بالمساعدة التي استعاد بها ملك ابائه ثم اقبل تيمورلنك لمحاربته فقتله واستولى على كل اعماله سنة ٧٩٧هـ فانقرضت بذلك دولتهم

دولة هولاكو
٢

(١) هولاكو مات سنة ٦٦٢هـ

(٢) ابغا حارب بركة خان صاحب الشمال فانهزم ابغا وكذلك كان حظه في حصار الرحبة حيث هزمه الظاهر بيبرس ومات سنة ٦٨١هـ—١٢٨٢م

طوغاي لم يملك

(٣) تكدار اسلم وتسمى احمد وتحارب مع اخيه البكر ارغو على العرش فاسره وقتل ١٢ اميراً من قومه ٦٨٣ هـ فاستوحش لذلك اهل معسكره وقتلوه وقيل قتلوه لاسلامه ولانحيازه لابناء دينه على ان اسلامه كان مما ساعد على القاء الخصام بين آل هولاكو

(٥) كتخاتو كان متسامحاً مقرباً اهل الاديان على السواء الا انه اساء السيرة وانتهك الحرمات فقتلوه سنة ٦٩٣ هـ

(٤) ارغو وقيل ارغون عدل عن الاسلام وقرب كهنة الهند وعاد لخطة اجداده فحاول الاتفاق مع ملوك اوروبا على المسلمين

ومـات من دواء
وصفه له احدهم
سنة ٦٩٠ هـ

(٦) بيدو لم يستتب له الملك طويلًا بل
قاتله على العرش قازان بن ارغو
ومالأَ عليه الامراء فقتل سنة ٦٩٥ هـ

(٧) غازان عاد للاسلام مع انه تربى
تربية بوذية صينية وسمي محمودًا وكانت
الفتن بينه وبين ملوك الشام وعاش في نواحي
دمشق وحمص وخدم آل عثمان في القضاء
على دولة سلاجقة الروم الذين قاموا على
انقاضها . مات سنة ٧٠٢

(٨) خدابنده (او خربند) وكان قد تعمد
نصرانياً في صغره ثم اسلم وسمي محمدًا
وتلقب بغياث الدين ' وصحب اهل الشيعة
وانشأ مدينة بين قزوين وهمذان سماهـا
السلطانية وجعل فيها بيتاً بلبن من الفضة
والذهب لاقامته ' وامامه بستان اشجاره
من ذهب وثمره لؤلؤ وحجاره كريمـة '
واجرى اللبن والعسل انهارًا واسكن فيه
الجواري والغلمان تشبيهاً له بالجنة ' وافحش
في التعرض لحرم قومه ثم هلك سنة ٧١٦ هـ

(٩) ابو سعيد خلف اباه وهو ابن ١٣ سنـة فطمع به ابناء عمه ولا سيما سيول
وازبك من آل دوشى خان فتغلب ابو سعيد عليهما . ثم توثقت اسباب المواصلة بينه
وبين الملك الناصر قلاوون صاحب مصر بالمصاهرة والمهاداة وتوفي ابو سعيد سنة ٧٣٦هـ
ولم يخلف عقباً فاختلف اهل دولته على امر الملك . فانقرض بذلك الملك من بني هولاكو

يرى القارئ الكريم من التدقيق في هذين الجدولين المارين كيف ان امر المغول صار الى الانحلال في القرن الثامن الهجري حينما نشأت السلطنة العثمانية واشتد شأنها[1]، فان التنازع فيما بين بني دوشي وبني هولاكو كان مستمراً حتى لم يسمح لهم بالتفكير في سواهم فضلاً عن ان دخولهم في الدين الاسلامي كان قد قربهم من الحضارة وألان جانب جوارهم .

دولة بني دوشي : تعاقب على عرشها في القرن الثامن خمسة خانات ما فتئوا يتقاتلون مع بني عمهم ولا سيما آل هولاكو فقضى طغطاي الى سنة ٦٩٩هـ يقاتل نوغينه ولما خلفه ازبك حدثت خصومة بينه وبين ابي سعيد من آل هولاكو ' ثم كان على جاني بك ان يكتسب فرصة ماحدث بعد هلاك ابي سعيد من الانشقاق في دولته ليستولي على بلاده حتى اذا ما صار عرشهم الى طغطمش وهو صغير طمع به صهره فكان ذلك وسيلة لتدخل تيمورلنك الذي اعاد طغطمش الى العرش ليعود اليه بعد حين ويستبد بكل مملكته

دولتا بني هولاكو وآل الشيخ حسن : اشرنا في البحث عن تأثير المغول على استقلال آل عثمان الى ما كان لدولة هولاكو من الخدمات للعثمانيين في قضاء غازان احد خاناتها على دولة الروم السلاجقة مما يسر لعثمان ان يعلن استقلاله .

وكان غازان خان هذا على غير خطة عمه احمد خان من حيث مراعاة جانب الجامعة الدينية في السياسة . فانه لم يحجم عن مقاتلة ملوك الاسلام ولو طال حكمه لكان اضر بآل عثمان

وكان من حسن حظهم ان خلفه خدابنده ذلك الفاسق المنهمك بالملذات في جنته فدس له قومه السم تضجراً من فحشه ٧١٦هـ وولوا ابنه ابا سعيد وهو صغير فطمع به

---

(١) تاسست الدولة العثمانية سنة ٦٩٩ هـ وعظم شأنها في مدة قرن الى ان لاشاها حيناً تيمورلنك سنة ٨٠٤ كما لاشى سائر الممالك المغولية

الطامعون ثم مات عن غير عقب فانفرط عقد الدولة وقام على انقاضها امارات في خراسان والعراق وفارس واذربيجان وبلاد الروم[1] اشهرها دولة الشيخ حسن في بغداد وتبريز ولكنها كانت قصيرة العمر لما حدث بين اولاد الشيخ حسن من التخاصم فجاء تيمورلنك وبسط سلطانه على انحائها[2]

لذلك لم يقم في القرن الثامن الهجري من المغول الجنكيزيين حائل دون رقي الامبرطورية العثمانية على ما كانوا عليه من الخطر الشديد على سلامتها .

ولكن العثمانيين ولئن تسنى لهم ان يشبوا ويترعرعوا في هذا القرن حتى حسبت لهم اوروبا حساباً الا انهم لم يسلموا في اواخر ذلك القرن من اذى امبرطورية ثانية انشأها المغول وهي امبرطورية تيمورلنك التي لا يزال صدى اكتساحاتها يرن في الاذان والتي طمست على سلطنة آل عثمان حيناً من الزمن .

امبرطورية تيمورلنك

استحكم الضعف في القرن الثامن الهجري من دولة جاكاطاي صاحبة سمرقند احدى فروع الامبرطورية الجنكيزية وصار النفوذ فيما بين النهرين للعائلات التركية الشريفة وخصوصاً لآل بارلاس وارلاد وجيلار : وقويت شوكتها لما اتيح لها ان تدفع حسين كرت صاحب الدولة الحديثة الفارسية في خراسان عن بلادها بما بذلته من المساعدة للامير

---

(١) احمد زيني دحلان الفتوحات الاسلامية ج٢ ص٣٦ — ٣٧
(٢) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٥٧

خان وزير دولة جاكاطاي سنة ١٣٣٣م

وفي ذلك العام ولد هناك لآل كورين احدى العائلات الفقيرة المنتسبة الى آل بارلاس الشرفاء ولد سمي تيمور في قرية خوجه ايلغار من اعمال كش .

ثم مضى على ذلك ربع قرن استقل في اثنائه الوزير غز خان الذي مر ذكره فيما بين النهرين محتفظاً بسيادة الجاكاطائيين الاسمية ولفت نظره في المعارك شجاعة شاب فائقة هو تيمور فقربه اليه وزوجه من ابنته .

فاكتسب تيمور بذلك عصبية جديدة حتى اذا ما مات هذا الامير وكان والد تيمور طره كاي وهو شيخ عشيرته قد توفي ايضاً نادى به اهله واهل زوجه رئيساً عليهم ووافقتهم على ذلك سائر البيوتات فصار تيمور حاكم بلاد ما بين النهرين تحت سلطة طغلك صاحب فرغانة .

ومنذ ذلك الحين بدأت مطامحه بالظهور فخافه جيرانه من الخانات والعواهل ونشبت بينه وبين صاحب فرغانة ، وخان جاكاطاي الكبير والبيوتات المتنفذة حروب دامية كما اشتبك بالقتال مع ايرانيي خراسان وما يليها تأميناً للحدود.واصيب تيمور في اثنائها بفخذه فلقب تيمورلنك اي تيمور الاعرج .

وكان نصيره الاعظم في تلك الحروب ابن حميه الامير حسين لذلك كان على تيمور ان يقاسمه الغنيمة فتخلى له عن السواد الاعظم من بلاد ما بين النهرين محتفظاً لنفسه بمدينة كش وما يليها مع الجانب الذي

فتحه بسيفه من دولة خراسان .

ولم تقم الفتن بعد ذلك بين تيمور وابن حميه جاره الا ليسترد تيمور ما تخلى له عنه ويجمع كل تلك الامصار الى حكمه المفرد يحكمها باسم خان جاكاطاي اسمياً[1] .

فتعدت مطامح تيمور منطقة تركستان وفكر في ان يمثل دور جنكيز على ان يستعين بالسياسة مع السيف فأحسن تمثيل الدور الذي لم يتوفق له سلفه بما فيه من دهاء .

كان الاسلام قد توطدت دعائمه في آسيا من حدود الصين والهند الى البحر المتوسط وكان الترك في بدء عهد اعتناق هذا الدين شديدي التحمس له والتمسك به . فلكي يفتح تيمور القلوب قبل فتحه المعاقل عول على التظاهر بالتمسك بالشريعة والباس حروبه لباس نشر الاسلام في البلاد التي لاتدين به وتأييده في سواها . وقد فعل . فساعده ذلك كل المساعدة لتعلق العلماء به ونشرهم بين الناس مآثره فسهلوا له الظفر اسوة بما تفعله بعض الرهبنات في الشرق في تمهيد سبل الاستعمار .

ولا نتعرض لسرد فتوحاته لئلا يمتد بنا البحث لكثرتها وحسبنا ان نقول ان تيمور انشأ امبراطورية عظمى على انقاض الامبراطورية الجنكيزية بعد ان لاشى آثارها فاستولى على البلاد التي كانت تفرعاتها من شرق اوروبا الى مقربة من الصين ومنها الى الهند بما فيها آسيا الصغرى والعراقين وفارس والشام وما يليها كافة وبسط سلطانه عليها .

---

(١) L. cahun: Int. à l'hist. de l'Asie p.480-499

وفي اثناء ذلك كان لا ينفك عن التظاهر بخدمة الشريعة الاسلامية والعمل على نشرها، فلما بلغ بلاد الكرج النصارى واسر ملكها بكراديوس الخامس حمله على الاسلام ثم كر عليهم كرة اخرى في بدء القرن الرابع عشر للميلاد وارغمهم على اعتناق الاسلام[١].

وكذلك فعل بين الكرتين في الهند. فلما تمهدت له سبلها اراد ان يتمثل بالسلطان الغزنوي فاكتسحها سنة ١٣٩٨م بدعوى انه يريد ابادة عبادة الاوثان فوصل الى شواطئ نهر السند ودانت له البلاد بعد مذابح كثيرة لم يسلم منها المسلمون في دلهي حيث كان يحكم الغوريون

تيمورلنك والخلافة وآل عثمان[٢]

تكللت كل حملات تيمورلنك بالنجاح فرفع رأسه ورأى بين ما رأى من اتساع الملك ونفوذ الكلمة شدة تعلق اهل الدين به ولاسيما العلماء فالتفت الى الخلافة وهي المرتبة الاخيرة بعد مرتبته فالفاها ذاوية ذابلة بعد ان تلاشت خلافة بغداد فراودته نفسه على ان يستخلصها لشخصه[٣]

تلك امنية لم يطمح اليها احد قبله من الاعاجم، هي صعبة ولكنها تتيسر اذا ذللت امامها العقبات ولم يبق لدولة اسلامية غير امبراطوريته

---

(١) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٢٩٦ — ٢٩٧

(٢) للمؤلف مقال عنوانه اول من طلب الخلافة من الاعاجم نشر في مجلة الهلال ١٩٢٥ وفي به البحث عن تيمور ومطامعه

(٣) L.Cahun: Int. à l'hist. de l,Asie p.497

قوة تجتمع حولها قوى الاسلام اذا حاول ارتكاب هذه البدعة . وبما ان سلطنة آل عثمان كانت قد بلغت من القوة ما جعلها في مصاف دول العصر الاولى ، كان عليه ان يضعها في قبضته ليخلو له الجو ولتتمهد لغايته السبل

تيمور ودول الغرب

لم تنته علائق الوداد التي كانت بين المغول واوروبا بانتهاء الحروب الصليبية ، وانما استمرت على حالها بعد اسلام المغول ، ودامت المواصلات بين فرنسا والبابا وبين خلفاء هولاكو خاصة . ولما خلفهم تيمور كان الخطر العثماني قد احدق باوروبا الشرقية وطوق القسطنطينية فغصت اوروبا كافة والامبراطورية البزنطية خاصة لنجاح آل عثمان فجائته منهم الرسل تغريه بهم وتحرضه على قتالهم .

يؤيد ذلك الكتاب الذي حمله اليه وقتئذ الراهب فرنسيسقوس من ملك فرنسا شارل السادس ذلك الكتاب الذي كتب جوابه تيمور بعد ان قضى على آل عثمان

وكما ارسل شارل المذكور كتاباً آخر فيه التهنئة فان هنري دو كستيل ملك اسبانيا اوفد جماعة ليقوموا بتهنئة تيمور وشكره على اجهازه على دولة آل عثمان

ولما ارسل شارل المذكور كتاباً آخر فيهِ التهنئة اوفد هنري دو كستيل ملك اسبانيا جماعة ليقوموا بتهنئة تيمور وشكره على اجهازه على

ولا بدع ان يتسابق العاهلان الى ابداء الشكر والميل له وقد كان تيمور قد اسلفهما الجميل في اطلاقهِ من سجون بورصة عدة اسرى فرنسويين من واقعة نيكوبوليس وسفيرين للملك هنري الثالث صاحب قشتالة ومعهما عدة نساء اسبانيات [٢]

اسباب الحرب بين تيمور ويلديرم بايزيد

على ان بعض المؤرخين اوردوا فيما اوردوا من اسباب الخلاف بين المغول وآل عثمان سبباً آخر وهو التجاء احمد جلاير صاحب بغداد والعراق الى يلديرم بايزيد حين اكتسح تيمور بلاده ، وامتناع سلطان آل عثمان عن تسليمه الى تيمور [٣]. فقد يصح ان يكون هذا وامثاله من جملة الاسباب التي دعت الى تلك الحرب الطاحنة

قضاء المغول على سلطنة آل عثمان

كان تيمور على ما اتصف بهِ من الاقدام يتخوف الاشتباك في حرب ال عثمان [٤] فابتدأ بتنفير العالم الاسلامي من يلديرم بايزيد وكان

---

(١) L. Cahun. int. à l'hist. de l'Asie p. 499

(٢) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٢٩٨ (٣) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية ص ٥٠

(٤) كان تيمور قد تقدم لقتال بايزيد قبل عامين من ذلك الا انه بعد ان ملك سيواس تحرك من هناك الى الشام لحرب الظاهر برقوق وذلك مما يبرهن على انه كان يقدم رجلاً ويؤخر اخرى في قتال بايزيد

يلقبه بقيصر الروم . وقيل انه اراد ان يبرهن للمسلمين على ضعف آل عثمان عن حماية طرق الحج ، فعهد الى الشقي المعروف يوسف الاسود بقطع السابلة في آسيا الصغرى حتى اذا ماتوفر عدد المستغيثين بتيمور من شر ذلك الطاغية ، وآنس من المسلمين الرغبة في تدخله خف لندائهم واعاد الكرة على آل عثمان (٨٠٤هـ=١٤٠٢م) فالتحم الجيشان قرب انقره وكان له ما اراد من الانتصار واسر ييلديرم بايزيد . فاحسن مثواه[١] . ولكن السلطان العثماني الملقب بالصاعقة اثرت عليه تلك الكارثة فمات بعد سنة في الاسر . وقد خالف المؤرخ همر من روى ان تيمور القى اسيره السلطان في قفص من حديد[٢] .

موت تيمور

لما قضى تيمور وطره من ال عثمان وارسل اليه سلطان مصر بالطاعة ، على اثر ذلك ، وضرب الجزية على الكرج (١٤٠٣م) رجع الى بلاده وانصرف مدة قليلة الى عمرانها .

غير ان مطامعه كانت لاتزال فتية مع انه كان قد اصبح شيخاً فلم يقر له قرار ولم يتمتع براحة لان الصين وهي الدولة الوحيدة من الدول الكبرى استمرت غير خاضعة له . فخف اليها بعد اشهر من وصوله الى سمرقند مدعياً بابادة عبادة الاصنام والانتقام لمن قتل فيها من المسلمين

---

(١) L' Cahun: Int. à l'bist de l'Asie p.498

(٢) Hammer IIre de l'Empire Ottoman T ii p. 96

ايام ابائه وكانت الارض مكسوة بالثلوج فلم يحجم عن التقدم غير انه ما بلغ اترار حتى اصابته الحمى فمات سنة٨٠٧هـ=١٤٠٥م وهلك جمع غفير من عسكره

اوحشي تيمور ام منظم

يستلزم غالباً الايغال في الفتوحات الفتك والتخريب لذلك قد وصم اكثر الفاتحين بالشدة (١) ، ومن كانوا منهم على غلظة البداوة عرفوا بالوحشية مثل اتيلا وجنكيز وهولاكو وتيمور .

غير ان اولئك المغول المكتسحين ولئن كانوا ولا شك من الفتاكين قساة القلوب الا انهم لم يخلوا من ميزات العظمة ومن الرغبة بالعمران . وقداشرنا الى ذلك في كلامنا قبلاً عن جنكيز وهولاكو.

ويظهر ان تيمور كان افضل منهما في السياسة والعمران . ويلوح لي ان عاملين مختلفين كانا يتنازعانه عامل فطرته البربري وعامل عقله الكبير الاصلاحي . فكان اذا ما استسلم لعواطفه ظهر بمظهر الجبار الفتاك واذا ما رجع الى عقله حاول ان يعمر ويصلح .

من ذلك انه لما دخل بغدادسنة(١٤٠١م)اباح النهب فيها مدة ثمانية ايام وبنى من رؤوس القتلى ١٢٠ برجاً دخل في بنائها ٩٠ الف رأس . غير انه مع ذلك نهى عن التعرض للمستشفيات والمدارس والجوامع كما انه ما قضى وطره من مملكة ال عثمان الا وارسل حفيده ابا بكر الى بغداد

(١) يمكن ان يستثنى من هولاء الفاتحين العرب في صدر الاسلام فان الدين كان مروض اخلاقهم حتى كان عدلهم مما سهل لهم الفتوحات

ليرمم ما تهدم منها [١] .

وكان لتيمور عناية بالصناعة والمنافع العامة فقد قال كلافيجو سفير اسبانيا عنده :

« لقد احضر تيمور معه من حروبه من الصناع ما ضاقت بهم مآوي سمرقند اسكنهم البساتين والمغاور التي حولها »

وعدا مـا بنى من القصور والمساجد التي يفاخر بها الملوك فانه فكر في اصلاح مملكته ولا سيما ما بين النهرين فانشأ الاقنية والسدود للري فيها

اما من حيث العلم فان ليون كاهن يزعم ان الكتاب الذي الفه تيمور وسماه « تنسيقات » لا مثيل له

ولتيمور فضل على اداب الترك فان لغة فارس كانت لا تزال لغة العلم والدولة في اواسط اسيا ففكر تيمور باستبدالهـا وروج التأليف والكتابة في اللغة التركية الجاكاطائية واتخذها لغة الدولة . فنبغ بين الاتراك في عصره ومابعده كثير من العلماء الترك كالسيد علي الحمداني مات ١٣٨٤م والخوجه بهاء الدين مات ١٣٨٨م والشاعر النيسابوري واللغوي التفتازاني (١٣٢٢م—١٣٨١م) وغيرهم [٢] .

اما تظاهره بنشر الاسلام والباسه غزواته اللباس الديني فقد كان يقصد به جمع كلمة المسلمين اليه ليستخلص الخلافة لنفسه ان صح انه كان يعمل في سبيلها كما كان يرمي به الى تحميس اجناده وتنشيطهم لمعاناة

---

(١) دائرة معارف البستاني م ٦ ص ٢٩٤ — ٢٩٩ .

(٢) L. Cahun, Int. à l'Hre. de l'Asie P. 508-509

اهوال الحروب المتوالية وقد جرى مجراه الاتحاديون في الحرب العامة بدعوتهم الى الجهاد وهم علمانيون

على انا لانقول ان تيمور كان مثلهم خالياً من العاطفة الدينية

المغول بعد تيمور

مات تيمور وخلف ولدين احدهما اميرنشاد والآخر شاهرخ ولم يكن معه من ولده غير حفيده خليل بن اميرنشاد فبايعه الجند ثم خلفه شاهرخ فتنازعوا اوقسموا المملكة بينهم [1] وقضوا على المدنية التي انشأها تيمور وامسى تاريخ مابين النهرين وخوارزم وخراسان وتركستان منذ سنة ١٤٤٩م كناية عن مذابح وفتن مستمرة

وفي اثناء ذلك نهض المشائخ الصفوية في فارس وظهروا بمظهر الارشاد حتى تمكنوا من الشعب فانشأوا دولة الفرس برئاسة الشاه اسماعيل على انقاض آل تيمور [2] .

آل عثمان بعد الطارئة المغولية

لما حل القضاء بآل عثمان ، وتغلب تيمور عليهم هبت الممالك التي دخلت قسراً في حكمهم للانسلاخ عنهم فاستقل الصرب والبلغار والفلاخ واعاد تيمور الى امراء قسطموني وصاروخان وكرميان وايدين ومنتشا وقرمان بلادهم .

---

(١) بقيت منهم بقية مالكة في الهند الى اول القرن الماضي الميلادي وهي دولة محمد بابر (٢) جودت باشا ج ١ ص ٥١ — ٥٢

فتقسمت بذلك الامبراطورية العثمانية ، وازدادت انحلالاً بما وقع بين ابناء يلديرم بايزيد من الحروب بعد رحيل تيمور.

كان تيمور قد اقام على تركيا اوروبا سليمان بكر بايزيد وجعل اخاه موسى والياً له في تركيا آسيا ، فلم ترضهم هذه القسمة بل نهض محمد في توقات واماسيا ،وعيسى في بورصة، وسليمان في ادرنه واستمر القتال بينهم الى ان تمت الغلبة لمحمد سنة ٨١٦هـ=١٤١٣م [١] فتفرد بالسلطنة .

غير انه قضى حياته في الحروب الداخلية ليستتب له الملك وليسترجع الممالك التي انفصلت عن تركيا في عهد الفوضى. ولما خلفه السلطان مراد الثاني ٨٢٤هـ=١٤٢١م وكان شأن الامبراطورية التيمورية قد انحل عاد الى خطة آبائه الهجومية في اوروبا خاصة، فتم للدولة الازدهار السريع .

المساعدات الافريقية

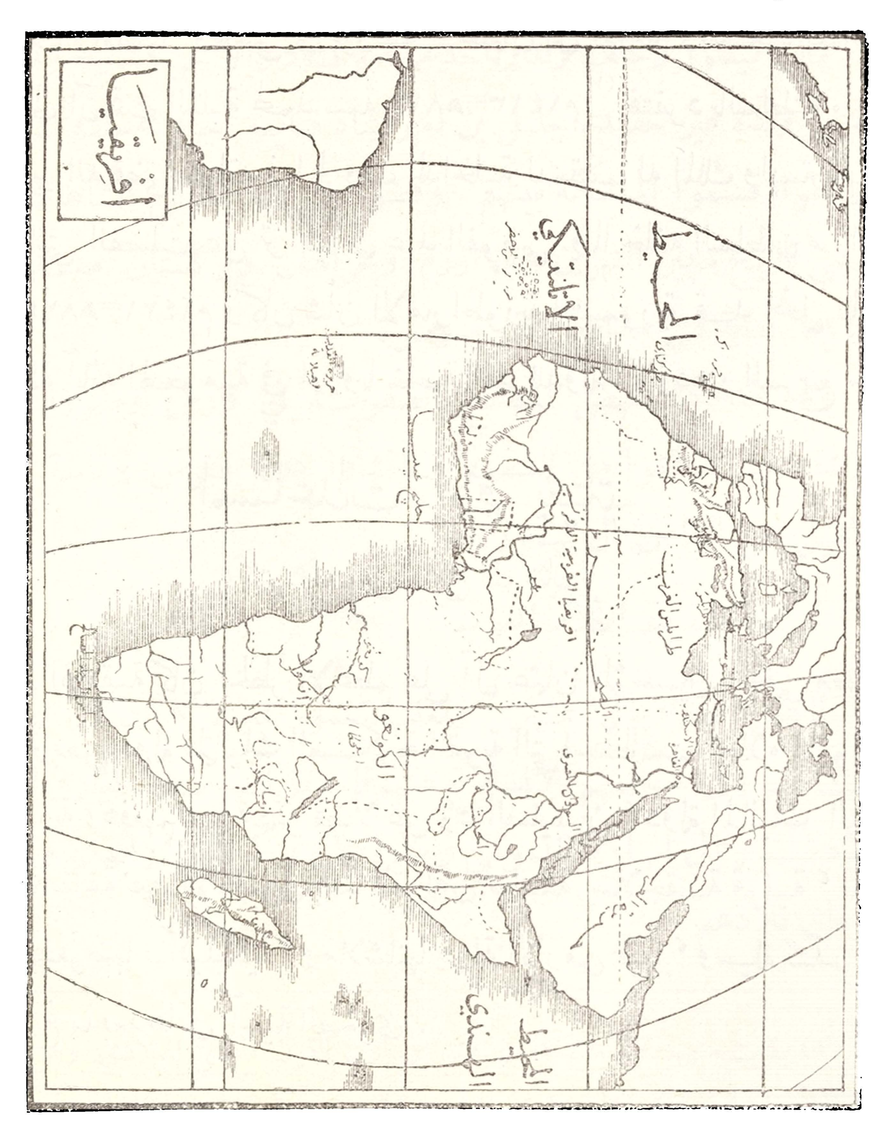
« التي عملت على انجاح آل عثمان »

في افريقية كان الخطر الاعظم على آل عثمان المؤسسين : ففي مصر كانت تربض دولة المماليك العسكرية القوية التي استطاعت اجلاء المغول عن سورية ودفعهم عن مصر فضلاً عن رد الصليبيين ، دولة المماليك التي ماغفلت ساعة عن الاناضول بعد انقراض سلطنة سلاجقة قونية ، بل ربما كان تعرضها لكيليكيا ، وملاشاتها دولة الارمن فيها ، وسيلة تتذرع بها لبلوغ ما بعدها في آسية الصغرى .

---

(١) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٤٩ — ٥٠

ومع ذلك لم تقو دولة المماليك الجراكسة التي عاصرت آل عثمان في عهـد تأسيس امبراطوريتهم ، ولا استطاعت دولة المماليك البحرية التي عاصرتهم في عهد نشأة سلطنتهم الثانية بعد كارثة تيمورلنك ان تقفا سداً حاجزاً في سبيل رقي آل عثمان



« افريقية »

المماليك البحرية

سبق لنا ان ذكرنا ان موءسس هـذه الدولة على انقاض المملكة الايوبية هو المعز ايبك التركماني احد مماليك السلطان الصالح (٦٤٨هـ =١٢٥٠م).

وخلفه ابنه نور الدين (٦٥٥هـ) ثم مملوكه قطز (٦٥٧هـ) ثم مملوك مملوكه بيبرس البندقداري (٦٥٨هـ) وهو بطل هذه المملكة الذي استرد معظم بلاد الشام من الصليبيين ، ثم صد عنها المغول .

ولكن الملك بعد ابني بيبرس تحول الى آل قلاوون منذ سنة ٦٧٨ هـ الى ٧٨٤ هـ فكانوا هم المعاصرين للموءسسين الاولين من آل عثمان ، فلم يحولوا دون نجاحهم للاسباب التالية :

(١) ان قيام دولة الارمن الصغرى في كيليكيا كان سوراً للعثمانية حفظها من المماليك في عهد تأسيسها .

(٢) ان المماليك وان تمكنوا من دك ذلك السور دكاً ، وبلغوا حدود آل عثمان ، الا انهم ما استطاعوا ان يدكوه (٧٧٦هـ =١٣٧٤م) الا بعد ان لاشوا قواهم امامه وازاء حروب بقايا الصليبيين والتتر ، وبعد ان تركوا مجالاً فسيحاً لاشتداد شأن العثمانيين . فهم اذن جاوروا السلطنة العثمانية بعد ان امسوا على انحطاط وهرم وهي على ترق وفي عنفوان شباب .

(٣) ان من يتصفح تاريخ المماليك البحرية ير كيف ان السواد الاعظم من ملوكهم ، سقطوا عن العرش اما بالقتل او بالخلع . وكفى بذلك دليلاً

على الفوضى الداخليـة التي كانت مستمرة فيهـا ، تلك الفوضى التي لاتقوم معها حال حكومة .

فاهذه الاسباب لم تؤثر دولة المماليك البحرية في شأن العثمانية ، بل تركت لها المجال الفسيح في عهد آل قلاوون للتغلب والفتح .



« موكب احد امراء المماليك »

المماليك الجراكسة

كان الاتابكي برقوق وصياً عـلى ابني الملك الاشرف من المماليك البحرية ، فلما مات احدهما تآمر مع الخليفة على خلع الثاني ، وتولى مكانه ملقباً بالظاهر سيف الدين ، فكان ذلك مبـدأ دولة المماليك الجراكسة (٧٨٤هـ=١٣٨٢م)

وخلف الملك الظاهر (٨٠١هـ) ابنه الملك الناصر فلم يقو على لقـاء تيمورلنك فتراجع له عن الشام (٨٠٣هـ)

اما تيمورلنك فانه لم يستخف مع ذلك بالمماليك ولم يتعقبهم الى مصر

وانما جرته المنافسة بينه وبين السلطان يبلديرم بايزيد الثاني الى الزحف عليه. فكان انتصار تيمورلنك عليه كذلك مؤذناً بتلاشي دولته ، وممهداً السبل لاحتلال المماليك بلاده ولا سيما بعد رجوع المغول عنها وذهاب تيمورلنك الى سمرقند . ولكن الصلح الذي كان قد عقد بين تيمور والمماليك صار يمنعهم من التعدي على ملوك الطوائف في الاناضول الذين نصبهم تيمور على انقاض آل عثمان وحباهم في حمايته .

ثم الهت الفتن الداخلية المماليك عن العثمانية في عهد نشأتها الثانية بعد الكارثة التيمورلنكية ، فكان يتغلب منهم كل حين مملوك حديث حتى بلغ عدد المالكين منهم سبعة في مدة ٢٣ سنة ، اي منذ المملوك برقوق الى وفاة السلطان محمد جلبي الذي اعاد السلطنة العثمانية وعز شأنها (٨٢٤هـ=١٤٢١م)

فلذلك فان دولة المماليك ولأن كانت اقوى مملكة في الشرق وكانت مجاورة لآل عثمان ، الا ان مشاغلها الخاصة حالت بينها وبين تركيا حتى رجحت كفة آل عثمان. واول ما تلاطمت المصالح بين الدولتين ، كان في عهد السلطان بايزيد الثاني (٨٨٦ = ٩١٨هـ) بسبب الحدود . وكادت الحرب تشب بينهما لولا وساطة باي تونس .

ومن ذلك الحين شرعت كل واحدة منهما تحدق بالاخرى حذراً ، والشقاق ينهك المماليك حتى كان تحالف قانصوه الغوري آخرهم مع الشاه اسماعيل ملك فارس ، على سليم الاول العثماني ، دافعاً ذلك السلطان الى اكتساح الشام والقضاء على تلك الدولة (٩٢٣هـ=١٥١٧م). ولكل اجل كتاب فاذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون

٦

ما الذي ساعد على فلاح العثمانية

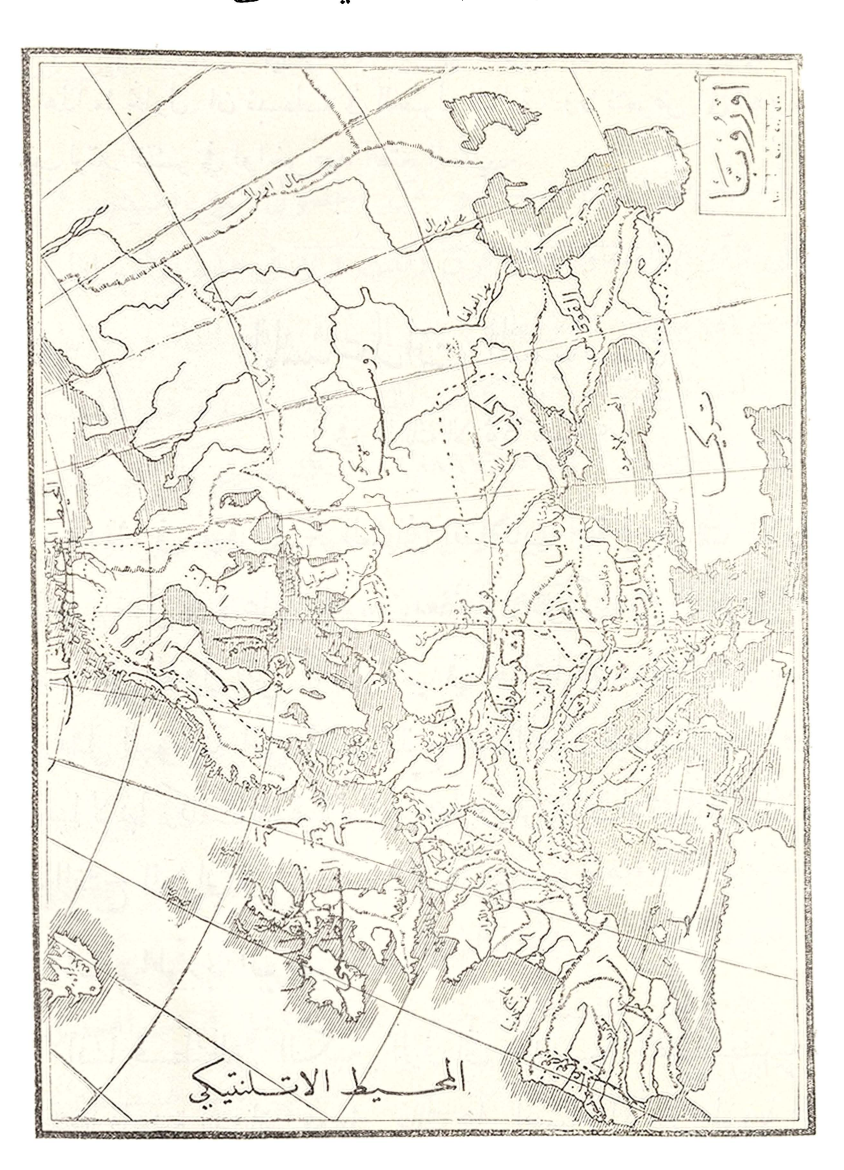
«العوامل السياسية في العالم المسيحي»

يبحث هذا الجزء عن العوامل السياسية الخارجية في العالم الاوروبي التي ساعدت على نجاح السلطنة العثانية ويدخل فيه الكلام عما كان لتوتر العلائق بين الكاثوليك والارثوذكس من المساعدات لآل عثان

فهرست الجزء السادس

الجزء السادس

« العوامل السياسية في العالم المسيحي لنجاح آل عثمان »



« اوروبة »

ما فتئت تركيا مذ تفتحت عيناها على عالم الوجود تتطلع الى اوروبا . ووجه كل

السلاطين الفاتحين ماعدا ياوز سليم انظارهم اليها ' حتى كادت فتوحاتهم في سواها تأتي من قبيل العرض

فكيف تسنى لآل عثمان ، على قلتهم وما بينهم وبين الغرب من الاختلاف الجنسي الديني' ان يسيطروا على الجانب الشرقي من اوروبا ' ويهددوا القسم الغربي منها ' في حين ان العالم لم يكن قد نسي الحملات الصليبية على الشرق الادنى ؟

هذا ما نحاول ان نبسطه في الفصول التالية . ولا نتعرض الى البروتستانت لان مذهب لوتير انتشر في اواخر عهد الفتح العثاني

المساعدات السياسية

« في الممالك الارثوذكسية »

حدث في عهد الفتح العثماني انقلابات جمة في الممالك الارثوذكسية فكانت تعمل تارة على الجمع بين بعضها وطوراً على التفريق ' لذلك فانا نقتصر على الدول التي كان يغلب في حياتها الاستقلال' ونهمل ما كان منها مثل البوسنة التي كانت تتبع حيناً المجر وحيناً السرب ' ولا نتعرض لروسيا لانها كانت دوقية . ولم تتحرر من سيادة المغول الا في اواخر عهد الفتح العثماني .

الامبراطورية البيزنطية

انشأ قسطنطين الكبير الروماني مدينة القسطنطينية (٣٣٠م) واتخذها قاعدة الدولة ' فعمل ذلك على انقسام الامبراطورية الرومانية من بعده الى شطرين : شرقية وعاصمتها القسطنطينية' وغربية وكرسيها رومة .

وبينما كانت الغربية تكاد تقرب من حتفها ، كانت اختها الشرقية المعروفة بالامبرطورية البيزنطية تزهو وتزدهر في عهد آل تيودوس يوستينيانوس . غير ان المشاحنات الدينية سرعان ما امتصت قوتها فذبلت اغصانها ، ولولا قيام العائلة الايزورية (٩٩هـ = ٧١٧م) لقضى عليها العرب

على ان العرب وان لم يتمكنوا من الحصول على امنيتهم ، الا انهم عملوا على وقوع الشقاق مدة قرن وثلث قرن في هذه الامبراطورية بما تسرب عنهم الى بعض البيزنطيين من الرغبة برفع التماثيل والصور من الكنائس اسوة بالجوامع . وكادت تلك المشاحنات تؤدي بالمملكة لولا قيام عائلة المكدونيين (٢٥٣هـ=٨٦٧م) ثم لم يكد يخلفهم آل كومناس (٤٧٣هـ=١٠٨٠م) الا واختلفوا على العرش، واطمعوا بهم الطامعين ، وانتهى الامر بقيام دولة لاتينية على انقاض الامبرطورية البيزنطية[1] ، (٦٠١ هـ ١٢٠٤م)

وقد كان ذلك من حظ آل عثمان قبل ان تتشكل دولتهم : لان ميخائيل آل باليولوج وان تمكن من ان يسترد بعد ٥٧ سنة من ذلك عرش القسطنطينية ، الا انه لم يستطع ان يستعيد من الامبرطورية غير جزء منها ، ولم يقو على استئصال جذور الفتن الداخلية ، ان دينية اوسياسية وفي اثناء ذلك انحلت سلطنة سلاجقة قونية وقام على انقاضها احدى عشرة حكومة احداهن تركيا . فورث طمع السلاجقة في مدينة قسطنطين.

---

(١) Larousse illustré T 2 p. 352-354

ولما استخدم الامبراطور اندرونيك المتطوعة المسماة قتلان Catalans لدفع مطامع هذه الحكومات التركية الحديثة اصابه الشر من حيث اراد الخير . فان ذلك الجيش ثار عليه وحاصر القسطنطينية خمس سنوات ولم يتحول عنها الى دوقية اثينا الا بعد ان افنى قواها [١] حتى آل الامر لتداخل البلغار في شؤونها . فولو الاندرونيك الثالث مكان جده (١٣٢٨م [٢]) وكان نصيب هذا الامبرطور نصيب سلفه ميخائيل من الفشل إذ حاول ضم الكنيستين الارثوذكسية واللاتينية بغية الحصول على مساعدة الغرب لدفع الخطر التركي . وهذا ما دعاه الى مسالمة جيرانه الترك فعقد معهم المعاهدات وفي جملتها معاهدة مع السلطان اورخان العثماني

ولكن الظروف لم تلبث ان قدمت للترك ولا سيما لآل عثمان الفرص المناسبة لان يتنفذوا على شؤون البيزنطيين الداخلية . فانه لما مات اندرونيك وطمع بالملك كانتا كوزان الوصي على ولي العهد حنا الخامس، والتجأ الفريقان الى الترك صار لهؤلاء القول الفصل بينهم . [٣] وايد نفوذ العثمانيين خاصة استنجاد الامبراطور حنا بهم على دوشان ملك السرب الطامع بعاصمتهم . قضى دوشان نحبه قبل ان يبلغ امنيته واورثها السلطان اورخان ، فاجتاز ابنه سليمان باشا (٧٥٨هـ = ١٣٥٧م) بوغاز الدردنيل واحتل ترمب وغاليبولي [٤] . ثم تقدم السلطان مراد الاول الى تراقيا

---

(١) Ansart & Rendu, Hre de l'Europe de 1270 à 1610 p. 134

(٢) Ab. p. Nicolle, Mnémonique de l'histoire p. 119

(٣) Lavallée, Hre de la Turquie T I p. 199-196

(٤) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية ص ٤٣—٤٤

ونقل كرسي الملك الى ادرنة ١٣٦١م

وبعد ان صار التركي في داخل اوروبا لم يعد بالامكان التلهي عنه ، فتراسلت الدول ، ولاسيما الارثوذكسية منها للاتحاد على قتاله ، وفي طليعتها السرب فاضطر السلطان لامضاء الصلح مع البيزنطيين .

وقع ذلك الصلح الامبرطور البيزنطي حنا باليولوج الا انه لم يغفل عن المستقبل المظلم ، ولا سيما لما بلغه عن انتصارات العثمانيين الباهرة على خصومهم في الطرف الاوروبي ، نخف بنفسه الى الغرب واعترف بضم الكنيستين تنشيطاً للاتين على مساعدته ، ولما رأى انه ينفخ في رماد عاد لمصافاة آل عثمان وارسل ابنه تيودور للخدمة في جيشهم عربوناً على خضوعه

ثم حدث في عهد ييلديرم بايزيد ما مهد له السبل لبسط سيادته على الامبراطورية البيزنطية : فقد تنازع حنا وولده اندرونيك على العرش واستنجد كلاهما به فقسم المملكة بينهما وضرب عليهما الجزية [1] وبلغ من نفوذه عليهما انه لما امتنع حاكم ألاشهر (فيلادلفيا) وهي آخر ما بقي للبيزنطيين في اسيا الصغرى ان يسلم مفاتيحها الى السلطان زحف عليه حنا مع ابنه وفتحها عنوة باسم ال عثمان

وكأن ابنه عمانوئيل كان ينكر على ابيه هذا الذل ، فلما صار الملك اليه رفض ان ينصب قاضياً للمسلمين في القسطنطينية ، وسار بنفسه للاستنصار باوروبا ، فعاد اسوة باسلافه بخفي حنين . وما انجاه من آل عثمان الا تيمورلنك الذي قضى وقتئذ على دولتهم .

---

(١) Jouannin & Vangaver. L'univers, Turquie p.40

وحاول عمانوئيل ان يتداخل بين امراء آل عثمان حينما عزموا على تجديد السلطنة بعد الكارثة التيمورلنكية ، واراد ان يستثمر سانحة الاختلاف بينهم ، حتى اذا ما تغلب مراد الثاني على الامير مصطفى الذي استنجد بعمانوئيل همّ بان يثأر من البيزنطيين وحاصر القسطنطينية (٨٢٦هـ = ١٤٢٢م) وما كان ليرجع عنها لولا ثورة في الاناضول ربما كان لعمانويل اصبع فيها .

وتقسمت الامبراطورية بعد عمانويل وفقاً لما اوصى به ، فتولى على العاصمة وما حولها بكره حنا ، وعلى المورة وقسم من تساليا ولداه قسطنطين وتوما . واقتنع الاخيران بتأدية الجزية الى تركيا واما حنا فجرب ايضاً ما جرب اسلافه فقصد الى مجمع فرّارا الديني واعترف بضم الكنيستين (٨٤٣هـ=١٤٣٩م)

على انه لم يكن احسن حظاً من سواه ، فلم يساعده الغرب ، كما ان الارثوذكس قومه لم يرتاحوا الى عمله فاضطر الى مسالمة آل عثمان ، ولولا انصراف مراد الثاني لقتال هونياد المجري واسكندر بك الالباني لتسنى له دخول القسطنطينية [١]

ولكن الامور مرهونة لاوقاتها ، فبعد ثلاث سنوات من استيلاء قسطنطين على هذه العاصمة وقيامه على عرش اخيه حنا افضت السلطنة العثمانية الى محمد الفاتح فبلغ هذه الامنية ، واقام الامبرطورية العثمانية على انقاض الامبرطورية البيزنطية (٨٥٧هـ = ١٤٥٣م)

---

(١) A. P. Nicolle, Mnénonique de l'histoire p. 119

مملكة السرب

السرب فصيلة من سلاف غاليسيا نزلت في البلقان نحو سنة (١٥هـ=٦٣٦م) في عهد الامبراطور هرقل، وبأذنه، لتكون حرساً للامبراطورية البيزنطية من برابرة الأفارس avares المغول مكتسحي اوروبة، وتنصرت في حكم امير امرائها فلاستمير (٢٥٧–٢٦٧هـ)(٨٧٠–٨٨٠م)

وليس في تاريخها الاول غير قتالات مستمرة داخلية، وحروب مع جيرانها اليونان والبلغار والمجر. ولما صارت الأمارة الى اتيان نهمانيا Némania حرر السرب من سيادة البيزنطيين (٥٥٤هـ=١١٥٩م) ثم نال لقب ملك من لدن الامبراطور الالماني فردريك بارباروس لتسهيله مرور الحملة الصليبية التي كان يقودها

وخلف اتيان خلف الهاهم التخاصم على التيجان عن تعزيز جانب المملكة الجديدة. وليس في تاريخهم شيء يستحق الذكر غير استقلال الكنيسة السربية عن بطريركية القسطنطينية.

ثم عاصر عهد الفتح العثماني ملك للسرب رفع شأن بلاده ووسعها حتى كاد يخلف الامبرطورية البيزنطية ويفتح عاصمتها فيدفع الترك عن تقدمهم المطرد: ذلك هو البطل اتيان دوشان (٧٣٥–٧٥٧هـ) (١٣٣٤–١٣٥٦م)

غير انه بدلاً من ان يكون هذا الامبرطور عائقاً للعثمانيين عن التقدم في اوروبة، فقد كان باعثاً على مسارعتهم اليها. لان حمله على عاصمة حنا باليولوج اضطر هذا للاستغاثة بالسلطان اورخان فانجده،

ولما عادت جيوش السرب قبل التحام الجيشين ، لموت دوشان ، ازدادت مطامع آل عثمان في القسطنطينية .

وساعدهم على ذلك ما وقع عقب موت دوشان من الاضطراب والتجزؤ في المملكة السربية[1] اللذين مكنا مراد الاول من نقل عاصمته الى ادرنة وجعلها مركزا للفتوحات الجديدة . ان تقدم آل عثمان هذا اوقع الاضطراب بالسرب كما ارتجفت لاجله بقية الدول المجاورة فالتمسوا من البابا اوربان الخامس ان يعمل لاستنفار الغرب لنجدتهم . غير ان اوروك الخامس ابن دوشان ، (٧٥٧—٧٦٩هـ = ١٣٥٦ — ١٣٦٧م) فضلاً عن عن سقم سياسته مع امراء البلاد لم ينتظر مدد الغرب ، بل تهور وخف لملاقاة الترك مع حلفائه الفلاخ والبوسنيين والمجريين وتقدم حتى بلغ ادرنة ، فما ثبتوا الا ريثما بيتهم الترك مرة واحدة فولوا الادبار لا يلوون على شيء والقوا بانفسهم في نهر ماريتزا (٧٦٦هـ=١٣٦٣م)

ثم قتل اوروك ، وكان قتله بدء عهد حروب داخلية ، فاغتنم السلطان هذه الفرصة لتوسيع سلطنته ، حتى اذا صار الملك الى لازار جربليانوفتش (١٣٧٦م) ولم تعد حال مملكته ، بعد ان عبث فيها الانشقاق ، لتكفل له حظاً احسن من اسلافه ، تقدم لمصالحة العثمانيين بالاتفاق مع سيسمان حاكم البلغار ، ورضي بان يقدم لهم كل سنة الف فارس والف قطعة فضية .

على انه لم يخنع هذا الخنوع الا وهو على نية الغدر عند المقدرة :

---

(١) Grang Larousse illustrè TVII p. 654

فما علم باشتباك السلطان في حرب امير قرمان الا واتحد مع البوسنة وفتكا بعشرين الفاً من الترك كانوا يعسكرون الى القرب من بلادهما كبر ذلك على السلطان فهب اليه وفي نفسه حب الانتقام ، وبحنكة حربية منع اتصال البلغار بالسرب ، وبعد ان اسر قرال البلغار تحول الى لازار . ولما وقعت الواقعة بينهما في سهل قوصاوه لم تغن حينئذ كثرة جيوش السرب وحلفائها شيئاً ، بل فروا تاركين لازار في الاسر راضين بالسلامة غنيمة .

وبينما كان السلطان مراد يفتقد القتلى ابدى كلمة استغراب مفادها انه لايرى بينهم غير الشبان ، فاجابه الصدر الاعظم : « مولاي ان الشيخوخة عاقلة ، وتعلم ان لا قوة تقاوم اسلحة خدام النبي . »

وما هي الا برهة قليلة حتى نهض احد اولئك الشبان الجرحى ، وضرب السلطان بخنجر ضربة قضت على حياته فاودت بحياة ملك السرب ايضاً . فقتله العثمانيون اخذاً بثار سلطانهم وكانوا قد ابقوا عليه (٧٩١هـ = ١٣٨٩م[١])

وخلف يلديرم بايزيد اباه مراداً على العرش وما انفك يضايق السرب في حملاته عليها حتى اضطر اتيان بن لازار ان يأتي اليه خاضعاً طائعاً ، فولاه حاكماً على بلاده على ان يؤدي له الجزية ويقدم للجيش العثماني عدداً من الجند ، وعلى ان يجهز اخته اوليفيرا زوجة للسلطان[٢]

---

(١) Joaannin & Vangaver. L'univers, Turquie p. 37-38

(٢) Lavallée, Hre. de la Turquie p. 212

ثم وقعت الكارثة التيمورلنكية التي لاشت الدولة العثمانية مدة من الزمن فساعدت اتيان على تحرير مملكته. واستمرت مستقلة الى ان وطد السلطان مراد الثاني الاسباب في آسية تفرغاً لاستعادة الاملاك الاوروبية وحينئذ لم يغن تحالف ملك السرب جرج برنكوفتش مع المجر عن الرجوع لطاعة الترك على ان يؤدي خمسين الف دوقة سنوياً ، ويقدم فرقة من جنده ، الى غير ذلك من الشروط التي وقعها [١]

واستمر العثمانيون من بعد على التقدم في بلاد السرب ، والسيطرة على دولتها حتى اكمل فتحها السلطان محمد الفاتح من سنة ٨٦٣—٨٦٥هـ = ١٤٥٨—١٤٦٠م فصارت من بعد ايالة من الايالات العثمانية [٢]

مملكة البلغار

البلغار من برابرة آسيا الذين كانوا ينزلون حول نهر الفولغا ، تقدموا الى اوروبا في جملة من نزح اليها من المغول (٤٦٢م) ونزلوا على ضفاف نهر الدونه ودخلوا في حكم الافارس ابناء عمهم مكتسحي اوروبا (٥٦٠م) الى انقراض دولتهم (٥هـ = ٦٢٦م)

ثم لما اشتد شأن الخزر خضعوا لهم ايضاً واستمروا على الطاعة لهم الى ان ساعدتهم الظروف على الاستقلال مرة اخرى. وتبعاً لملكهم بوريس شرعوا يتنصرون (٢٥٠هـ = ٨٦٤م) واخذوا من ثم في اسباب الترقي فبلغوا في عهد الملك سمعان (٢٨٠—٣١٥هـ=٨٩٣—٩٢٧م) قمة مجدهم.

---

(١) Hre de l'Empire Ottoman p. 150

(٢) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية

ثم تغلب عليهم جيرانهم البيزنطيون اولاً والسرب ثانياً ، واستمروا على الطاعة للسرب الى موت ملكها الكبير دوشان (٧٥٦هـ = ١٣٥٥م) في صدر نشأة الدولة العثمانية . وحينئذ استقلوا اسوة ببقية العناصر التي تحررت من ربقة السرب وولوا عليهم القرال سيسمان . وبدلاً من الاختلاف مع السرب وحد الخطر العثماني غايتهم وكلمتهم . ومع ذلك فلم يدفع عنهم اتحادهم بأس مراد خداوندكار الذي بعد ان اخضع السرب قسراً لسلطانه اجبر البلغار على الاستسلام اليه فبذل ملكهم سيسمان الطاعة وزوج ابنته من السلطان

على ان قرابة سيسمان من السلطان لم تكن لتعوقه عن نقض عهد آل عثمان حينما يرى الفرصة سانحة متفقاً على الاكثر مع السرب ، ولكنه لم ينجح ولا مرة . وراعى مراد خداوندكار حرمته اكراماً لابنته فنصبه على نصف مملكة البلغار وألحق البقية منها بالسلطنة . اما يلديرم بايزيد فانه رغماً عن شخوص سيسمان وولده نادمين على خروجهما عليه فقد امر بقتله ، واقام ابنه الذي اعتنق الاسلام والياً على سمسون (٧٩٧هـ = ١٣٩٤م) ، وجعل بلاد البلغار ايالة عثمانية [1]

امارة الفلاخ

الفلاخ والبغدان امارتان بلقانيتان وبعد ان تحررتا من نير تركيا كونتا دولة رومانيا . وسميت كذلك لان اصل سكان الامارتين من

---

(١) Jouannin & Vangaver. L'univers. Turquie p.34-43

الرومان الذين نزلوا فيهما بعد ان فتحهما الامبراطور تراجان فامتزجوا مع اهاليهما القدماء الداسيين .

ولا يزال امر رادو الزنجي الذي يعزى اليه انشاء امارة الفلاخ مجهولاً ، ولا يعرف هل هو شخص حقيقي ام اسم وهمي لان تاريخها لاينجلي الا مذ تولى عليها الامير اسكندر بازاراب (١٣٢٥—١٣٦٠م)

واشتهر ذلك الامير بجهاده لرفع نير المجر عن الفلاخ و كذلك فعل ولداه لادسلاس ورادو من بعده ، فظفر ثالثهم رادو بهذه الامنية . ولما خلفه اخوه ميرتشا على الامارة توفق الى توسيع نطاقها رغماً عن قضائه معظم حياته في حروب مع آل عثمان

ثم خلف ميرتشا خلف تنازعوا بينهم فمهدوا لآل عثمان الاسباب للسيادة عليهم : [١] فان فلاد الملقب بالشيطان بعث سنة ٨٣٧هـ = ١٤٣٣م الى مراد الثاني يعترف بسيادته على الفلاخ ، ولم يفده نكوصه ، فيما بعد باغراء المجر ، شيئاً وانما انتصر عليهم السلطان وعلى حليفتهم السرب

غير ان الظروف ساعدت فيما بعد هونياد ملك ترنسلفانيا على ان يحرر الفلاخ من نير آل عثمان (٨٤٨هـ=١٤٤٤م) [٢] ، ولبثت هذه الامارة على استقلالها الى ان نشر السلطان محمد الفاتح سيادته عليها (٨٦٨هـ=١٤٦٢م)

وكاد يضمها السلطان سليمان القانوني الى السلطنة الضم النهائي لولا تعنت اهاليها ، فاكتفى بزيادة الجزية عليها . ثم ازدادت سلطة آل عثمان على الفلاخ فصاروا ينصبون حكامها .

(١) Nouveau Larousse illustré, T V II p 404

(٢) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٦—٥٧

البغدانه (امارة ملدافيا)

انشئت امارة ملدافيا في اوائل القرن الرابع عشر للميلاد . ولم تلبث الا قليلاً حتى عرفت باسم بطلها بغدان الذى هب لتحريرها من نير المجر مع ابنه لاتراكون من ٧٧٢ الى ٨٧٦هـ=١٣٧٠ الى ١٣٧٤م . غير ان عرش هذه الامارة لم يبق طويلاً لاهلها : لان عائلتها ما لبثت ان انقرضت بموت بغدان وابنه فبايع الناس الامير بطرس آل مونشاتكنتي من العائلة المالكة عند جارتهم الفلاخ .

واشهر من خلف بطرس من هذه العائلة اسكندر الطيب (٨٠٤–٨٣٧هـ =١٤٠١–١٤٣٣م) وهو وان اعترف بسيادة بولونيا ، فانه ما فتئ يهتم باصلاح الشؤون الداخلية . وخلف اسكندر هذا اولاداً كثيرين شرعيين ، وغير شرعيين ، فتنازعوا الملك بينهم ، وجعلوا للمجر وبولونيا تداخلاً في شؤونهم ، ولولا تغلب اتيان الرابع على العرش (٨٦٢–٩١٠هـ =١٤٥٧–١٥٠٤م) لالتهمتهم الدول .

ولكن اتيان كان من اولي العزم ، فتمكن من صد كل من التتر وماتياس كورفن المجري ، كما انه استطاع ان يلاشي حملة عثمانية بقيادة سليمان باشا ، وان يهزم البرت ملك بولونيا شر هزيمة . وفضلاً عن ذلك كان بصيراً عاقلا ، فلما لم ينجح في اقناع دول اوروبا الشرقية على الاتحاد لمحاربة تركيا ، اوصى ابنه بغدان الثالث (٩١٠–٩٢٣هـ=١٥٠٤–١٥١٧م) بان يسالمها ويخضع لها . فشرعت منذ ذلك الحين السيادة العثمانية تتزايد تدريجاً على البغدان ، ولاسيا في عهد سليمان القانوني الذي تداخل في تنصيب

وخلع اثنين من امرائها . ثم توطدت هذه السيادة بما صار لتركيا من الحق في تعيين حكام البغدان[١] الى ان صارت اشبه شيء بايالة عثمانية ممتازة .

المساعدات السياسية

« في الممالك الكاثوليكية — في اوروبا الشرقية »

لما ابتدأ آل عثمان بالتعرض لاوروبا كان للكاثوليك في الجانب الشرقي منها حكومات هي بحسب مركزها الجغرافي من الشمال الى الجنوب (١) الاخوية التيتونيكية (٢) مملكة بولونيا (٣) دوقية ليتوبانيا (٤) مملكة المجر (٥) امارة البانيا

اما الاخوية التيتونيكية فهي رهبنة انشأها الصليبيون في القدس ثم لما اضاعوا عكا انتقلت الى اوروبا واتخذت صبغة سياسية ، الى ان المت بهم المصائب ووقعت عليهم الواقعة في القرن السادس عشر فانحل عهدهم السياسي ولم يحصل بينهم وبين العثمانيين حروب اوتماس

اما دوقية ليتوبانيا فاستمرت الى اواخر القرن الرابع عشر في الهمجية ، ثم تنصرت واخذت باسباب الارتقاء . ولكن بولونيا عاجلتها بالحاقها بها (٩٧٧ هـ = ١٥٦٩ م)

واما امارة بولونيا فانها رغم دفاعها عن استقلالها دفاع الابطال وردها محمد الفاتح عنها لم تتمكن من الوقوف في سبيل الجارف العثماني

(١) Nouveau Larousse illustré T V II p 404

فاكتسحها العثمانيون ولم تغنِ شجاعة جورج كستريوتا الملقب باسكندر بك عنها شيئاً

لذلك فانا سنقصر كلامنا على مملكتي بولونيا والمجر الدولتين اللتين كان من شأنهما ان يعرقلا سير الفتح العثماني

مملكة بولونيا

ليس في تاريخ بولونيا القديم ما يستحق الذكر، ومعظم ما عرف منه حروب داخلية وخارجية بينها وبين جيرانها ختمت باحتلال المغول بلادها في حكم بوليسلاس الخامس في القرن الثالث عشر، فلم يبقوا فيها ولم يذروا

ثم حلت بها بعد جلاء المغول فوضى بسبب التنازع على العرش انتهت بطرد ولاديسلاس الملك الوطني ومبايعة ونسلاس ملك بوهيميا (٧٠٠ هـ = ١٣٠٠ م) وذلك في عهد ظهور دولة آل عثمان

غير ان الاسباب لم تلبث حتى عملت على ارجاع الملك المخلوع فاخلص الخدمة لوطنه وجرى مجراه ابنه كزمير الثالث فاقالا الدولة من عثارها، ثم توفق كزمير الكبير الذي تولى سنة ١٤٤٧ الى توسيع نطاق المملكة فمد سلطانه على بروسيا الغربية وبسط سيادته على اختها الشرقية، فضلاً عن انقاذه بولونيا من اختلافاتها الداخلية. وحينئذ كانت السلطنة العثمانية قد بلغت ذروة مجدها بحيث لم يعد ليوقف تيارها دافع وبعد ان استولى محمد الفاتح على القرم اكتسح بسارابيا وملدافيا وامسك سفراء بولونيا الذين جاؤه مستعطفين وسجنهم نحو عام.

ولما صار الملك الى جان البرت بن كزمير وكان العوبة بيد الاشراف سولت له نفسه ان يحرر ملدافيا فاشتبك بحرب مع آل عثمان ولولا ان ساعدته قساوة البرد لما رجعت جيوش بايزيد الثاني عن التوغل في بولونيا نظراً لما اصابوه من المغانم

وجاء ذلك عبرة لخلفائه حتى انهم رغماً عما بلغوه من التقدم المدني والعسكري في حكم كل من اسكندر بن كزمير وسيجسموند الاول لم يعودوا للتحرش بآل عثمان ، وانما عمدوا الى سياسة التودد اليهم ، ولا بدع وقد كان على عرش الترك سليمان القانوني

غير ان الظروف قضت فيما بعد بتوتر العلائق بين سيجسموند الثاني وسليم الثاني بسبب امارة ترانسلفانيا فالتجآ الى السيف ، وكان مهند العثمانيين امضى فمنع تدخل سيجسموند ومن خلفه في شؤون امارة ترنسلفانيا . ولما مات سيجسموند وانقرضت به عائلة جاجلون وعمدوا الى الاقتراع ليتمكنوا من تسمية العاهل البولوني تمهدت السبل لبسط آل عثمان سيادتهم على بولونيا . ذلك انه بعد موت هنري آل فالوا الفرنسي نال اكثرية الاصوات لعرش بولونيا اتيان باتوري امير ترنسلفانيا ، وقد نالها بمداخلة مراد الثالث واذ كانت ترنسلفانيا امارة لها صبغة عثمانية دخلت بولونيا بهذه الواسطة تحت نفوذ آل عثمان وتاييداً لذلك وقع بين الدولتين معاهدة (٩٨٤هـ = ١٥٧٦ م) تعهد بموجبها السلطان بحماية بولونيا من التتر

ولما مات الملك باتوري عملت تركيا على انتخاب الامير سيجسموند

الاسوجي (٩٩٩ هـ – ١٥٨٧م) ومازالت تتحين الفرص ، والفرص تخدمها لما كان يحدث من التنازع بين المرشحين للعرش وبين الاشراف على الزعامة ، حتى دخلت بولونيا تحت حمايتها الفعلية . ثم ادى ضعف آل عثمان الى ضياع حقوقهم فيها وتقسمها بين روسيا والمانيا والنمسا (١٢١٠ هـ = ١٧٩٥ م) وظلت هكذا الى ان حررتها الحرب العامة .

مملكة المجر

كثيرا ما اكتسح الاسيويون تلك المنطقة التي تكتنفها جبال الكربات ، وآخر من فعل ذلك منهم المجر : فانهم جاؤا لنجدة ارنولف ملك المانيا على السرب وراقت لهم تلك المنازل فتغلبوا عليها (٢٨٢ هـ = ٨٩٥ م)

وكانوا على خشونة البداوة فازعجوا جيرانهم ، ثم اعتنقوا النصرانية في القرن العاشر للميلاد واخذوا باسباب التمدن فارتفع شأنهم . وفي اثناء القرن ١٣ داهمهم الجارف المغولي فاصابهم ما اصاب جيرانهم من الخراب

ولما تراجع المغول عاد ملكهم بالا الى مملكته وجمع شتاتها ولكنهم صاروا الى التنازع الشديد بينهم ولا سيما بشأن العرش بعد موت اندريا الخامس (٧٠١ هـ = ١٣٠١ م) الذي لم يخلف اولاداً

وكاد يكون ذلك من حظ آل عثمان لولا فوز آل انجو اصحاب صقلية بعرش المجر بمناصرة البابا : فان هذه العائلة لقيام افراد منها على حكم معظم دول اوروبا الشرقية رفعت شأن المجر حتى عدت بمصاف الدول العظمى [١]

---

(١) ab. p. E Nicolle. Mn. de l'hist. uni. p. 104

غير ان غرة حكم احدهم سيجسموند آل لكزمبرج كانت شؤماً عليهم : فقد جاشت نفسه لاكتساح ييلديرم بايزيد بلغاريا فدعا الى حرب صليبية حتى اذا فرح بما اوتي من نجدات اخذهم الترك اخذ عزيز مقتدر ونجا سيجموند في قارب الى القسطنطينية عاصمة بيزنطية

وانشقت المجر على اثر هذه النكبة الى احزاب وداعى بعرشها كل من ملك نابولي لادسلاس والبرت الرابع آل النمسا ولم يتسن لسيجسموند الرجوع الى عرشه الا بعد حروب اسر فيها ونفي .

غير ان القرن ١٥ كان عصر سعادة له فانه فضلاً عن اطمئنانه فيه من الخطر التركي بعد ان لاشى تيمورلنك الامبراطورية العثمانية استطاع ان يضيف الى تاج المجر كلاً من تاجي المانيا وبوهيميا

على ان هذه السعادة لم تكن صافية فان مثل هذا الاتساع بالملك على ما فيه من اختلاف النزعات يؤي الى مشاكل داخلية[1] ؛ اطمعت السلطان جلبي محمد (معيد السلطنة العثمانية) بالمجر، ولما لم ينل منها مأرباً كف عنها كما ان ابنه مراد الثاني تهادن مع سيجموند حتى موته (٨٤١ هـ = ١٤٣٧ م)

اما الحروب الحامية بين المجر وآل عثمان فقد بدأت مذ خلف البرت آل النمسا سيجسموند : فان هذا الامبرطور ومثله خليفتيه ولاديسلاس ملك بولونيا ولاديسلاس الخامس آل النمسا هالتهم انتصارات تركيا فانصرفوا الى دفعها عن اوروبا فكان لهم النصر في القتالات الاولى

---

(١) Jouanin & Vangaver. L'univers, Turquie p. 43-44

التي اشتهر فيها حنا هونياد القائد البطل ثم دارت عليهم الدائرة ونكبوا في وقعتي وارنا وقوصوه في اواسط القرن ١٥

وكان موت لاديسلاس المشار اليه على اثر جراح اصابته في حرب مع محمد الفاتح عند بلغراد (٨٦١ هـ = ١٤٥٧ م) [١] من حظ آل عثمان اذ تجزأت الامبراطورية المجرية بعده وانفصل عنها تاجا المانيا وبوهيميا . ولو صار ملك المجر الى البطل ماتياس كورفن بن حنا هونياد الذي خلف لاديسلاس وكان على حاله قبل التجزئة لما مكن السلطان محمد الفاتح من ان ينال الغلبة مرات على المجر وان يبسط سيادته على الامصار المجاورة لها

ولكن الحروب التي جرتها تلك التجزئة بين تلك التيجان المنفصلة وبين المجر اضطرت ماتياس للرضوخ وان يكتسب فرصة ميول بايزيد الثاني السلمية ذاك الذي خلف محمد الفاتح فيهادنه [٢] ليتفرغ لحرب المانيا وكان موفقاً ففاز عليها

ولما مات ماتياس عاد المجريون لتنازعهم القديم بشأن انتخاب خلفه وما استقر رأيهم على مبايعة لاديسلاس ملك بوهيميا حتى اضاعوا ثمرة انتصارات سلفه [٣] . ومع ذلك فان هذا العاهل لم يسلم من المنازعة فكان لآل عثمان باختلافاتهم هذه كما كان لهم بقلة دربة هذا الملك وولده لويس الثاني الذي خلفه وهو صبي مساعدات جمة لانتصارهم على المجر وضرب الجزية عليهم .

---

(١) Ab. p. E Nicole p. 105

(٢) Jouannin & vangaver p. 82-99

(٣) Driout, Hre Moderne p. 29

وانى للمجر وهي على هذه الاحوال ان تقف في وجه الجارف التركي وقد بلغ آل عثمان ذروة مجدهم وعلى عرشهم سليمان القانوني ؟ لان ذلك السلطان تقلد بنفسه القيادة ودخل المجر ونصب عليها حنازابولا، ولما خف فرديناند ملك النمسا للمطالبة بعرش المجر استناداً على اتساع ملكه وملك اخيه شارلكان العظيم وزحف لقتال معتمد السلطان زابولا نشبت الحروب بين النمسا وبين آل عثمان، وانه لمن المعلوم كيف بلغ سليمان اسوار فينا وحاصرها

على ان فرديناند المشار اليه وجد له فرصة ثانية للمطالبة بتاج المجر، فقد مات زابولا وليس له الا طفل لا يتجاوز عمره خمسة عشر يوماً، ولكن سليمان ابى الا ان يتوج ذلك الطفل : فحارب دونه النمسا والمانيا وبعد الانتصار عليهما نصبه ملكاً على ترنسلفانيا واعلن ضم المجر الى السلطنة واعتبرها منذ ذلك ايالة من ايالاتها . ثم واصل السلطان الزحف على الجانب المجري الباقي تحت سيطرة النمسا وما كان ليكف عن التقدم لو لم يعترف فرديناند بانه من اتباع آل عثمان ويتعهد بان يؤدي جزية مقدارها ثلاثين الف دوقة كل عام [٢]

ولا جرم في ان هذه الشروط غير محتملة لذلك فان فرديناند مالبث ان انكرها فزحف السلطان سليمان لحربه وكان موته منجياً فرديناند من بأسه ومبقياً ما كان على ماكان الى ان تدهورت تركيا فيما بعد فاضاعت المجر فيما اضاعت

---

(١) Drioux, Hre Moderne p: 149-155

المساعدات السياسية

« في الممالك الكاثوليكية — في اوربا الغربية »

كثيراً ما استجار الامبراطرة البيزنطيون بملوك الغرب ، وبباوات رومة على العثمانيين ، وطالما ضحوا في سبيل الحصول على مساعدتهم ضد آل عثمان استقلالهم الروحي : فعرضوا عليهم مرات ضم الكنيسة الارثوذكسية الى الكنيسة الكاثوليكية ، ولكنهم كانوا ينفخون في رماد ، فرغماً عن تحريضات فريق من البابوات ، فان الدول الكاثوليكية ، ما عدا التي جاورتها تركيا لم تصغ الى صراخهم .

غير انه لما استولى الترك على القسطنطينية كان من المستحيل (كما قال بلانشه وتوتان) ان يستمر الغرب على غفلته عن مثل هذا الحادث العظيم . فقد امسى الجزع عاما ومهماً الى حد ان البابا نقولا الخامس حض كافة الحكومات الايطالية على ارجاء البحث في خصوماتها وعلى الاتحاد لدفع العدو الجارف ، وفضلاً عن ذلك فانه ارسل الرسل الى ما وراء الجبال (الألب) لاثارة الاشراف ، فكنت تسمع في كل مكان صوت الداعين الى الحرب ، كأن عهد بطرس الناسك (مثير الحروب الصليبية) قد بعث .

وعدا الدعوة التي نشرها في كل الانحاء ، فان البابا نقولا جند جيشاً ، وانزل الى البحر عمارة ، قصدت الارخبيل بقيادة جاك دو كور ، وحذا حذوه فيليب الطيب دوك بورغونيا ، الذي كان يتبجح بأنه افرس واسمح الحكام ، فجمع في مدينة ليل زعماء الدولة ، واقسم امامهم بانه

ذاهب لقتال التركي ، ولكن كل هذه المظاهرات كانت سخرية باطلة ، ذهبت سدى [1]

وانه لمن العجب بمكان كيف ان اوروبة التي ثارت قبيل ذلك بدعوة ناسك بسيط ، فحملت على المسلمين في مواطنهم ، تقاعست وتخلفت عن الوثوب لدفعهم وقد امعنوا في فتحها ؟

ذلك لانها كانت في عهد العثمانيين الذهبي على غير استعداد لمثل هذه الحروب الدينية ، ان سياسياً وان معنوياً .

وهذا ما نود ان نوضحه هنا ، فنتكلم في هذا الفصل على حالتها السياسية ، ثم نأتي في الفصل التالي على نبذة من حالتها المعنوية ، فيتضح للقارئ كيف انه تسنى لتركيا ان تسيطر على شرقي اوروبا ، خلال تلك الظروف والاحوال .

على انه لا مندوحة لنا هنا من الاشارة الى ان اوروبة الغربية لم تستمر على جمودها ازاء التوسع التركي ، بل انها ، لما استفحل خطر آل عثمان ، لم تلبث ان أصغت الى نداء البابا بعد ان كان في اذانها وقر ، واتحدت عدة دول منها على قتال آل عثمان . اجل ، ولكن اتحادها جاء متأخراً وحدث بعد الفتح العثماني . وهو ولئن ساعد على تقلص ظل الترك الا انه لم يكن هو الدافع لجارفهم عن اوروبا في عهد غليانه ، وانما كان لتقلص ظل السلطنة في اوروبا اسباب داخلية اكثر منها خارجية .

هذا ولما كانت فرنسا وانكلترا وايطاليا واسبانيا هي الدول العظمى

---

(١) Blanchet, Hre du moyen âge p. 460

في ذلك العهد ، فانا نقتصر عليها في بحثنا عن حالة اوروبة الكاثوليكية الغربيــة في اواخر العصور المتوسطة ، واما بقية الدويلات كسويسرا والفلمنك فانا نهمل ذكرها ، اذ لم يكن من شأنها التأثير على دفع السطنة العثمانية عن اوروبا .

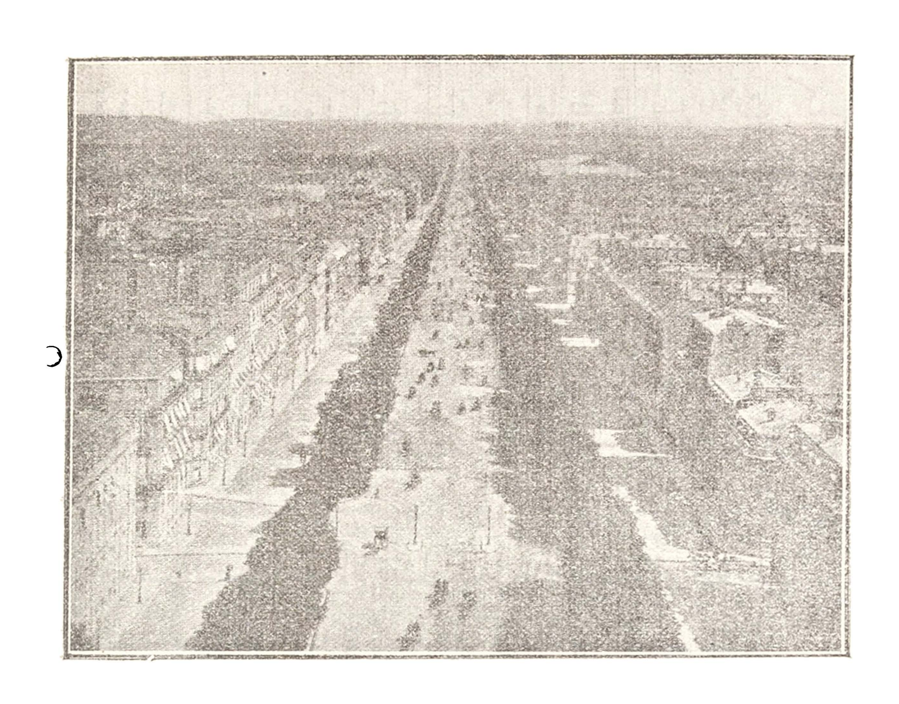
فرنسا

كانت فرنسا تعرف ببلاد الغول ، فتحهــا الرومان ما بين عامي ٥٨ و ٥٠ ق‌م وصبغوهــا بصبغتهم ، وفي الشطر الثاني من القرن الثاني للميلاد اخذت النصرانية بالانتشار فيها . ثم تغلب البرارة عليها[1] وكان للفرنك منهم حظ انشاء دولة ثابتة فيها واطلاق اسمهم عليها

وقد توالى على عرش فرنسا من العائلات الملوكية ثلاث (١) المارو فنجية Mèrovingiens (٤٢٨—٧٥١م) العائلة التي ادى تنــازع فريق من افرادهــا الى استبداد رجال قصورهم بهم . ولولا احد هؤلاء المتغلبين المسمى شارل مارتل لاستولى العرب على فرنسا كلها . (٢) الكارلوفنجية Carlovingiens (١٣٤—٣٧٧هـ) (٧٥١—٩٨٧م) عائلة شارلمان التي ازدهرت واتصلت الحروب بينها وبين عرب الأندلس (٣) الكابه‌سيان Capétiens (٣٧٧—١٢٠٧هـ) (٩٧٨—١٧٩٢م) وهي العائلة التي ظهر في عهــدها آل عثمان وعاصرت ايام ازدهارهم وانحطاطهم

---

(١) Barbares يلقب الرومان برابرة كل الأمم الخارجــة عن سلطتهم . ويطلق المؤرخون ذلك على القبائل التي اكتسحت الامبرطورية الرومانية



« احد شوارع باريس »

غير ان فرنسا وهي ام الدول وقتئذ لم تنتبه الى تركيا وما سيكون عنها من الخطر ، بل انه لما مات شارل الرابع عن غير ذكر ، وانتقل التاج الى القسم الثاني من عائلة الكاباسيان بانتخاب فيليب آل فالوا ملكا على فرنسا ، وداعاه بذلك نسيبه ادوارد الثالث ملك انكلترا حصلت تلك الحرب العظيمة بين فرنسا وانكلترا التي استمرت مائة عام (١٣٣٧—١٤٣٧ م) فصرفتهما عن الخطر العثماني . ولم تنته تلك الحرب الا في السنة التي دخل فيها السلطان محمد القسطنطينية فاتحاً

على انه ولئن زلزل زلزال اوروبا وقتئذ عند ما شاع خبر ذلك الفتح غير ان فرنسا وقد انهكتها حروب جيل ونيف لم تكن على استعداد

لاجابة الداعين الى الحرب الصليبية . وفضلاً عن ذلك فانه سرعان ماوقعت في حرب اصحاب الاقطاعات المتفقين على الملك لويس الحادي عشر لعزمه على ملاشاة طريقة حكمهم . وما فازت الحكومة عليهم سنة (٨٩٤ هـ = ١٤٨٨ م) الا لتشتبك بالحروب المعروفة بالايطالية

وكان السبب فيها تحويل احد المتنازعين على عرش نابولي حقه الى لويس الحادي عشر ، ولما صار عرش فرنسا الى شارل بن لويس المشار اليه تورط فيما اجتنبه ابوه وكان من جملة ما اغراه بتملك ايطاليا امله انها تكون له ممهدا لاسترداد القسطنطينية من الترك

وكان وقتئذ في ضيافة البابا الامير جم المداعي اخيه السلطان بايزيد الثاني بعرش آل عثمان ، فلما تسنى للملك شارل دخول ايطاليا ظافراً استصحب الامير جم ليستعين به على آل عثمان ، وبينما هو يعمل على تمهيد السبل للزحف عليهم بنشر الثورة في اليونان والبلقان فاجأه خبر تحالف كل من البابا والامبراطور مكسيمليان وفرديناند داراغون واتحادهم عليه وانهم عازمون على الاحاطة بجيشه فخف للهزيمة [1] ولم يعش بعدها الا قليلاً فمات سنة ١٤٩٨

ولم تنته بموته تلك الحرب التي اشغلت اوروبا كافة عن الخطر العثماني وانما استمرت على اشتعالها بعده مدة تسنى فيها لآل عثمان ان يصيروا اعظم دول الاسلام وان ينقلوا اليهم الخلافة ، فجمعوا بين السلطتين السياسية والروحيه

---

(١) P. gagnol Les temps modernes A & B p. 5-61



« شارل الثامن الذي دخل ايطاليا على نية فتح القسطنطينية »

ولما انتهت تلك الحروب في غرة حكم فرنسوا الاول ملك فرنسا سرعان ماشعر الاوروبيون باستفحال الخطر التركي فكان في جملة اقتراحات فرنسوا المشار اليه في مؤتمر كامبري (٩٢٣ هـ = ١٥١٧م) الاتحاد على تركيا واقتسامها .

بيد ان الحظ كان لايزال يخدم آل عثمان ، فانه بعد عامين اثنين من هذه المؤآمرة عليهم اشتبكت فرنسا مع الامبراطورية الالمانية بحرب كبرى اثارها ادعاء آل فرنسا بأحقيتهم بتاج تلك الامبراطورية من آل النمسا وأُسر فيها فرنسوا فلم يجد له مرجعاً يستند به الا اعداءه الاول آل عثمان

فسنحت الفرصة للسلطان سليمان القانوني الذي شرع يتقدم بالفتوحات لنجدة فرنسا حتى حاصر فينا ، وتمكن من رفع سلطنته الى مقام المرجع المهاب صاحب الكلمة النافذة في اوروبا

المانيا

كما تعد فرنسا المارلوفنجيين والكارلوفنجيين بين العائلات المالكة فيها فان المانيا التي كانت هي وفرنسا دولة واحدة في معظم ايامها السابقة تعتبرهم ايضاً في جملة ملوك الجرمن .

اما الانفصال التام بين المانيا وفرنسا فقد بدأ بتغلب السكسون على الالمان اولئك الذين حكموا على طريقة الانتخاب من سنة ٩١١ الى ١٠٢٤م، واشهرهم اوتو الكبير الذي توج قيصرا رومانيا[1]

ثم خلفهم قياصرة ساليون واستمر حكمهم الى سنة ١١٢٥ م، واشتهر منهم كل من هنريك الثالث والرابع اللذين حاولا سحق السلطة البابوية، فآل هوهن ستوفن الى سنة ٦٥١ هـ = ١٢٥٣ م، ومنهم فردريك الثاني صديق المسلمين

ثم حل بالامبراطورية اختلاف بعد فردريك الى ان صار امر العرش الى آل هبسبورغ، ودام في مدتهم، وكان سببه التنازع على التاج بين المرشحين له . فهدم ذلك الاختلاف ما شاده عظماء القياصرة باعوام، وصرف المانيا عن استجابة المستجيرين بها من الخطر العثماني، وقد استمرت المانيا على ذلك

---

(١) كما ان الخلافة كانت في اكثر الاحايين سبباً للخلاف بين عواهل المسلمين وشيعهم فان اللقب الامبرطوري جر على المانيا المتاعب اذ صرفها للمحافظة على ايطاليا احتفاظاً به

في سائر الصدر الاول من تاريخ آل عثمان وفي عهد التلاشي عقب حملة تيمورلنك ، وما انتعشت وتخلصت من تلك المشاكل السياسية والدينية الا بعد ان عاد التاج الى آل هبسبورغ بانتخاب البرت الثاني ملكاً كل حياته على ان ينحصر الملك باولاده (٨٤٢ هـ = ١٤٣٨ م)

وفي ذلك الحين كان قد صار عرش آل عثمان الى مراد الثاني العامل على استرجاع مجد السلطنة ، فاستعرت نيران الحروب بين العاهلين ولولا قصر اجل البرت لعرقلت تلك الحروب مساعي مراد .

واكتمل حظ السلطنة العثمانية في عدم كفاءة فردريك الثالث الذي توج بعد البرت بتاج المانيا ، وكما كان ذلك مساعداً على تقدمها فقد ادى استفحال شأن الترك الى خلعه ومبايعة ماتياس كورفن بطل المجر ، وجرّت تلك المبايعة حروباً داخلية مدة عشرين سنة

وهكذا فان كفاءة ماتياس اضمحلت ، وتمكن السلطان محمد الفاتح ان يجلي المجر عن سائر البلقان ماعدا مدينة بلغراد .

ولما صار الملك الى مكسيمليان الاول (١٤٩٣—١٥١٩م) لم يتعرض لآل عثمان ولم يتعرضوا له ، ولكنه توفق بزواجه مرتين وبتزويج ابنائه وبناته من العائلات المالكة المتعددة في اوروبا ان يمهد لابنه شارلكان اتساعاً في الملك لم يكن لشارلمان ، حتى اذا افضى الملك الى ولده المشار اليه وحد تلك الممالك . ولما مات حموه فرديناند ملك اسبانيا ضم شارلكان الى مملكته جميع القوى البرية والبحرية التي كانت لاسبانيا ونابولي وصقلية وسردينيا ، فضلاً عن امريكا الاسبانية ذات الكنوز ، وحينئذ صارت الامبراطورية

الالمانية خطراً على آل عثمان، ولولم تساعد الظروف تركيا لنالت منها وطراً: ولكن الحروب التي وقعت بين المانيا وفرنسا وقتئذ والمشاحنات بين الاولى وبولونيا والدول السكنديناڤية ، وثورة لوثر المذهبية، كل ذلك بعث على انتصار سليمان القانوني على شارلكان انتصارات باهرة الى حد ان جيوشه بلغت في تقدمها اسوار ڤينا

وقد القت تلك الانتصارات اليأس في قلب شارلكان، فاعتزل في دير، وتقسمت امبراطوريته العظمى بين اخيه فرديناند وولده فيليب . ثم لم تفلح المانيا من بعده في دفع الترك ، وانما تسنى لهؤلاء في اثناء حرب الثلاثين سنة التي وقعت بين الكاثوليك والبروتستانت (١٦١٨ م) ان يظهروا عليها ويبلغوا ڤينا مرة اخرى .

انكلترا

اهل انكلترا القدماء هم السلت Celtes ، غزاهم الرومان قبيل المسيح ثم دخلوا في حوزتهم بعد جيل من الميلاد الى اوائل القرن الخامس عندما سحب الامبراطور هونوريوس جنوده من الجزيرة

ثم خلفهم عليها الجرمن الساكسون الذين قدموا من المانيا اجابة لطلب سكانها الذين استجاروا بهم من شر جيرانهم البكت سكان شمال الجزيرة وانشأوا مع من تبعهم من المهاجرين الجرمن، ومنهم العنصر الانكليزي ، سبع دول توحدت بظهور الامير اجبرت على خصومه (٢١٢هـ=٨٢٧م)



« الرومان يكتسحون انكلترا »

ثم طمع في جزيرة انكلترا الدانيمرك والنورماند ، فحكمها الاولون في الشطر الاول من القرن الحادي عشر ، وتغلب عليها الثانون في الشطر الثاني منه ، واستمروا على حكمها نحو جيل الى ان طردهم الانكليز ونصبوا عليهم آل بلا تاجنت (١١٥٤ - ١٣٩٩ م)

وظهرت في عهد هذه العائلة المالكة سلطنة آل عثمان فلم تسترع انظارها ، ثم الهت الانكليز عن الترك حرب المائة سنة التي نشبت بينهم وبين فرنسا (١٣٣٧م) وما تخلصوا منها وانتبهوا الى خطر آل عثمان الا ووقعوا فوراً في حرب الوردتين الداخلية مدة ثلث قرن

وقد انهكتها الحروب ، وخالطت نفسها روح النهضة الى حد انها لم تعد لتصغي من بعد لدعوة الداعين الى حرب الترك ، فتسنى للانكليز بذلك ، وقد اخذوا باسباب التمدن ، ان يخلفوا تركيا على سيادة العالم

ايطاليا

حمل البرابرة على الامبراطورية الرومانية حملات كثيرة انهكت قوة ايطاليا فصارت فريسة لهم (٤٧٦ م) وظلت على تلك الحال الى ان خلف البرابرة الاوسترغوت سنة ٤٩٣م فالبيزنطيون فاللمبرديون، وتقسمت في عهدهم الى جملة دوقيات .

ثم دخلت ايطاليا في القرن العاشر للميلاد في حوزة الامبراطرة الالمان ، ولما حاول هؤلاء بعد قرنين من ذلك سحق السلطة البابوية تثبيتاً لنفوذهم فيها ، وعملوا على استعادة ما فقدوه منها ، اتحد البابوات مع المدن اللمبردية على دفعهم ، فانشقت ايطاليا الى حزبين : حزب المانيا Les giblins وحزب البابا Les guelfés ،واستمر القتال والخصام بينهما الى القرن الخامس عشر الذي كان قد توطد فيه شأن آل عثمان

لذلك فان الحكومات الايطالية المتعددة كانت تتسابق على خطب ود الامبراطورية العثمانية ، بدأت بذلك البندقية بمعاهدة عقدتها معها سنة ٨٥٨ هـ = ١٤٥٤ م ، ثم اقتفى اثرها بقية تلك الدول ولا سيما في عهد السلطان بايزيد الثاني الراغب بالسلام، حتى اذا دخل شارل الثامن ملك فرنسا ايطاليا فاتحاً ارسل كل من ملك نابولي ورئيس جمهورية البندقية يستنجدان بهذا السلطان ، ويكشفان له عن قصد فرنسا التي كانت تريد ان تجعل فتح ايطاليا تمهيداً للاستيلاء على القسطنطينية .

على ان ايطاليا وان اتحدت على دفع فرنسا عنها الا انها لم تلبث ان عادت بعد زوال ذلك الخطر عنها الى انقساماتها فضلاً عن انها استمرت على ما كانت عليه ميدان مطامع وحروب بين الدول الكبرى فرنسا واسبانيا

والمانيـا ، ثم قضي عليها بان تدخل تحت سيطرة اسبانيـا مدة قرنين وهكذا فقد أمن آل عثمان شرها

اسبانيا [1]

ما زالت اسبانيا مطمح انظار الفاتحـين ، فتغلب عليها الفينيقيون واليونان والقرطاجنيون والرومان والويزيقوط فالعرب في اوائل القرن الثامن للميلاد . وبـدلاً من ان يلحق العرب باللاجئين من الوطنيين الى جبال قنطبرية في شمال اسبانيا اهملوا امر اللحاق بهم ، فشكل الويزيقوط حكومة اشتورة التي كان نجاحهـا القليل بالتعرض للعرب منشطاً لتشكيل حكومات اخرى في جوارها ، وهي نواره وليون وقشتالة واراغون والبرتغال .

واستمر العرب في غفلتهم عن تلك الدويلات التي جعلت مثلهـا الاعلى اجلاءهم عن اسبانيا ، وما فتحوا اعينهم في القرن الرابع عشر للميلاد ، حين ظهرت السلطنة العثمانية الا وكانت الاندلس قد عادت لاهلها ولم يبق للمسلمين الا دويلة بني الأحمر في غرناطة عند سيف البحر

اما وقد بقي للعرب على الشاطيء الاندلسي ملجأ فان الاسبان لم يحولهم عن اتمام المهمة التي اخذوها على عاتقهم محول ، ولم يحفلوا بأَمر آل عثمان ، بل تركوا لجيرانهم قضية التفكير لرفع خطرهم واستمروا هم على سعيهم الحثيث للقضاء على بني الاحمر

---

(١) للمؤلف مقال عنوانه : اسبانيا الجميلة بين الشرق والغرب ، نشر في مجـلة الهلال في عددي حزيران وتموز ١٩٢٤

وقد نالوا ما طمحوا اليه باتحاد مملكتي نواره واراغون ، ثم بانضمام حكومة قشتالة اليهما بزواج فرديناند ملك اراغون من ايزابله ملكة قشتالة ، واخرجوا المسلمين من اسبانيا في حكم بايزيد الثاني سلطان آل عثمان (١)

ولذلك فان اسبانيا لم تأت عملاً ناجحاً من شأنه ان يقف في وجه الامبراطورية العثمانية ، وانما لما بلغت غايتها من العرب اتحدت اولاً مع الامبراطورية الالمانية بزواج حنة ابنة فرديناند من فيليب الحسن ابن مكسيمليان وتتويج ابنهما شارلكان ، فكان نصيبها نصيب هذه الامبراطورية الفشل في الحروب التي حصلت بينها وبين السلطان سليمان القانوني ، ثم لما اعتزل شارلكان في دير وتجزأت امبراطوريته خلفه على عرش النمسا اخوه فرديناند ، وعلى كرسي اسبانيا وممتلكاتها في ايطاليا واميركة مع تاج هولانده ابنه فيليب الحسن (١٥٥٦ — ١٥٩٨ م) ، وكان ذلك بدء عهد تدهور اسبانيا السياسي ، ووافق بداية عهد انحطاط تركيا

خلاصة العوامل السياسية في العالم الاوروبي

التي ساعدت على فلاح آل عثمان

اوردنا فيما تقدم خلاصة عن العوامل التي ساعدت على فلاح العثمانيين تلك العوامل التي عاقت دول اوروبا عن مقاومتهم وافسحت المجال الرحب لهم ، فوسعوا فتوحاتهم . وسنجملها الان اجمالاً موجزاً ليكون لها لحمة اتصال بعد ان وقف عليها القارئ متفرقة

---

(١) للمؤلف مقال في عدد ربيع اول ١٣٤٣ من مجلة العرفان بحث فيه عن اسباب تخلي آل عثمان عن مسلمي الاندلس وعدم الاصغاء لاستنجادهم بهم

الدول الارثوذكسية

خلف مجدد الامبراطورية البيزنطية ميخائيل باليولوج خلف غير اكفاء انصرفوا في صدر السلطنة العثمانية ، حينما كانت تتحفز للوثوب الى الجانب الاوروبي الى ، اللهو والمشاحنات المذهبية ، والتنازع على العرش ، فكانوا قدوة سيئة لقومهم . ولم يعنوا بالجند وانما امسى في جملته من الغرباء المستأجرين الذين سيان لديهم انتصار الامبراطورية او اندحارها

وبذلك ضعف شأن الامبراطورية ، وجاءها ضغثاً على ابالة ماقام فيها من تنازع الجنويين والبندقيين النازلين فيها تزاحماً على استثمارها ، فتمكن آل عثمان من القضاء عليها ورفع سلطنتهم على انقاضها

وكان ينتظر من السرب ان تكون السابقة للقيام مكان البيزنطيين على القسطنطينية ، ولكن التنازع الذي حدث فيها على اثر موت دوشان (١٣٥٥ م) قضى عليها بالانحلال ، فانفصلت عنها بلغاريا والبوسنة والبانيا ومكدونيا . وفي اثناء ذلك فاجأتها تركيا فاخذتها اخذ عزيز مقتدر ، وتسنى لها بعد ان قضت على السرب كبيرة الحكومات البلقانية ان تضم اليها بلغاريا والبوسنة وان تسيطر على امارتي الفلاخ والبغدان . واما روسيا فكانت امارات تحت سيادة المغول فلم تحفل بها السلطنة العثمانية

الدول الكاثوليكية

ما كانت بولونيا من الدول المستضعفة في عهد الفتح العثماني وانما شبت تركيا في خلال الفوضى التي حدثت في بولونيا بسبب التنازع على العرش ، ثم ترعرعت وانبسطت املاكها في ابان الخصام الشديد الذي

اشتبك بين ملوك بولونيا واشراف مملكتهم ، وما تخلصت هذه الحكومة من هذه المشاكل وهمت بدفع العثمانيين الا وقيل لها لاعطر بعد عروس

ومثل بولونيا كانت المجر بالقوة حين ظهور آل عثمان ، ولكن سيجسموند استهان بالسلطان يلديرم بايزيد وفاجأه بالقتال قبل ان تصل الجيوش الموفدة لنصرته ، فسجل على نفسهِ عار الفشل

ثم صارت اوروبا تترقب منه ان يزيل هذا العار لما تتوج بتاج الامبراطورية الالمانية ، بيد ان الضرر جاءه من حيث رجا الفائدة : فان هذا التاج الذي كلل رأسه فوق تاجي المجر وبوهيميا اثقل هامته بالمشاكل الداخلية التي صرفته عن سواها

ولما مات سيجسموند تبعثرت تلك التيجان وسبق ذلك كما خلفه اضطراب شديد قضى على كل الاماني المعقودة على تتويج بطل المجر ماتياس كورفن .

وكان حظ الامبراطورية الالمانية من تركيا حظ المجر شقيقتها من الفشل ، فان اتساع حدودها كان باعثاً على زيادة مشاكلها . وناهيك بما اضاعه امبراطرتها من نفوذهم على الامراء المتفقين ، وما نتج عن ذلك من انحلال الجامعة .

على ان الآمال الكبرى في دفع الخطر العثماني عن اوروبا كانت معقودة على فرنسا ، وهي عصرئذ من اقوى الدول ، وارقاهن مدنية ، فاراد فيليب السادس آل فالوا (على قول آنسار وراندو) ان يحيي عهد الحروب الصليبية ، لولا حرب المائة سنة التي اشتبكت فيها فرنسا وانكلترا

ولما انتهت تلك الحرب حاولت فرنسا ان توطد شؤونها الداخلية بالقضاء على حكم الاقطاعات ، ثم سرعان ما دخلت في الحروب الايطالية وما نتج عنها من التنافس والقتال مع آل النمسا حتى اضطرت ان تطلب محالفة آل عثمان ، وتستنصر بهم على خصومها الاقوياء .

اما انكلترا فكانت في حكم هنري السادس ، حين استفحال امر آل عثمان تستعد للوقوع في القتالات الداخلية المعروفة بحرب الوردتين وكانت ايكوسيا مسرح حرب دامية بين الملوك وباروناتهم .

واما اسبانيا فكانت لا تحفل في ما عدا اكمال المهمة التي اخذتها على عاتقها وهي اجلاء المسلمين عما بقي بيدهم من بلادها . ومع ذلك فان داخليتها لم تكن مطمئنة ، وقد ضرب الاعيان عنق محظي الملك حنا الثاني في مملكة قشتالة في نفس العام الذي استولى فيه الترك على القسطنطينية . كما انه كان الابن في حكومة نواره يحارب اباه .

وفضلاً عن ذلك فان استيلاء قشتالة على امارة مرسية وضمها اليها قضى على دولة اراغون بالانفصال عن الاندلس فتحولت بمطامعها الى ايطاليا والبحر المتوسط . وكذلك يقال عن البرتغال ، فمذ دخلت قرطبة واشبيلية في حوزة قشتالة تحولت مطامع البرتغاليين الى شمال افريقيا . وهكذا فان الدول الاسبانية كانت متباعدة الاهداف وان اتحدت على اجلاء المسلم عن الاندلس .

تلك كانت حالة اوروبا الدولية حينما نشأت تركيا وهبت لاكتساح العالم الغربي .

وقد قال انيس سلفيوس ، احد افاضل المعاصرين لعهد الفتح العثماني عن العالم الاوروبي وقتئذ مانصه : « هو جسم بغير رأس ، وجمهورية بلا شريعة ولا قضاة ، وان البابوية والامبراطورية ولئن كانتا لا تزالان تضيئان مثل الالقاب الفخمة والصور البهية ، لكن لا البابا ولا الامبراطور كان نافذ الارادة مطاعا »

ولذلك فان اوروبا وان زلزلت زلزالها لاخبار آل عثمان ولكنها رغم المساعي العظيمة المبذولة لم تتوفق لاتحاد الكلمة على دفعهم

على انه لا ينكر ما حدث بعدئذ على اثر تفاقم الخطر التركي من الاصغاء لصوت البابوية ، واحياء الجامعة الدينية ، غير ان ذلك الاتحاد اتى متأخراً ، وهو ولئن اضر بتركيا لمجيئه في جملة العوامل التي ادت الى جلائها عن اوروبا ، إلا انه ما كان هو المؤثر في دفع ذلك الجارف التركي ، كما سبق لنا ذكره

المساعدات السياسية

« لنجاح آل عثمان الناجمة عن توتر العلائق بين الكاثوليك والارثوذكس »

لم يتم لآل عثمان ذلك النجاح الباهر في اوروبا عما بيناه من حالتها السياسية فحسب ، ولا عما سنشير اليه من حالتها الروحية فقط ، بل هناك عامل كبير آخر سهل للترك سبل التقدم ، وهو انقسام العالم المسيحي الى قسمين متنافرين : فان انشقاق الكنيسة اليونانية عن اللاتينية ادى الى تنافر شديد بين اتباعهما ثبتته الحروب الصليبية ، فخدم السلطنة العثمانية ، وذلك ما سنتكلم عليه في هذا الفصل

الانشقاق بين الكنيستين

ان فتوحات العرب في البحر المتوسط حررت المقام البابوي من نفوذ البيزنطيين ، ولما كان لابد لهذا المقام من دولة يستند عليها ساعد على تتويج شارلمان الكبير بتاج الامبراطورية ، وتساند كل منهما على الآخر

وفي اثناء ذلك كان مقام البطريركية في القسطنطينية عاصمة البيزنطيين ضعيف النفوذ[١] واستمر يرزح تحت سيطرة الحكومة الى ان انتخب فوتيوس بطريركياً ولم يعترف به البابا ، فعقد مجتمعاً قرر انفصال الكنيسة البيزنطية عن البابويه ، وحينئذ اصبح لهذه البطريركية من السلطة والشان الشيء الكثير

وعبثاً حاول كبار الرجال ان يصلحوا فيما بعد بين الكنيستين ، لان الحوادث اخذت تزيد في شقة الخلاف الى ان تم الانفصال التام بينهما (٤٤٦ هـ = ١٨٥٨ م)[٢] وما كانت حقيقة سبب هذا الاختلاف كما يزعمون بانه حصل عن حصر الارثوذكس انبثاق روح القدس من الاب وحده ومخالفتهم لهم بالقول انه منبثق من الاب والابن[٣] كلا وانما كانت الاسباب الرئيسية هي السياسة والرياسة

---

(١) Drapper, Hre. int. de l'Europe T II p. 128-162

(٢) Blanchet, Hre du moyen âge p. 174

(٣) Hre de l'Empire ottoman p. 52

الحروب الصليبية تمكن التباغض بين الكنيستين

اصبح وقوع النفور بين اتباع الكنيستين عقب الانشقاق بينهما طبيعياً ، وقد اكد ذلك ما وقر في اذهان البيزنطيين من ان الفقر الذي اصابهم في عهد آل كومنانس (١٠٨٠—١٢٠٤م) هو بسبب شراهة اولئك الفرنجة الدخلاء الذين جاؤا لاستنزاف حياة بلادهم

غير ان الخطر الاسلامي كان يسكن ثائرة النفور بينهم ، ويدفعهم للتناصر على داره : فان امبراطرة بيزنطة طالما التجأوا الى ملوك الغرب وباباواتهم حينما استفحل خطر السلجوقيين وحرضوهم على اثارة حروب صليبية . وبلغ من ضروب التشويق التي بذلوها ان الامبراطور الكسي كتب (٤٨٥هـ=١٠٩٢م) الى روبرت كنت الفلمنك بعد مقدمة :

« اذا كانت كل هذه الاسباب لا تحملكم على استجابة دعوتنا ، فهل انتم مهملون ما الكم من مصلحة في بلادنا الزاهرة ؟ ففيها سواقي الذهب التي تستقون منها ، وفيها اليونانيات اجمل نساء العالم اللاتي سيكن الكم افضل مكافاة ! »[١]

وقد اثرت تلك التشويقات المتكررة في اقناع الغرب على ان يحمل على البلاد المقدسة حملاته الصليبية الثماني (١٠٩٦—١٢٧٠م) . ولكن النتيجة جاءت معكوسة فان الحروب الصليبية مكنت التباغض بين الكنيستين ، ومهدت السبل لآل عثمان .

ذلك لان الغربيين على وجه الاجمال كانوا لا يزالون همجاً ، فلما نودي الى الحرب المقدسة لم ينتظر مثيرها الاكبر بطرس الناسك اجتماع جيوش

---

(١) Lavallée Hre de la Turquie T I p. 161

الصليبيين ، وانما سارع الى الزحف في طريق القسطنطينية ، وكان صحبه (كما قال درابر عنهم) يرون بيت المقدس في كل مدينة مروا بها فما يبقون فيها على شيء ولا يذرون .

ولما كان البيزنطيون اهل مدنية وعمران كبرت عليهم اعمال الغربيين هذه ، وادركوا ماسيكون حالهم معهم اذا استمروا على اتخاذ بلاد الامبرطورية بمثابة المجاز الى البلاد المقدسة ، فانقلبوا عليهم وشرعوا يعاكسونهم .

على ان بوادر المعاكسة هذه بدأت منذ بلغ جيش القلب المنتسب للحملة الاولى الصليبية الحدود البيزنطية ، فهو لم يمر في مكدونيا والابيروس الا قسراً ، ثم انه لم يكد يتم لهذه الحملة اجتياز الامبراطورية الى بلاد المسلمين إلا ورأى نفسه عرضة للشباك التي نصبها الترك الذين تلقوا من اليونان اخبار الصليبيين واسرارهم

ثم لما بلغ الامبراطور عمانويل نبأ تجهز حملة ثانية صليبية كتب الى البابا اوجين : « ان مملكتي تأثرت لخبر الحركة الكبرى القائمة في فرنسا والتي ترمي الى انقاذنا » غير ان كتابته هذه لم تكن الا رياء ، وهو كما صرح مؤرخ يوناني ، لم يهمل مكيدة الا وكادها لهم . وفضلاً عن ذلك فقد روي عن البطريرك البيزنطي انه كان يقول عن الفرنج « كلاب وفي قتلهم كفارة للذنوب ! »

وقد هلكت هذه الحملة بمساعي اليونان ، واسر هؤلاء ملك فرنسا

وهو عائد في البحر ، ولولا نورماند صقلية لما اطلقوا سراحه (١)

كما انهم فتكوا في القسطنطينية باللاتين ، ومن نجا منهم ويبلغ عددهم نحو من اربعة آلاف ، بيعوا من الترك ارقاء ، وناهيك بتعرضهم للحملة الثالثة فيما بعد (٢)

لذلك فقد ثبت عند الصليبيين صحة رأي اهل البندقية بان فتح بلاد الروم يجب ان يكون بمثابة المقدمة للاستيلاء على البلاد المقدسة ، فتوفقت بذلك الحملة الرابعة الصليبية ، وانشأوا امبراطورية لاتينية في القسطنطينية .

غير انه يستفاد من احتجاج البابا اينوسان عـلى الصليبيين انهم استسلموا حين تم لهم ذلك الى عواطفهم الثائرة فقد قال :

انهم ارتكبوا الفجور علانية ، وتركوا بين انياب خدمهم الضواري المحصنات والعذارى اللواتي كرسن انفسهن لله ، وبسطوا ايديهم على كنوز الكنائس حتى بلغ منهم انهم لم يوقروا الآنية المقدسة ولا رفوف المذبح الفضية وانما كسروا الاواني المقدسة ، وخطفوا الصلبان والذخائر » (٣)

وقد تسنى للاتين ان يحتفظوا بارفعوه من عرش لهم في القسطنطينية مدة ٥٧ سنة كانت على الروم اطول من آلاف الاجيال لما قاسوه تحت حكمهم من أساليب الانتقام . وبسبب هذه الاساءات المتبادلة تمكن بينهم التباغض الى حد ان الشعب الرومي صار يفضل حكم المسلم على

---

(١) Lavallée, Hre. de la Turquie T I p. 162-163

(٢) Hre de l'Empire Ottoman p. 110

(٣) Drapper. Hre. du dev Int de l'Europe T II p. 337

الكاثوليكي ، وان اللاتيني اصبح يشمت بمصائب البيزنطي . اعتبر ذلك بما حصل في عهد ميخائيل باليولوج فانه لما احاق خطر السلاجقة الترك بالقسطنطينية حاول ان يحرك في الغرب النعرة الدينية ، فارسل الى مجتمع ليون الذي كان يرأسه غريغوريوس العاشر وثيقة تشعر باعترافه واعتراف خمسة وثلاثين مطراناً من قومه الارثوذكس بضم الكنيستين ، ولكن مساعيه ذهبت ادراج الرياح تجاه معارضة الشعب له (١) وضنهم باستقلالهم المذهبي ضناً صار يفوق خوفهم من الخطر التركي

استفادة آل عثمان من تمكن التباغض بين الكنيستين

في اثناء حدة التباغض بين اتباع الكنيستين الغربية والشرقية نشأت السلطنة العثمانية ، وقفزت الى الجانب الاوروبي ، وشرعت ولا سيما في عهد مراد خداوندكار تلتهم الامبراطورية البيزنطية قطعة قطعة

وحينئذ كان على امبراطرة بيزنطة اما ان يستسلموا الى قلوبهم فيستمروا على مقاطعة الغربيين ويتلقوا الخطر التركي ، واما ان يلجأوا الى المصانعة فيعملوا على اقناع اللاتين بان يمدوهم بالنجدات التي تدفع ذلك الخطر

ومن البديهي ان يختار الحكام الشق الثاني ، وهم الصق الناس بما في التيجان من لذة . واما الروم على وجه عام فكانوا اضن بمذهبهم من امبراطوريتهم ، ولذلك بالاضافة الى ما كانت عليه حالة اوروبا الروحية في

---

(١) Hre de la Turquie T1 p. 167

عهد الفتح العثماني ذهبت كل المساعي لضم الكنيستين سدى :

فقد خف القيصر حنا باليولوج بنفسه الى اوروبة سنة ٧٧١ هـ = ١٣٦٩ م واعترف بحضرة البابا انه يؤمن بعقيدته ويخضع لسلطته [١] ولكنه عاد بدون جدوى : لانه فضلاً عما صار اليه نفوذ الكنيسة من الضعف فانها كانت وقتئذ على غير وئام مع عواهل اوروبا

ثم سافر الامبراطور عمانويل (١٣٩٠—١٤٢٥م) الى باريس ولوندره، حينما اشتد خطر آل عثمان في عهد يلديرم بايزيد، ظاناً ان الالتجاء الى عواهل اوروبا اجدى من الرجوع الى المقام الرسولي [٢]، وشكا وتسكع، غير انه لم يلق من فرنسا وانكلترا سوى سماع عبارات الاسف فرجع كما رجع حنا قبله خائبا [٣]

على ان الامبراطور حنا الذي خلفه، اضطره تقدم مراد الثاني الى ان يعيد الكرة، فقصد الى ايطاليا (٨٤٢ هـ = ١٤٣٨ م) وعلى رغم اعترافه بضم الكنيستين والاحتفال بذلك رسمياً فانه رجع بخفي حنين نظراً لما كانت عليه حالة الكنيسة الغربية وقتئذ من الاضطراب [٤]

وما كان اخوه قسطنطين ليحاول بعده ان يستمد النصرة من الغرب، وقد كان له في اسلافه عبر، لولا انه اوشك ان يسقط في فم الاسد : فلما شعر بان محمداً الفاتح يكاد يلتهم القسطنطينية مقر الامبراطرة

---

(١) Drapper. Hre. du dev. Int. de l'Europe T III p. 2-3

(٢) Ansart et Rendu. Hre de l'Europe p. 138

(٣) V. Dury. Hre des temps modernes 1453-1789

(٤) Drapper. Hre du dev. Int. de l'Europe T III p. 3

البيزنطيين استصرخ قسطنطين باوروبا ، وبدلاً من ان يتلقى النجدات المنتظرة حضر مندوب بابوي ليقوم فعلاً بمهمة ضم الكنيستين

وحينئذ وقد علم الشعب بالحفلة التي اقيمت لهذه الغاية في كنيسة اجياصوفيا تحت رآسة الامبراطور ، ثار واي ثورة وفي مقدمتة الرهبان والاكليروس ، وصاح بعضهم قائلاً « الترك ولا اللاتين » . كما ان هذا الشعور لم يقتصر على العامة بل شمل الخاصة ايضاً : فان البطريرك جناديوس والاميرال الكبير نوتاراس صرح كل منهما بانه يختار ان يرى في القسطنطينية عمامة السلطان بدلاً من قبعة الكردينال [1]

وقد تم لهما ما اختاراه ، فلم يلبث محمد الفاتح ان استولى على عاصمة الامبراطورية ، فلاشى سلطة الروم الزمنية الى اجيال

....

ان انشقاق الكنيستين لم يقتصر على افادة تركيا في فتح الامبراطورية البيزنطية فحسب ، كلا وانما خدمها في حروبها مع كافة الممالك الارثوذكسية مذهباً ، كما ساعدها في قتالاتها مع سواهم من الحكومات المجاورة :

فان جيش يلديرم بايزيد ، على رغم ان خصمه الكاثوليكي ملك المجر سيجيسموند دعا الى حرب دينية ، كان يضم بين صفوفه من السربيين والبوسنيين والروم بقدر ما كان فيه من المسلمين [2] كما ان قرال السرب برنكوفتش ، وقد علم بان هونياد ملك المجر جاء لنجدته وانقاذه

---

(١) Lavallée Hre de la Turquie T ı p. 160-164

(٢) Hre de l'Empire Ottoman p. 139

من محمد الفاتح، فضل ان يقبل سيادة المسلمين على منة الكاثوليك (١٤٥٤م)

وقيل في سبب ذلك ان ملك السرب كان قد استجوب كلاً من العاهلين عن بعض الشؤون المذهبية فيما اذا دخل مملكته. وبينما كان يستشم من جواب ملك المجر ريح التعصب وانه يريد، لقاء مساعدته، تأييد المذهب الكاثوليكي، جاء رد سلطان آل عثمان مطمئناً واعداً بانه سيعمر مقابل كل مسجد كنيسة تؤدي بها الرعية الشعائر الدينية بكمال الحرية[1]

هذا وينسب الى رهبان السرب انهم هم الذين افشوا الى سليمان القانوني، وهو على حصار قلعة بلغراد، سر الالغام التي وضعها المجر تحت القلعة بعد ان عجزوا عن حمايتها، لتودي بحياة العثمانيين حينما يدخلون القلعة، ولم يفعلوا ذلك الا بغضاً بالكثلكة وكرهاً باهلها[2]

والامثلة على ذلك كثيرة وكلها عدت في جملة ما أُعد لخدمة آل عثمان في عهد الفتح مما يؤيد قول الشاعر : اذا اقبلت كادت تقاد بشعرة ...

---

(١) Hre de l'Empire Ottoman p. 164

(٢) idem p. 215

٧

ما الذي ساعد على فلاح العثمانية

« المساعدات الأخلاقية والروحية في العالم المسيحي »

في هذا الجزء البحث عن العوامل المعنوية الخارجية في العالم المسيحي التي ساعدت على فلاح آل عثمان. فيدخل فيه الكلام على كل من الارثوذكس والكاثوليك في اوروبا ومفاعيل المدنية العربية في تطور احوالهم

فهرست الجزء السابع

الجزء السابع

اعتاد اكثر المؤرخين ولا سيما في الشرق ، اذا ما تعرضوا للابحاث الدولية ، ان يقتصروا على اسناد اسباب النجاح او الفشل الى ما يقع امـام الانظار من الحوادث والوقائع الحربية ، مع انا لو انصفنا وانعمنا النظر ملياً لالفينا ان لهذه الحوادث والوقائع اسباباً اخرى هي بمقام الاصل من حيث التأثير على مقدرات الخلق ، تلك هي التي تشع عن اخلاق وروح الامة

ولذلك فانا ايفاء للموضوع عولنا على ان ندرس في هذا الفصل مـا كان لآل عثمان من المساعدات المعنوية في اخلاق وروحية العالم المسيحي على قسميه الارثوذكسي والكاثوليكي وبعد ان ننهي البحث في كل قسم على حدة نعقد فصلًا اجمالياً نأتي به على خلاصة ما بسطناه

المساعدات المعنوية

« في الممالك الارثوذكسية »

اذا استثنينا الامبراطورية البيزنطية يمكننـا ان نقول ان الدول الارثوذكسية كافة كانت في عهد الفتح العثماني على شيء من طبائع البداوة ومـا فيها من الانفة وحب الرياسة مضافة الى سوء الادارة والسياسة .

اجل بينما كان آل عثمان يكتسحون الامصار تباعاً وسراعاً ويوطدون

سلطانهم فيها ، كان امراء السرب والبلغار والفلاخ والبغدان يتنازعون على التيجان ، ويسيء المتغلبون منهم سياسة حكوماتهم ، فيزيدونها ضعفاً على ضعف

خذ السرب مثلاً ، وهي زعيمة الممالك الارثوذكسية البلقانية ، وذات اللغة والعنصر السائدين في تلك الانحاء ، واعتبر بما قاله عنها لافاليه :

« ان شعباً كهذا يقدَّر له مستقبل زاهر ، ولكن العنصر السلافي لم يؤثر عنه شيء في القرون الوسطى ، كما ان الفرع المنتسب اليه الألليراني [1] هو وان يكن باسلاً خيالياً الا انه متهاون صاحب خفة ، وقليل الطموح والتبصر محافظ الخ » [2]

وتقاس على السرب الحالة المعنوية في بقية الدول البلقانية . وكذلك فان الامبراطورية البيزنطية وان امتازت عنهن بالتمدين الا انها كانت تتخبط في عللها الروحية القديمة ، واخصها المشاحنات الدينية والنقائص الاخلاقية

بلى . ان المشاحنات الدينية تكاد تكون مجبولة في طينة الامبراطورية البيزنطية ، فقد كان الدافع لتشييد عاصمتها القسطنطينية غاية دينية . ثم اصبح اليونان عصبية الدولة ، وهم المعروفون بالهوس بالامور الفلسفية والمذهبية ، ولذلك لم يخل عهد من عهودها من هذه المشاكسات والمجادلات

ففي عهد آل تيدوس وآل تراقيا حصل النزاع مع النسطوريين ثم مع اتباع افتنجيس ووقع الاضطراب في المملكة بسبب استلام الامبراطرة زمام السلطة الروحية

وفي عهد آل يوستنيان نشأ الحزبان الدينيان السياسيان : الزرق انصار الامبراطور

---

(١) Illyrieune نسبة الى مقاطعة قديمة غسوية تجمع الان ما بين كارنيول وكارنتي وتريسته

(٢) Lavallée, Hre. de la Turquie T ı p. 205

يوستنيان ، والخضر خصومه الموصومون بوصمة الهراطقة ، وادى تطاحنهما الى اضمحلال المملكة

وفي عهد آل هرقل ، وضعت على بساط الجدل مسائل طبيعة الله ومشيئته والصلب والتثليث ، فبلغ العرب اسوار القسطنطينية ، والبيزنطيون في خصوماتهم الدينية لاهون .

وفي عهد آل ايزوريان نشأت فكرة تجريد الكنائس من التماثيل والصور ، تمثلا بالمساجد ، فتقاطعوا مع البابوية واضاعوا البقية الباقية من سيادتهم على ايطاليا .

وفي عهد العائلة المكدونية حدثت ثورة البطريرك فوتيوس (٨٧٥ — ٨٨٦ م) على المقام البابوي التي ادت الى انفصال الكنيستين فيما بعد (١٠٥٤ م)

وفي عهد آل كومنانس تمكن التباغض والتنازع المذهبي بين الروم والكاثوليك

غير ان الخطر التركي الذي استفحل امره في عهد آل باليولوج كاد يصرفهم عن هذه المشاحنات وينزع بهم الى وحدة الكنيستين املاً بالحصول على نجدة الغرب . ولكن احوال اوروبا السياسية والروحية جعلت هذه النزعة في جملة المساعدات التى خدمت آل عثمان وعملت على نجاحهم : اذ عدا عن عدم استعداد الكاثوليك لانقاذ الروم من العثمانيين ، فان محاولة امبراطرة بيزنطة اعادة الكنيسة الارثوذكسية الى احضان البابوية كانت تثير المنازعات المذهبية في مملكتهم ، وتروض افكار رعيتهم تدريجاً لقبول حكم المسلمين : وذلك لان البيزنطيين صاروا اذا رأوا قسيساً لاتينياً يصلي في ايا صوفيا يرفعون عقيرتهم ساخطين ، ويقول قائلهم ما قاله القائد نوتاراس : « احب اليَّ ان ارى القسطنطينية خاضعة للعمامة الخضراء من خضوعها الى تاج البابا »

واذا صح ما رواه بطرس لاروس القائل انه بينما كان قسطنطين دراكوزس يدافع بشجاعة عن كرسي مملكته كان القسس منهمكين

في مباحث تافهة مذهبية [١] فاذا صح ذلك تكون تلك الامة قد بلغت وقتئذٍ من الانحطاط المعنوي حداً لا سبيل بعده للمحافظة على الاستقلال

هذا واما حالة تلك الامبراطورية الاخلاقية ، فهي ايضاً اصيلة في تاريخها ، وترجع الى الشعب الذي تشكلت منه تلك الامبراطورية : فان الامراض الاجتماعية التي قضت على الدولة اليونانية كانت لاتزال فاشية بين الهيلانيين حينما صاروا عصبية المملكة البيزنطية ، فرافقت تلك الادواء عهودها كافة بما فيها عهد ازدهارها . واليكم ما اورده بلانشه وتوتان عن حكم يوستنيانس :

« ينبغي ان لانغتر بالازدهار والنجاح الخارجين اللذين حدثا في عهد يوستنيانس، ونسدل الطرف عما وراءهما من الانحطاط المعنوي ذلك الانحطاط الذي لايسلم منه عميد من عظماء ذلك العصر : فدونك الامبرطور يوستنيانس نفسه ، فهو ولئن اتصف ببعض صفات الابطال، الا انه كان جباناً الى حد النذالة . وكان ناكراً للجميل حتى لاخصائه . وكذلك بالزار الذي تجمله الحكايات فانه كان عبدًا ذليلًا لمولاه ، وهو على شرف مبدإه وكفاءة شخصه الحربية ، لم يكن ليترفع امامه عن احط خساسة . ولا تنسى شح نرسس المشين ولا خداع تريبونيان : فقد كان هذا يتقن فن النفاق اتقانه الشرائع الرومانية . واما النسوة فحسبهن دلالة على انحطاط اخلاقهن ان الملكة تيودورا كانت رقاصة ، وكل ما بذلته من الهمة على العرش لا يكفر المعاصي التي حاقت بحياتها . ومثلها انطونينا زوجة القائد باليزار ، وهي شهيرة بالفسق شهرة بعلها بالانتصار [٢] »

وقد اخذت العلل الاخلاقية تزداد بازدياد العمران والحضارة البيزنطية ، ولا سيما في عهد العائلة المكدونية (٨٥٨هـ=١٠٥٧م) ولما صار

---

(١) Dictionnaire Larousse p. 951

(٢) Hre du moyen âge p. 90-91

الأمر الى آل كومنانس كانت جراثيم تلك العلل قد لقحت الهيئة الاجتماعية .
وقد وصف المؤرخ لويتبرند Luitprand القسطنطينية وهو معتمد الامبرطور اوتون الاول الالماني عند البيزنطيين بقوله :

« ان هذه المدينة التي كانت غنية وزاهرة من قبل هي الان مستقر العار والكذب وبؤرة الخيانة والمداجاة والشره ، ومستودع البخل والزهو »[١]

وعلى رواية درابر فان تلك الرذائل ما فتئت آخذة في الزيادة من بعد لويتبرند ، وما رواه حق ، فانه قد بلغ من سقوط اخلاق البيزنطيين ، حسبما جاء في تاريخ جودت باشا ، انهم لما عقدوا مجلساً للمذاكرة باجياصوفيا حينما طوق السلطان محمد الفاتح عاصمتهم تزاحموا على التقدم بالجلوس تزاحماً اوصلهم الى التضارب بالكراسي[٢]

لذلك فانهم ما لبثوا الا قليلا حتى خضعوا للعمائم الخضر و « ان الارض يرثها عبادي الصالحون »

المساعدات المعنوية

« في الممالك الكاثوليكية »

لم يكن تخلف اوروبا عن نجدة الروم على الترك للاسباب السياسية التي كانت عليها ، والتي كانت بينها وبين الارثوذكس فقط ، وانما كان الباعث الاساسي لسد اوروبا اذانها عن الدعوة الجديدة للحروب الصليبية ما حدث فيها اثناء الفتح العثماني من انقلاب الافكار وضعف

---

(١) Drapper, Hre. int. de l'Europe T ii p. 340

(٢) تاريخ جودت باشا ج ١ ص ٤١

النعرة المذهبية ، وتخاصم الايكليريكين والعلمانيين

وسنلم هنا بتطور هـذا الانقلاب ، وما كان للمدنية العربية من التأثير على بعثه ، بواسطة الاندلس والحروب الصليبية ، حتى ننتهي به الى حيث يرى القارىء الكريم تلك المساعدات التي حصلت لآل عثمان من عدم اجتماع اوروبا على دفعهم

تأثير المدنية الاندلسية

لا نتعرض لايضاح انحطاط اوروبا العظيم حينما اكتسحها الاندلسيون ، كما انا لا نحاول تبيين ما بلغته المدنية العربية في الاندلس من الازدهار ، لان كلا من ذلك ولئن كان يلذ ويفيد ولكنه يخرج عن موضوع الكتاب . وانما نكتفي من باب التمهيد ان نورد كلمة قالها في هذا الشان صاحب كتاب الامبرطورية العثمانية :

« حينما كان اصحاب المقامات الرفيعة من الغربيين في القرن الحادي عشر ، ذوي الأخلاق الفظة ، يفاخرون بأميتهم ، كان للاندلسيين مكتبة في قرطبة ، فيها ستون الف كتاب خطي .

وفي اثناء ماكان العثور على كتاب واحد في كل من فرنسا والمانيا وايطاليا في القرن الثاني عشر ، يعد من النوادر ، كان الاندلسيون ينتقلون ما بين سبعين مكتبة ، فيها كتب قيمة

ولما حنت اوروبا للعلم بادرت لاقتباس النور الى اطراف الوادي الكبير « الاندلس » حيث كانت تشع كل من جامعات قرطبة وطليطلة وبلنسية »(١)

---

(١) «Hre de l'empire Ottoman p. 87



« ابن رشد فيلسوف الاندلس في مجلس علم »

وكان يتقدم الى الاقبال على المدنية العربية الاقربون من الفرنج الى الاندلس فمن بعدهم : سبق الى ذلك الاسبان حتى تعربوا ، ونظموا الشعر في لغة القرآن ، ثم تبعهم اهل جنوب فرنسا ، حيث تخلف فريق من العرب والمستعربين بعد اجلاء الجيوش الاندلسية عن تلك الديار فكان لهم كل التأثير في انقلاب التقاليد والاخلاق « وعدا الملامح العربية التي صارت تلوح على فريق من اهل تلك البلاد ، وفضلاً عن اسماء عربية احتفظ بها بعض الاماكن ، فقد بلغ من تأثير الاندلس فيها ان اساقفة ماكولون(١) حكام ذاك الثغر ضربوا نقداً خط بالكوفي وضرب في احد وجهيه : لا إله الا الله محمد رسول الله ، وبالآخر صورة الحاكم واسمه(٢) »

---

(١) Maguelone كان ثغرا ومقاماً لاسقفية قديمة وهو ليس بعيداً عن مصب نهر الرون

(٢) Jouannin & vangaver L'univers, Turquie p.4

ولما رقي شارلمان الكبير الى العرش (١٥١ هـ = ٧٦٨ م) ثم توج بتاج امبراطرة الغرب ، وكان مفكراً ، رأى من متممات عظمة دولته التمثل بملوك العرب المعاصرين : آل العباس في العراق وآل امية في الاندلس . فانشأ مجمعاً علمياً تحت رئاسته ، واقام في القصر مدرسة ملكية ولى على ادارتها الكوين[١] وانشأ على نسقها مدارس عمومية في جوانب الكنائس والاديرة[٢]

وكان مقام البابوية قد صار له نفوذ عظيم في اوروبا ، ولقاء خدمته شارلمان في تثبيته اياه على عرش امبراطورية الغرب تسامح هذا العاهل مع البابا في تداخله بالشؤون السياسية ، واستمر من بعد المقام البابوي على هذا التداخل حتى صار لهم تدريجاً حقاً مشروعاً

ولما مات شارلمان قضى على ما قام به من الاصلاحات العلمية ما حدث بعده من الفوضى السياسية والغارات الاجنبية .

وكانت المدنية العربية في الاندلس قدنضجت ثمارها ودنت قطوفها حتى صارت مطمح نفوس مفكري الغرب ، مثل الراهب كوتشالك[٣] وسكوت اريجان[٤] وسواهما

(١) Alcuin عالم انكليزي شماس كنيسة يورك

(٢) Ab. p. c. Nicolle Mnémonique de l'histoire universelle

(٣) Gottochalk الماني ولد ٨٠٨م ساح في اوروبا الشرقية كثيراً واسيا الصغرى وسجن حتى مات سنة ٨٦٧ لقوله بالقضاء والقدر (٤) Scot Erigene انكليزي ولد ٨٣٣ م ساح في اليونان فاقتبس فكرة التوفيق بين الفلسفة والدين وخلود المادة وقال بعدم تحول مادة الخبز والخمر الى جسد المسيح فعد من الهراطقة ومات ٨٨٠ م

ولكن الكنيسة ادركت عاجلا ما في اقتباس المدنية العربية من الخطر ، فحالت دون اماني اولئك المفكرين .

ومن الامثلة على ذلك مناوأتها شارل الثاني حفيد شارلمان في القرن التاسع واتهامه بالكفر [١] : لان جون اريجان العالم الانكليزي الذي نصبه الملك رئيساً للمدرسة الملكية ، ترجم عن العربية وسواها بعض العلوم الفلسفية والافكار الحرة

غير ان الظروف ساعدت وقتئذ على النهضة بما تم من انتخاب احد تلامذة العرب للمقام الرسولي ، وهو سلفستر الثاني الفرنسوي

كان اسم هذا البابا جربر ، فبينما كان يدرس في دير بمدينة اورياك حرك ذكاؤه اعجاب بورهل كنت برشلونة ، فاخذه معه الى الاندلس فاقام جربر في اشبيلية ثم في قرطبة ، وتخصص لدرس الحساب والطبيعيات على رياضيين متعددين من العرب [٢] .

ولما عاد لأوروبا ، متبحراً بالعلوم والمعارف ، حسبه الناس ساحراً ، واتخذه الملوك مؤدباً لاولادهم ، وتقلب في المناصب حتى احرز رتبة البابوية [٣] (٣٩٠هـ=٩٩٩م) بمساعدة اوتون الثالث امبرطور المانيا .

ولكن الرجعيين سرعان ما تمكنوا من قتل الامبرطور بالسم ثم الحقوا به البابا ، ولولا ماحدث بعد انقضاء سنة الألف للميلاد من النشاط والامل لقتلوا معهما روح التجدد

---

(١) Drapper. Hre int. de l'Europe Tm p. 13

(٢) Mouv. Larousse Illustré Tm p. 875

(٣) المقدسي تاريخ علم الادب عند الافرنج والعرب ص ٩٨

فقد كان الاوربيون يتوقعون انقضاء اجل الحياة الدنيا في تلك السنة ، فتغلب عليهم الخوف والخشوع واليأس ، حتى اذا زال ذلك الوهم ، هبوا للعمل والتفكير ، واصبحت تربة اوروبا خصبة للبذور التي كان يلقيها تلامذة عرب الاندلس [1] .

بيد ان الكنيسة كانت لا تزال بالمرصاد لاولئك وانصارهم ، وكلما ظهر واحد من طالبي الاصلاح المتجددين اضطهدته وجعلته عبرة لسواه :

فلما هب بهرانجه دوتور [2] يشرح رأي سكوت اريجن حرم في ثلاثة مجامع وخير بين الرجوع عن اعتقاده وبين الموت ، فتراجع .

ولما انكر بطرس ابيلار [3] التثليث والقول بان الدين فوق العقل حرم ومات مضطهداً .

وشرعت الظروف من بعد تفسح المجال لتغلب الافكار الحرة على المحافظة بما انضم من الملوك الى اصحاب هذه الافكار ، بسبب احراج الكنيسة اياهم ، وعما حدث في نفوسهم في الحروب الصليبية من التطور الاخلاقي :

وساعد على ذلك اولا انتشار علماء اليهود تلامذة عرب الاندلس في انحاء اوروبا ، وثانياً التجاء فريق من علماء المسلمين الى عواصم اوروبا السياسية والعلمية مذ وقعت اهم مدن الاندلس بيد الاسبان .

ومنذ القرن الحادي عشر صار كل اطباء اوروبا تقريباً من اليهود

---

(١) Ab. p. c. Nicolle Mnémonique de l'histoire universelle p. 51

(٢) Beranger de Tours افرنسي ولد ٩٩٨م ومات ١٠٨٨

(٣) P. Abélard افرنسي ولد ١٠٧٩م ويقال انه تعلم في الاندلس ومات ١١٤٢

ثم صار السواد الاعظم من اساتذة الكليات الكبرى فيها منهم ومن المسلمين : نذكر مدارس تارانت وسالرن وباري ونابولي في ايطاليا وناربون وجامعة مونبيليه في فرنسا وغيرها ، وكان يدرس في هذه المدارس مع اللاتينية كل من العربية والعبرانية[1]

تأثير الحروب الصليبية

كما كانت الاندلس ، على الغالب ، مصدر تنوير الخاصة في اوروبا لاختلاط فريق منهم باهلها ، ولالتجاء آخرين لمعاهدها العلمية ، او للمدارس الاوروبية التي علم فيها الاندلسيون والمستعربون ، فان الحروب الصليبية كانت العامل على تنوير العامة خاصة ، وهم سواد الناس فاتمت المهمة التي بدأت به الاولى . قال بلانشه وتوتاني :

« لم تحصل عن الحروب الصليبية النتائج التي كان ينتظرها المسيحيون : فقد لبث بيت المقدس بيد الكفار , ولكن تلك الحملات البعيدة التي جعلت شعوب الغرب في تغالب مع اهل الشرق مدة نحو ثلاثة قرون ، كان لها تأثير عظيم على مدنية الاجيال الوسطى : فانها عجّلت انماء النهضة السياسية والاجتماعية ، التي كانت تتحفز للظهور ، ونشطت الصناعة والتجارة ، فهيأت اسباب النهضة العلمية والصناعية

(النتائج السياسية والاجتماعية) عملت الحروب الصليبية على تحرير طبقة الزراع والعامة : ذلك لان الاشراف كانوا ، متى عزموا على السفر لفلسطين ، يبيعون من الفلاحين حقوقهم واراضيهم ايضاً ، ويعفون سكان المدن من ضرائب شتى . وناهيك بما كان لتلك الحروب من تقريب الشريف الفارس من العامي المسلح ، في اثناء المصائب والاخطار العامة .

---

(١) Drapper, Hre du dev. intellectuel de l'Europe T II p. 357-360

(النتائج الاقتصادية) فضلاً عما اصابته الزراعة من النجاح في الحروب الصليبية ، لما عرفه الغرب وقتئذ من الاصناف (عددها المؤلفان) التي لاتزال اسماؤها عندنا عربية ، فان الصناعة اقتبست من الشرق اختبارات جديدة ، فالى تلك الحروب يرجع الفضل في معرفة صنع السكر من القصب السكري ، ونسج الاقطان والحرائر والمخامل الدمشقية والكريشة ، والموصلي . وان طنافسنا التي هي على منوال الشرق كانت تعرف بالطنافس العربية . واما الاسلحة فكانت تعمل على نسق صنعة دمشق وطليطلة .

على انه قد حدث ايضاً تجدد في الصناعة عموما حتى صارت معامل الخزف والزجاج والمدابغ تاتي بانموزجات كانت مجهولة من قبل لدينا

هذا وقد عادت ايضاً في الحروب الصليبية الحياة التجارية الى البحر المتوسط : فقد قامت وقتئذ حركة شديدة بتبادل السلع ما بين اوروبا وثغور الشرق ، فاشتهرت منذ ذلك بعض المدن الايطالية (عددها المؤلفان) وكان لمرسيليا النصيب الاوفي من النجاح

(الانشاء والعلوم والفنون الجميلة) ان منظوماتنا الاولى الحماسية ظهرت في اثناء الحروب الصليبية ، كما ظهر وقتئذ اول تاريخ كتب بالافرنسية بقلم علماوي ، وما كان منشآنا الاولان فيلهاردون وجوانفيل الا من الصليبيين ايضاً .

ومن ذلك الوقت بدأ عهد ارتقاء العلوم ، فادخلت الى الغرب الارقام المسماة عربية وقامت مقام الرومانية . وان مصدر اسم علم الجبر ، الذي اتقنه العرب ، هو من لغتهم وان العرب هم معلمونا الاولون لعلوم الفلك والطبيعيات والكيميا والطب . وان كلا من جامعتي سالرن في ايطيا ومونتبالیه في فرنسا مدينة بشهرتها لمجاورتها للعرب .

واما الفنون الجميلة فان الغرب مدين بها كثيراً لليونان عموماً وللعرب خصوصاً : فقد اكتسبنا من هؤلاء مالا يحصى من مظاهر الزينة : كالنقش العربي Arabesque واليوناني ، والفسيفساء ، ورسوم الجدران ، والطنافس ، والخزف . »[1] (*)

---

(١) Blanchet J. Toutani, Hre du moyen âge p. 265-267

(*) قال جوانان وفان كوفر « ان الهندسة التي تسمى بغير حق قوطية ليست هي الا هندسة عربية مزخرفة ومتطورة على حسب مايلائم مناخ بلادنا »

على ان التأثير الاعظم للحروب الصليبية كان من حيث الانقلاب الفكري : فقد بلغ من انقلاب الافكار عقب الحروب الصليبية ان الهرطقة (حسب تعبيرهم) فشت بين رهبان الفرنسيسكان و والدومنيك الذين كانوا اتباع الكنيسة المخلصين، وتغلبت في الاكثر على الذين خالطوا المسلمين اوفر من سواهم . اعتبر ذلك باخوية الهيكليين Templiers . فلما عادت من فلسطين وانتشرت في انحاء اوروبا شرع اعضاؤها يصرحون بأن محمداً ليس مضلاً زنديقاً ، بل هو صاحب دين توحيدي شريف طاهر. وان صلاح الدين ارفع مما يصمونه به من السفك والخيانة والكذب، وانما هو شجاع انيس . ولما خيف من افكارهم القي القبض عليهم واعدموا.

ولكن افكارهم، شأن افكار امثالهم، يحييها اضطهاد وموت اصحابها : فقد انتصب من بعدهم مفكرون انصرفوا لتأييد الاصلاح . نذكر منهم ، ويكلف الانكليزي[1] ، وحنا هوس[2] وزميله جروم دوبراك[3] البوهيميين . ثم خلفهم خلف نسجوا على منوالهم فكان بينهم وبين المقام البابوي حرب دائمة اندحروا فيها مرات ولكنهم ثبتوا حتى صارت العاقبة الطيبة لهم.

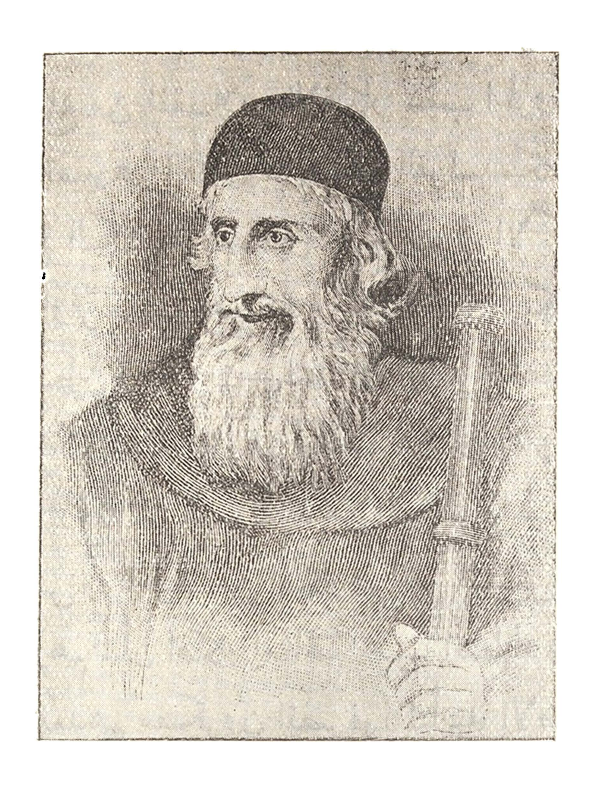
هذا وكما كان في تخاصم اصحاب السلطتين الزمنية والروحية عون لانقلاب الافكار وتجددها فقد كان في ذلك ايضاً فرصة سانحة لتغلب آل عثمان ونجاحهم.

---

(١) J. Wiclef 1324-1384

(٢) J. Huss 1373-1415

(٣) J. de Pragues 1378-1416



« ويكلف ولد١٣٢٤ وتوفي ١٣٨٤م وهو احد ضحايا الاصلاح الديني »

ظهور الكنيسة على المملكة وتأثيره

كان امبراطرة المانيا قد تداخلوا في تثبيت وتعيين بعض المرشحين للوظائف الكنسية فاستحوذوا ، بواسطة ذلك ، على سلطة واسعة في الشؤون الروحية . فثقل على الباباوات نفوذ الامبراطرة ، وحدثت عندهم منذ القرن الحادي عشر حركة يراد بها ، فضلاً عن تحرير الكنيسة من سيادة الالمان ، ترجيح كفة سلطتها على السلطة الزمنية . وكان بطل هذه الحركة البابا غريغوريوس السابع (١٠٧٣ــ١٠٨٥م)

وقد نجح هذا البابا في هذه المهمة نجاحاً باهراً حتى ارغم الامبراطور

هنري الرابع الالماني على الشخوص الى رومية سنة ١٠٧٧م لابساً لباس التائبين . واوقفه اياماً على الثلوج امام قلعة كانوسا منتظراً السماح له ليمثل بين يديه ويقدم له الطاعة !

ثم تمكن خلفه البابا اوربان الثاني من اشعال نيران الحروب الصليبية فاستطاع بذلك ان يجعل رجال اوروبا وثروتهم تحت تصرفه وتصرف خلفائه حتى بلغ من نفوذهم بعد جيل ان البابا اسكندر الثالث صرح علناً ان للبابوية وحدها ان تمنح تاج الامبراطورية .

وقد بلغت سلطة الكنيسة ذروة مجدها في عهد اينوسان الثالث (١١٩٨—١٢١٦م) فان هذا البابا صار يصدر اوامره الى فيليب العادل وحنه سان تير . وشرع يتوج بتاج الامبراطورية تارة اوتون الخامس، وطوراً فردريك الثاني، فضلاً عن تصرفه بتيجان المجر والدانيمرك وقشتاله[١] فاشتدت وطأة تداخل البابوية في الشؤون الدنيوية على عواهل اوروبا، ولاسيما لما كانت تجمع من الاموال باسم الحروب الصليبية حتى كادت تخرجهم: فقد ذكر درابر، ان ملك فرنسا، فيليب العادل، المشار اليه كان يقول: «آه . ان صلاح الدين (الايوبي) هو ولا شك سعيد، فما فوقه بابا، وانني لأود ان اكون مسلماً مثله.» وروى ايضاً انه بلغ من يأس حنا ملك انكلترا وتضجره انه ارسل مرة يعلم صلاح الدين برغبته في اعتناق الاسلام[٢]

على ان وطأة البابوية ما لبثت ان تعدت الملوك وصارت عبئاً ثقيلاً

---

(١) E Granger. Petite Hre. universelle p.96

(٢) Drapper. Hre du dev. intellectuel de l'Europe T 11 p. 333-334

على الشعوب ايضاً ، ولا سيما لما ابداه البابا اينوسان المذكور من الشدة في تعذيب المخالفين ولمّا كانت افكار التمدن العربي وتقاليده قدتمكنت من نفوس اهل اوروبا حتى اباح فريق منهم الزواج بمثنى وثلاث ورباع اوجس البابا خيفة من ذلك ولجأ الى الغلظة في المعاملة . فحمل على فرنسا تلك الحملة المعروفة بالالبية Albigeoise التي خربت بلاد الجنوب وكانت مصدراً لمجلس التفتيش الغشوم.[1] ولكن الشدة لاتقف طويلاً في وجه روح العصر ، وانما كانت في جملة العوامل التي ساعدت على انتصار الملكية على البابوية.

تغلب الكنيسة وفردريك الثاني

ولد فردريك في جاسي (Jisie) بايطاليا (٥٩١هـ=١١٩٤م) وتوج ملكاً على صقلية سنة (٥٩٤هـ=١١٩٧م) فالمانيا سنة (٦٠٨هـ=١٢١١م) ثم امبراطوراً (٦١٧هـ=١٢٢٠م[2])

وكانت صقلية ، التي قضى ايامه الاولى فيها ، جزيرة تتغلب عليها الصبغة العربية ، لدخولها في حوزة العرب ، ولم يؤثر الفتح النورماندي في حال التعليم فيها لقلة عدد الفاتحين فظل المقام الاول فيها للمسلمين وللغتهم . فعول عليهم الملوك في التعليم وفي الجندية والبحرية والقضاء والسياسة ، ومنحوهم الثقة الكاملة حتى كانوا كثيراً ما يوفدونهم في

(١) E granger, Petite Histoire univercelle p. 96

(٢) Nouvean Larousse illustré TIV p.764

المهام السياسية الى روما وسواها [١]

وشب فردريك في اثناء ذلك فنشأ طبعاً على حب العرب وعلى التعلق بافكارهم وتقاليدهم. وفضلاً عن اتقان لغتهم، تحداهم وتمثل بهم، وانشأ له حرساً خاصاً منهم، وجمع حوله حاشية من مفكريهم بينها ولدا الفيلسوف ابن زهر Averroës [٢]. وبلغ منه حب تقليدهم انه جرى مجرى الخلفاء في الاستكثار من الجواري، وتشييد القصور لهن وعليها الخصيان [٣]



المطران بيكت يؤنب هنري الثاني ملك انكلترا تأنيباً اثار عليه رجال الملك فقتلوه سنة ١١٧٠م

كل ذلك اثار حفيظة البابا غريغوريوس التاسع عليه، فاتخذ حجة لاصدار الحرم عليه في تلكإ فردريك عن الذهاب بحملة على بيت المقدس. وكان لفردريك انصار كثيرون في روما فثاروا على البابا واضطروه الى الفرار من وجههم. ومع ذلك فقد رأى فردريك مسايرة الرأي العام فحمل

(١) جرجي زيدان الهلال ع ١٩ ص ٢٧٠—٢٧٣

(٢) Drapper. Hre. Int. de l'Europe T II p. 352

(٣) جرجي زيدان الهلال ع ١٩ ص ٢٧٠—٢٧٣

على البلاد المقدسة ، وتوصل بالسياسة والملاينة مع المسلمين لدخول بيت المقدس من غير حرب . فقد لبس في سوريا الزي العربي ، وجعل مجلسه مجلس عام اسوة بملوك العرب وخاطب ملوك المسلمين بالتودد [1] فنجحت مهمته . ولكن رغماً عن ذلك استمر البابا على التشنيع بسمعته واشاع انه مات . فارغم فردريك على العودة الى وطنه وفي نفسه حب الانتقام .

شعر بذلك البابا وعلم ان مستعمرات فردريك في ايطاليا العربية نوسارا ولوسارا بوسعها وحدها ان تجهز له ثلاثين الف مسلم يتقدمون لقتاله ، فرأى من المصلحة ان يتحول الى مسالمته فحله من الحرم (٦٢٨هـ =١٢٣٠م) . وبدأت منذ ذلك الحين عظمة فردريك تظهر بما قام به من الاصلاح السياسي والادبي والاجتماعي بمساعدة العرب . ذلك الاصلاح الذي يضيق المقام عن تبيينه ، ولا يقل عن اعمال الدول في القرن العشرين .

ومن المؤكد ان امثال تلك المساعي الداعية الى التجدد كان من شأنها ان توسع شقة الخلاف بينه وبين الكنيسة ، فكرر البابا بسببها اصدار الحرم بحق فردريك ، وبث الدعوة لاثارة الرأي العام عليه . وحينئذ استأسد فردريك وارسل حملة من جنده المسلمين لقتاله ، ولولا موت البابا لما سلم من الاسر (٦٣٩هـ=١٢٤١م)

غير ان سلطة البابوية بما لها من تأييد الرأي العام كانت لاتزال فوق كل سلطة ، فلما صار عرش البابوية الى اينوسان الرابع بعد نحو عامين من ذلك جدد حرم فردريك واشهر عليه حرباً صليبية لم يطقها ، فقضى

---

(١) Drapper. Hre int. de l'Europe Tıı p. 352

نحبه في ايطاليا يائساً (١)

مات المصلح الكبير ، ولكن المبادئ التي ايدها لم تمت بعده ، وانما تقمصت روحها في انصاره وفي التلامذة الذين نشأوا في عهده . وعاشت بما تعهدها بـه العلماء الغرباء من عرب ويهود الذين انتشروا بتشويقه وترغيبه في انحاء اوروبا ، وتولوا امر التعليم والتطبيب فيها . وكان لهذه المبادئ ولهؤلاء العاملين الفضل في رفع شأن العلمانيين ، وتأييد السلطـة الدولية .

ظهور الملكية على البابوية

ما اكثر الامثلة في التاريخ على انقلاب الناس على من يفشل ولا سيما في المسائل العامة سواء كان مقصراً ام لا . من ذلك مـا حدث في العالم المسيحي ضد الكنيسة لمـا فشل مشروع الحروب الصليبية : فان الناس شرعوا يتهامسون منتقدين الذين اثاروهـا ، ومكبرين تطلباتهم المستمرة ، ونخص منهم بالذكر الملوك . فانهم استثقلوا وطـأة السيادة البابوية عليهم ، وتصرفها في شؤون شعوبهم على حسب اهوائها . واستوى في النقمة عليها الاتقياء منهم والمجددون : فان لويس التاسع ملك فرنسا الملقب لتقواه بالقديس انضم الى القائلين بوجوب تحديد نفوذ البـابوية ، وتنغص لانسياب اموال رعيته الى روما فمنع استيفـاء تلك الضرائب التي وضعها البابوات على بلاده وكادت تؤدي بها الى الخراب (٢) . امـا

---

(١) Drapper. Hre du dev. int. de l Europe Tu p. 357-360

(٢) Drapper. Hre du dev. int. de l Europe Tu p. 369-370

ادوارد الاول ملك انكلترا فانه لم يقتصر على ذلك بل امر بان تستوفى الضرائب من الاكليروس . ولما علم بامتناعهم عن امتثال امره اذن بان لاتسمع المحاكم قضاياهم استناداً على ان من لايؤدي المغارم لاحق له بالحماية ، فاضطرهم للرضوخ

وحذا فيليب الحسن ملك فرنسا حذو معاصره ملك انكلترا فاشتبكت بينه وبين البابا بونيفاس الثامن خصومات شديدة ، وحاول البابا خلعه . ولكن الافرنسيين وقد صاروا على بصيرة من امرهم ، ضمنوا لعاهلهم الفوز النهائي [1] ، فتمكن من ان ينقل من روما الى مدينة افينيون في فرنسا مقام البابوية ، وان يجعلها بذلك تحت سيادته (٧٠٨هـ=١٣٠٨م) فتم للسلطة الزمنية الانتصار على السلطة الاكليريكية .

انشقاق الكنيسة وضعف نفوذها

كان لتغلب فيليب الحسن على البابا ونقله الى افينيون كرسي البابوية تأثير عظيم . فهو فضلاً عن اضعافه ماقر في قلوب المسيحيين من اكبار شأن البابوات ادى الى الشقاق بين الافرنسيين والطليان ، كما بعث على انقسام الكنيسة الغربية ، فتسنى في اثناء تلك المنازعات لآل عثمان ان يبسطوا اسلطانهم على اوروبا الشرقية .

على ان غريغوريوس الحادي عشر ولئن رجع بمقام البابوية الى روما (٧٧٩هـ=١٣٧٧م) الا انه لم يبق بوسعه جبر ما كسر من معنويات هذا

---

(١) E. granger. Petite Hre. universelle p. 97

المقام بسبب انتقاله منها اولاً وثانياً ، ولا جمع ما تفرق من قلوب الاكليروس انفسهم وتنافر بتأثير العنصرية والسياسة .

وقد تجلى هذا الاختلاف على اثر موته : فلما انتخب اوربان السادس خلفاً له انشق خمسة عشر كردينالاً معظمهم افرنسيون وبايعوا كليمان السابع على ان يكون مقامه في افينيون . وتقسمت الدول الاوروبية بين الاثنين وحدث ما يسمونه الانشقاق الغربي الكبير (١٣٧٨ —١٤١٧م) . وكان حسن الطالع لايزال يخدم آل عثمان ، فلما حاول فريق من اركان اوروبا اعادة وحدة المقام الرسولي ، وخلعوا كلا البابوين ، حينما لم يتمكنوا من اقناع احدهما بالاستقالة ، وعينوا اسكندر الخامس مكانهما ، ابى المخلوعان النزول على حكمهم فاجتمع وقتئذ ثلاثة بابوات للمسيحيين في آن واحد

وقد دامت هذه الفوضى في اوروبا ، والترك في تقدم ، الى ان عقد مجتمع كنستانس (١٤١٤— ١٤١٨م) فتقرر به اعتزال البابوات الثلاثة ومبايعة مارتان الخامس

غير ان روح الانشقاق كان قد تأصل بين الاكليروس ولم يمض على مجتمع كنستانس الاعشرون عاماً حتى عاد الاختلاف بينهم : فقد اراد الاباء تقييد هذا البابا في مجتمع بال ، فشب بينهم وبينه خصام ادى الى هجرته عنهم الى مدينة فلورنس ، فانتخبوا فيلكس الخامس خلفاً له . غير ان البابا مارتان لم يذعن لهم وانما عقد مجتمعاً في مقره الجديد حرمهم فيه

فعاد بذلك انشقاق الكنيسة ، ودام الى سنة ١٤٤٩ م [١]

وحينئذ تمت وحدة الكنيسة النهائية ، اجل تمت ولكن بعد ان فقدت سلطانها ، وسمحت للشعب الذي كان لا يجسر من قبل ان يحلل اعمالها باعتبارها مقدسة ، ان يفكر في اصلاحها . وفضلا عن ذلك فانها تمت بعد ان اوشك آل عثمان ان يقيموا امبراطوريتهم على انقاض الامبراطورية البيزنطية

خلاصة المساعدات المعنوية

التي حصلت لآل عثمان في اوروبا الكاثوليكية

قال رينان « حدث بعد الحملة الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على ابواب تونس ، حركتان واضحتان من جهتين مختلفتين الاولى : انحطاط العالم الاسلامي ، والاخرى نهوض العالم المسيحي . لان العلوم الاسلامية لما لقحت جراثيم الحياة في جسم البلاد الاوروبية انطفأت جراثيم حياتها واخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علواً وهبوطاً » [٢]

وسرعان ما شعرت الكنيسة بمغبة فعل تلك الجراثيم فخفت لقتلها . وظهرت في البداية بمظهر الفائز ، ولكنها في الحقيقة اوجدت لها بما اتته من قسوة في هذا السبيل اعداء كثيرين في الخفاء . ثم احرجت الملوك فاخرجتهم وجعلتهم انصاراً لخصومها

وقد لخص رينان تطور حال الحرب بين الاكليريكيين والعلمانيين فقال :

---

(١) Blanchet Hre. du moyen âge p. 288-297

(٢) المقدسي تاريخ علم الادب ص ٩٧

« فمنذ القرن الثالث عشر الى السادس عشر ، حينما اخذت روح العلم تستيقظ في البلاد اللاتينية على اثر درس كتب ارسطو وابن سينا ، نجحت الكنيسة المجهزة بالقوة العمومية في كسر عدوها . غير ان الاكتشافات العلمية في القرن السابع عشر صارت وافرة الازدهار حتى لم يعد القضاء عليها ميسوراً .

ان الكنيسة كانت قوية جداً حتى استطاعت ان تقلق حياة غاليلي ، وان تضايق ديكارت . ولكنها لم تعد لتقوى ان تمنع اكتشافاتهما من ان تصبح شريعة العقل الذي كان له الانتصار النهائي في القرن الثامن عشر الى حد انه كاد لايبقى رجل متعلم يصدق بما وراء الطبيعة [1] »

ويجب علينا ان لا نمر على هذا البحث من غير ان نشير الى فردريك الثاني الذي كان اول المجاهرين من الملوك بضرورة اقتباس افكار العرب وعلومهم ، فضلاً عن تقاليدهم ، والذي كان اجرأ المقاومين الاولين للسلطة الاكليريكية

وهو وان فشل سياسياً الا انه فتح باباً كان موصداً وترك للملوك بعده خطة النجاح بدخولهم فيه حتى اذا تمت لفيليب الحسن الغلبة على البابا بونيفاسيوس الثامن ، ونقل الى افينيون مقام البابوات انهارت منذ ذلك مكانة كانت لهذا المقام فوق المكانات البشرية ، وتلاشت سيادته السياسية . وبينما كانت جراثيم الحياة المدنية تنتشر في العالم الاوروبي كان العالم الاسلامي يتدهور كما قال رينان . ولكن تدهوره كان من جهة العلم فحسب . اما من حيث القوة المادية فقد قيض له وقتئذ امة كانت قريبة من اعتناقها الاسلام فتحمست لخدمته

---

(١) E.Renan. Marc Aurèle et la fin du monde Antique p.60

ونشره فجددت عهد عظمته السياسية .

تلك هي امة الترك ونخص منها بالذكر آل عثمان . فقد كان من حسن حظهم ان انشأوا دولتهم في اثناء انقلاب الافكار واخذها بالتجدد في اوروبا ، وبعد ضعف نفوذ الكنيسة . وتوغلوا بالفتح في خلال الانشقاق الذي اصاب البابوية . ولذلك فقد تسنى لهم ان يسلموا من اتحاد اوروبا عليهم . لان البابوية ذات الصوت المسموع من قبل اصيبت منذ ان قضي عليها بالانتقال الى افينيون قسراً (١٣٠٨م) بمصائب اخصها الانشقاق وتعدد البابوات . مصائب استمرت الى سنة ١٤٤٩م [١] فاتى عليها نحو قرن ونصف قرن وهي لاتفكر في غير اصلاح شؤونها ، واذا ما نبهها خطر آل عثمان فانها كانت تجتنب الدعوة الى حربهم خوفاً من الفشل . لان تأثير حبوط مشروع الحروب الصليبية كان لايزال ماثلا لعيون الناس

على ان المقام البابوي ولئن تخلص بعد ذلك من هذه الفوضى الا انه اضاع كثيراً من نفوذه ، فضلاً عن ان حال اوروبا الروحية ، ولاسيما مذ فتحت اميركا واستولى آل عثمان على القسطنطينية ، اصبحت غير ملائمة لاستجابة دعوة الداعين الى حروب دينية . وزد على ذلك ما كان لثورة لوثير الاصلاحية التي حدثت في عهد الفاتحين العظيمين ياوز سليم وسليمان القانوني من التأثير على البابوية ، ومن تكثير المشاكل الاوروبية [٢]

---

(١) انتقل مقام البابوية الى افينيون ١٣٠٨م وعاد لرومة ١٣٧٧. انشق مقام البابوية الى اثنين ١٤١٨ وحدث الانشقاق الثاني ١٤٣١ وتمت الوحدة ١٤٤٩م

(٢) H. lictenberger, l'allemagne moderne p. 201

ومع ذلك فان استفحال خطر آل عثمان ، وما حصل في اوروبا من الضجة حينما دخلوا عاصمة البيزنطيين وقضوا عليهم خدم المقام البابوي: لانه عمل على ان يلتف حوله عدد من الدول للتآمر على الترك فانتعش صوته ، وتمكن من ان يجهز نحو عشر حملات دولية لهذه الغاية ، ولكن هيهات فقد اذنت الفرصة بالفوات، ولم يعد ليغني عنهم اتحادهم شيئاً بعدما بلغت الامبراطورية العثمانية ما بلغت من البأس والسلطان



٨

ما الذي ساعد على فلاح العثمانية

اتينا في الاجزاء السبعة السابقة على الاسباب التي مهدت السبل لظهور وتقدم آل عثمان ، ونختم البحث في هذا الجزء الثامن بايراد الامثلة على عظامة الشأن التي بلغوها الى نهاية عهد الارتقاء واوائـــل عهد الانحطاط الذي هو موضوع الكتاب الثاني

فهرست الجزء الثامن

الجزء الثامن

الى اي حد بلغت عظمة آل عثمان ؟

كان عهد سليمان القانوني خير عهود سلاطين آل عثمان ازدهـارًا ، واوفرها آثارًا للعظمة ولذلك ولما اصاب الامبراطورية العثمانية بعده من الاخذ بالضعف ، عـده المؤرخون منتهى الارتقاء العثماني ومبدأ انحطاطه .

بيد انه لما كان الازدهار والعظمة لايحصلان ولا يتلاشيان فورًا ، بل يقتضي لذلك زمن ، فانا لانقتصر في الكلام عـلى سلطنة سليمان القانوني ، وانمـا نتعرض لـما كان قبلها وما جاء بعدها ، لما حواه حكم اسلافه من عظمة الشأن ، ولما هو معلوم من ان بقايا هذه العظمة لبثت بقوة الاستمرار تظهر في ملك خلفائه في اثناء ما كانت عوامل التأخر تفعل في جسم دولتهم فتؤدي بها الى الاضمحلال

عظمة السلطنة قبل القانوني

« من ٦٩٩ هـ = ١٢٩٩ م الى ٩٢٦ هـ = ١٥٢٠ م »

لم يأت على سلطنة آل عثمان جيل واحد حتى عظم شأنهـا ، وذعر الشرق والغرب منها . مات عثمان مؤسس السلطنة ، وكانت عينـاه لا تكادان تتحولان عن اوروبا . مـات وفي نفسه حسرة على عدم بلوغ فتوحاته الحد الذي كان يريده . ولما خلفه ابنه اورخان لم يحـل

البوسفور بينه وبين تلك الاماني ، فقفز فوقه الى اوروبا على مراكب اختلسها من الاعداء. وبعد موته ترك الى ولده مراد خداوندكار ان يحقق تلك الرغبات.
ورغماً عن اجتماع بعض الدول الاوروبية عليه فقد تسنى له ان يستولي على مكدونيا وان ينقل الى ادرنة عاصمة السلطنة ، عدا اخضاعه كلاً من البلغار والصرب وبسط هيبته على الامبراطورية البيزنطية. وقد بلغ من عظمة السلطنة في ايامه انه لما عاد عاهل بيزنطة خائباً ، ولم يستجب الغرب دعوته الى حرب الترك على رغم اعترافه بضم الكنيستين ، كفر عن عمله هذا بايفاد بكره تيودور الى السلطان ليخدم في الجيش العثماني [١] ويكون بمثابة رهن .

اما في آسية الصغرى فقد دان لمراد خداوندكار ايضاً الامراء كافة وارتعدت فرائصهم منه فرقاً . فان امير القرمان ، وهو اعظمهم شوكة ، صار يؤدي لآل عثمان الجزية . وان امير تكية حينما بلغ مراد جواره وسمع عنه انه قال لما فووض بشأن اكتساح هذه الامارة : « ليس للاسود التعرض للذباب — الا تدرون انه ليس لامير تكية غير استينوس واضاليا . » فما كان من هذا الامير ، وقد ادرك اشارة مراد ، إلا ان تخلى له فوراً عن سائر مملكته ليحتفظ بتينك المدينتين [٢]

ولما افضت السلطنة الى بايزيد بن مراد ، كان صاعقة على الأعداء كما لقبوه بحق ييلديرم وذلك بعد ظهوره على الجيوش الاوروبية المجتمعة عليه بدعوة البابا وانتصاره عليهم في واقعة نيكوبولي [٣] (٧٩٨هـ =

---

(١) Lavallée, IIre de la Turquie T1 p.210

(٢) idem p. 211

(٣) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٥٠

١٣٩٦م) ونال لذلك ايضاً تقدير الخليفة العباسي في مصر ، فمنحه لقب سلطان اقليم الروم

ولقد كان الكنت دي نيفر الفرنسي في جملة اسرى هذه الواقعة ، فلما اطلق سراحه اقسم بانه لن يعود لمحاربة السلطان فقال له يلديرم بايزيد :

« انت في حل من قسمك ، ولك ان ترجع الى قتالي اذ لا احب على نفسي من حرب اوروبا والانتصار عليها ! [١] »

وكان يلديرم بايزيد ميالاً للفخفخة والبذخ واتخاذ شنشنات القياصرة ، فجعل لسلطنته ابهة لم تكن لخلفائه ، وقلده شعبه في ذلك ، والناس على دين ملوكهم.

وقد اغرق اسرى الفرنج في وصف اعجابهم بموكب السلطان لما نهض للصيد بعد واقعة نيكوبولي فقال . صاحبا تاريخ العالم :

« ليس في الامكان الافصاح عن مقدار اعجاب فوارسنا لما شاهدوه من مظاهر العظمة الشرقية في موكب تلك النزهة الملوكية : عقود الالماس كانت اطواقاً لاجياد النمور . وفاخر الاطلس كان اجلة للكلاب السلوقية . وما ادراك ماهو مقدار تلك الكلاب ؟ وحسبك ان تعلم ان عدد الساسة القائمين عليها بلغ ستة آلاف يقسمون الى خمس وثلاثين كتيبة ! [٢] »

هذا وقد بلغ من هيبة يلديرم بايزيد على الامبراطورية البيزنطية انه لما ابى حاكم ألاشهر البيزنطية ان يسلمها اليه خف الامبراطور نفسه مع ولده عمانويل واشترك مع الجيوش الزاحفة لاستخضاع ذلك العاصي ،

---

(١) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية العثمانية ص٥٠

(٢) Jouannin & Vangaver. L'univers, Turquie p. 44

ثم ترك ولده المذكور في حاشية السلطان رهناً على الطاعة والخضوع .
ولما افضت الامبراطورية الى عمانويل هذا رضي بان تقام في القسطنطينية محلة اسلامية ، ومسجد ومحكمة . وتعهد بان يؤدي جزية الى آل عثمان قدرها عشرة آلاف دوقة ذهبية كل سنة[1]

وبينما كان يلديرم بايزيد يمني النفس بفتح روما[2] عاصمة قداسة البابا ، فاجاه تيمورلنك بتلك الحملة التي قضت على سلطنته واماتته قهراً سنة (٨٠٤ هـ = ١٤٠٢ م)

ثم نشأت الدولة العثمانية نشأةً جديدة فجمع شتاتها السلطان جلبي محمد ، ورفع بنيانها مراد الثاني ، وعمل الاثنان على تمهيد الاسباب لعظمة محمد الفاتح

ولا يخفى ما وقع في اوروبا من الرعب والاضطراب لما سقطت القسطنطينية في حوزة محمد الفاتح ، وما اصابها من القلق لما ولى هذا السلطان وجهه شطر الغرب مبتدأً بكرواتيا وترنسلفانيا . اجل ان ذلك العاهل اقام قيامتها حتى انها لم تكد تتبلغ خبر موته الا واعتبرت نفسها قد انقذت من خطر شديد : فامر البابا بان يحتفل بعيد ، وان تقام صلوات الشكر مدة ثلاثة ايام[3]

وما شعرت اوروبا بميول خلفه بايزيد الثاني السلمية إلا وتهافتت على خطب وده ، وفي مقدمتها قداسة البابا اسكندر السادس ، واستمرت

---

(١) احمد راسم . رسملي وخريطه‌لي تاريخ عثماني ج ١ ص ٩٥

(٢) Hre de l'empire Ottoman p.140

(٣) Lavailée. Hre de la Turquie T1 p. 275

العلائق بينهما على وئام في عهد خلفه ايضاً ياوزسليم [1] . لان هذا السلطان حول وجهة الفتح الى آسيا . وقد توفق في استيلائه على البلاد العربية وفي الانتصار على فارس ودخوله تبريز عاصمتها ، وفضلاً عن ذلك فقد اضاف الى عظمة السلطنة السياسية ، السيادة الدينية بنقله من القاهرة الى القسطنطينية مقام الخلافة واستحواذه عليه

عظمة السلطنة في عهد القانوني

«من ٩٢٦هـ=١٥٢٠م الى ٩٧٤هـ=١٥٦٦م»

نظر السلطان ياوز سليم الى خريطة الارض مرة فاستصغرها وقال : « هل تسع هذه الارض اكثر من ملك واحد؟ »

ولما خلفه ولده سليمان القانوني ورث مطامعه ايضاً في تدويخ العالم ، ولكنه اكتفى من الشرق بما حصل عليه والده منه ، وعاد الى خطة اجداده الى اكتساح الغرب ، ودخل بلغراد وما حولها من البلاد التي تعتبر باب المجر (٩٣٧هـ=١٥٢١م)

بيد انه كان في هذه المرة وراء المجر قوة ما فوقها قوة . هي امبراطورية شارلكان ، صاحبة السيادة البرية بجمعها بين المانيا والنمسا وايطاليا وهولاندا واسبانيا مع مستعمراتها الاميركية ذات الكنوز . وصاحبة السيادة البحرية بجمعها بين برشلونة ونابولي ومينوركا وصقلية واوران ، وبسيطرتها على جنوا وفلورنسا ، وبمحالفتها البندقية التي اهدت اليها جزيرتي كورفو وكريت

---

(١) نشر رسم ياوز سليم في الصحيفة ٢٦٩

انها وايم الحق قوة لاتناضل ، قوة اغرت شارلكان مدة واملته بحكم العالم. ولكن الحظ وحده كان فوق هذه القوة : فقد كان لايزال خادماً اميناً لآل عثمان ، فذلل لسليمان الصعاب ومهد له سبل الاسباب حتى تناول من شارلكان سيادة البر والبحر .

فقد وقعت في ذلك الحين تلك الخصومة الشديدة فيما بين شارلكان امبراطور المانيا وفرنسوا الاول ملك فرنسا ، واشتبكا في اربعة حروب دامية . فعرف سليمان ان يستثمر ذلك الخصام

تغلب شارلكان على فرنسوا واسره في واقعة بافي في ايطاليا ١٥٢٦م، واستمر يكتسح بلاده حتى بلغ مدينتي مرسيليا ومو [١] وحينئذ لم يبق على فرنسا الا ان تستنجد بآل عثمان . ولما اراد شارلكان ان يحول بينها وبينهم وارسل وفداً يطلب محالفة سليمان اعرض عنه هذا السلطان وبالغ في اكرام رسول فرنسا . وبدافع المصلحة تناسى ما اقترحه فرنسوا قبيل ذلك في مؤتمر كامبري بشأن التحالف لتقسيم تركيا .

وكان ذلك الرسول يحمل كتاباً جاء فيه على رواية صولاق زاده :

« فيهاجم البادیشاه العظيم ملك النمسا ويهزمه بينما نحن نكر على ملك اسبانيا ونثأر منه . وانا انرجو ونلتمس من امبراطور العالم العظيم ان يدفع هذا المتعجرف . وسنكون منذ الآن الخادم المعترف بالشكر للامبراطور العظيم سيد العصر . »

فجاوبه السلطان على ذلك بما نصه : [٢]

---

(١) E granger, petite Hre universelle p. 121

(٢) اثبت هذا الكتاب فريق من مؤلفي الافرنج وغيرهم ولايزال موجودا في مكتبة باريس الكبرى .

« الله العلي المغني المعطي المعين

« بعناية حضرة عزة الله جلت قدرته ، وعلت كلمته ، وبمعجزات سيد زمرة الانبياء وقدوة فرقة الاصفياء ، محمد المصطفى صلى الله عليه وسلم الكثيرة البركات ، وبمؤازرة قدس ارواح حماية الصحابة الاربعة ابي بكر وعمر وعثمان وعلي رضوان الله تعالى عليهم اجمعين ، وكافة اولياء الله .

« انا سلطان السلاطين، وبرهان الخواقين متوج الملوك، ظل الله في الارضين ،سلطان البحر الابيض ، والبحر الاسود ، والاناضول، والروملي ، وقرمان والروم وولاية ذي القدرية ، ودياربكر وكردستان واذربيجان والعجم والشام وحلب ومصر ومكة والمدينة والقدس وسائر ديار العرب واليمن ، وممالك كثيرة ايضاً فتحها ابائي الكرام واجدادي العظام بقوتهم القاهرة، انار الله براهينهم ،وبلاد اخرى كثيرة افتتحتها يد جلالتي بسيف الظفر[1] . انا السلطان سليمان خان ابن السلطان سليم خان ابن السلطان بايزيد خان

« الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا

« وصل الى اعتاب ملجأ السلاطين الكتاب الذي ارسلتموه مع تابعكم فرانقيان[2] النشيط مع بعض الاخبار التي اوصيتموه بها شفاهاً . واعلمنا ان عدوكم استولى على بلادكم ، وانكم الان مسجونون وتلتمسون من هذا المقام امور العناية للافراج عنكم. وكلما قلتموه عرض على اعتاب سرير سدتنا الملوكية واحاط به علمي الشريف على وجه التفصيل فصار بتمامه معلوماً . ولا عجب من سجن الملوك وضيقهم . فكن منشرح الصدر غير مشغول الخاطر . فان ابائي الكرام واجدادي العظام نور الله مراقدهم لم يكونوا تاركي الحروب لفتح البلاد، ودفع العدو . ونحن ايضاً سالكون على طريقتهم ، ونفتح في كل

---

(١) ان تعداد الالقاب والممالك كان سنة جرى عليها ملوك ذلك الزمن بما فيهم الغربيون كما يستفاد ذلك من سياق الحديث بالكلام عن كتاب شارلكان الى سليمان في الصفحة ٢٧٩

(٢) هو جان فرنجياني JFrangiyani من اشراف المجر توظف في بلاط ملك فرنسا

وقت البلاد الصعبة ، والقلاع الحصينة. وان خيولنا ليلاً نهارا مسروجة وسيوفنا مسلولة.
فالحق سبحانه وتعالى ييسر الخير بارادته ومشيئته

هذا واما بقية الاخبار والاحوال فتفهمونها من تابعكم المذكور فليكن معلومكم »
« حرر في اوائل شهر آخر الربيعين سنة اثنتين وثلاثين وتسعماية » [١] (١٥ شباط ١٥٢٦م)

ثم وفاءً بالعهد وجرياً وراء امنيته الاصلية بالتفرد في السيادة خف السلطان بنفسه في شهر نيسان من ذلك العام للحرب نجدة لملك فرنسا ، فابلى بلاء حسناً حتى اذاما كانت واقعة مهاج « Mohaez » الفاصلة ، التي جرح فيها ملك المجر لويس الثاني ، وتشتت على اثرها جيشه ، فتحت لسليمان ابواب المجر على مصراعيها فدخلها فاتحاً غانما ونصب عليها قرالاً من قبله جان جبولي J Zapoly منتخب اعيان بودابست [٢]

وكأن الامبراطورية الالمانية على رغم ما وقع في نفسها بعد ضياع المجر كانت تتحاشى ان تتمادى في الحرب مع تركيا ، ولذلك فان فرديناند ملك النمسا سرعان ما اوفد الى السلطان اناساً يلتمسون منه الاعتراف بعاهلهم ملكاً على المجر. فسخر سليمان بهم وبه ، وزجهم في السجن تسعة اشهر. ولما افرج عنهم واعادهم الى ملكهم زودهم بوعيد وقال لهم:

« ليس لمولاكم عندنا علائق مودة وجوار ، وانما سيكون له ذلك قريباً. قولوا له باني زاحف للقائه بكلما اوتيت من قوة وهناك امنحه ما يريد ، فليتهيأ لزيارتنا. [٣] »

واشتبك الجيشان على اثر ذلك في القتال فما ثبت فرديناند. واقتفى

---

(١) تاريخ جودت باشا ج ١ ص ٣٨٧

(٢) Hre de l'Empire Ottoman p. 226-227

(٣) احمد راسم رسملي وخريطه لي عثمانلي تاريخي ج ١ ص ٢٩٤ — ٢٩٩

اثره سليمان وحاصره في فينا. ولولا حلول فصل الشتاء وايشاك اتفاق المسيحية جمعاء عليه لما رجع عنها قبل ان يدخلها (١)

واصر سليمان بعد ذلك على حرب الامبراطورية الالمانية باغراء فرنسا ورغبة منه في كسر شوكة شارلكان . ولم تنجح لديه الوسائط السلمية التي لجأ اليها ملك النمسا مدة سنتين ، فاعاد الكرة على فينا . ولكنه تحول عنها الى استيريا وكارنتي في النمسا (٢) لما بلغه من استعداد شارلكان ذلك الاستعداد العظيم للقائه . ورجع الى القسطنطينية وهو على نية ان يتجهز للقتال

وتداركا لذلك عاد فرديناند الى التوسل للصلح ، وعزز توسله بكتاب ولاء الى سليمان من شارلكان . غير ان هذا الكتاب بعث على تفاقم الخلاف لان شارلكان او ردفيه ، في اثناء تعداد القابه لقب ملك القدس (٣) ولولا ما عرض وقتئذ من توتر العلائق بين تركيا وفارس لما نجح رسل فرديناند بتلافي ذلك وامضاء الصلح . وكان صلحاً طالما فصمه الخصام بينهما على الحجر كل حياة سليمان .

واما فارس فلم تصمد طويلاً لآل عثمان ، بل سرعان ما دخلوا عاصمتها تبريز للمرة الثانية ظافرين وفتحوا بغداد (٩٤١ هـ = ١٥٣٤ م)

ولما كانت اعمال اسطول شارلكان في تعرضه للجزر والشطوط البحرية

---

(١) احمد راسم . رسملي وخريطه لي عثمانلي تاريخي ج ١ ص ٣٠٢ — ٣٠٥

(٢) محمد فريد بك تاريخ الدولة العلية ٩٨ — ١٠٠

(٣) بديهي ان يثير هذا اللقب ثائرة سليمان وهو ما كان يلقب شارلكان ويخاطبه الا كملك لاسبانيا فقط ، كما انه ما كان يعترف بفرديناند الا كضابط لشارلكان !

في اثناء الحرب لاتزال خالدة في ذاكرة سليمان فانه اهتبل فرصه المعاهدة والمهادنة بينهما لتعزيز القوة البحرية، فعهد بقيادتها العامة الى خير الدين بارباروس. ولا يخفى ما بلغته بحرية تركيا في عهده من البأس ومن الشهرة ولاسيما بعد ان تغلبت قرب بره فيزا (١٥٣٨ م) على اسطول شارلكان وحلفائه الكثيرين الذي كان بامرة اندريا دوريا الطائر الصيت .

ولم يكن طورغود الذي خلف خير الدين على امارة البحر دون استاذه همة واخذاً باسباب ارتقاء البحرية العثمانية . كما انه ما كان اقل منه هيبة في اوروبا و كذلك يقال عن بياله بك الذي سمي بعدهما قبودان باشا : فانه وصالح بك بكلر الجزائر ، وطورغود بك بكلر طرابلس الغرب صاروا في البحر المتوسط ، وقد قبضوا على مسالكه ، كالغول المخيف . ولطالما فاجأوا الاسطول الاسباني الكبير فكبدوه الخسائر[1]

فتلك الانكسارات الفادحة التي حاقت شارلمان في البر والبحر لاشت امانيه الكبيرة، واقامت مقامها اليأس. فتخلى عن ذلك التاج العظيم الذي كان يقدر له ان يكون يوماً ما تاجاً لاوروبا كافة ، واعتزل الى مقربة من دير القديس العادل Juste (١٥٥٥م[2])

وهكذا فقد تسنى للامبراطورية العثمانية في حكم سليمان القانوني ان تجمع بين السيادتين البرية والبحرية، وبين السلطتين السياسية والروحية وبلغت حدود السلطنة في حكمه نهري الطونة وصاوا Sava شمالاً،

---

(١) Lavallée , Hre de la Turquie T1 p. 342-349

(٢) P. Larousse Dictionnaire p 979

ونبع النيل والمحيط الهندي جنوباً ، وسلسلة جبال القفقاس شرقاً ، وسلسلة جبال اطلس غرباً ، بما تزيد مساحتها على ٤٠٠ الف ميل مربع ، تقسم ادارتها الى ٢٥٠ سنجقاً و٢١ ايالة

واما في البحر فقد كان بحوزة الاسطول العثماني المؤلف من عدد يتراوح ما بين ٣٠٠ و٤٠٠ مركب حربي ، القسم الشرقي من بحرسفيد ، وكل بحور الادرياتيك ومرمرا وازاق والاسود والاحمر وفارس [1] .

وفضلاً عن ذلك فقد دخل ضمن حدود السلطنة المذكورة كل مدينة شهيرة في العالم القديم ما عدا رومه . اذكر من ذلك اثينه وكورنثيه وسبارطة وثيباس اليونانية والاستانة وانطاكية وسلوقية واستفان وبابل ونينوى وبغداد واورشليم ودمشق ومكة والمدينة والاسكندرية والقاهرة وممفيس وطيبة المصرية وقرطاجنة [2] وناهيك باشهر مدن فينيقيا

ولذلك فقد صارت السلطنة في عهد سليمان القانوني اعظم دولة في العالم . واصبحت دار ملكها مرجع وملجأ معتمدي الممالك

واذا اهملنا الاستدلال بسعة الملك في اخبار الحوادث السياسية التي حدثت في عهد ذلك السلطان العظيم براهين اخرى على تفوقها :
ان شارلكان الذي كان سيد الغرب والذي كانت اوروبا تنظر اليه نظرها لمنقذ المسيحيين ، ومرهب الكافرين [3] لم يقو مع ذلك على منافسة خصمه

---

(١) اليوزباشي محمد شكري . اسفار بحرية عثمانيه ج ٧ ص ٩٣ ؛

(٢) جريدة الهدى الاسبوعي ع ٤ س ٢ ص ٦ معرباً عن جريدة الورلد النيوركية

(٣) Lavallée , Hre de la Turquie T1 p . 325

سليمان القانوني و كفه عن الغزوات المتصلة ، فضلاً عن انه لم يجد سبيلا الى استرداد ما دخل في حوزة السلطان من بلاد المجر التي كانت تعتبر جزءاً من الامبراطورية الالمانية. مع ان سليمان كان يترفع عن ان يلقب شارلكان بغير ملك اسبانيا . ويصر على تقاضي جزية من فرديناند عما يبقى تحت حكمه من بلاد المجر

واما فرنسا صديقته وقتئذ فكانت تلقب سليمان ، في مخابراتها وعهودها تارة بالسيد الاعظم Grand Seigneur وطوراً بامبراطور العالم الكبير Le grand empereur du monde. ولما لقب سليمان صديقه فرنسوا ملك فرنسا بلقب باديشاه عد ذلك منحة كبرى لانه من الالقاب التي اختصوا انفسهم بها وكانوا يضنون بها على امبراطرة المانيا العظام .

هذا ما كان عليه حال آل عثمان مع دول الغرب. واما في الشرق فان فارس وان كانت اشد الدول باساً فهي مع ذلك لم تقو على دفع جنود السلطان عن عاصمتها فدخلوها ثلاث مرات ظافرين

لذلك فانا نردد بحق مع لافلليه قوله « سليمان الكبير ، المعظم ، الفاتح القانوني ، هذه الالقاب التي منحها له التاريخ ، ليست باهظة كثيراً على الرجل الممتاز الذى كان حكمه ازهر عصور تاريخ العثمانيين »

عظمة السلطنة بعد القانوني

(من ٩٧٤ هـ = ١٥٦٦ م الى ١١١١ هـ = ١٦٩٩ م)

كل ما تجاوز حده انقلب الى ضده : وهكذا فان حكم السلطان سليمان القانوني كما كان ارفع ايام آل عثمان مجداً وعزاً ، فقد كان مبدأ

انحطاطهم . غير ان عظمة السلطنة استمرت ظاهرة الى اجل بعيد بعد سليمان بقوة الاستمرار . وقد سترت تلك العظمة علائم الانحطاط مدة طويلة . وما انكشفت تلك العلائم إلا حين امضى آل عثمان صلح ستيفاتورك مع النمسا (١٠١٥ هـ - ١٦٠٦ م) فتخلوا وفقاً لمنطوقه عن كثير من التقاليد التي كانوا قد استأثروا بها . ولولا آل الكوبرلي العظام الذين تناوبوا على منصب الصدارة العظمى من سنة ١٠٧٠ الى ١١١٤هـ لتلاشت السلطنة العثمانية قبل حين .

غير ان هذه العائلة الكريمة كادت تعيد الى السلطنة شبابها ورونقها وتمحو مفعول صلح ستيفاتورك . ولكن « لكل اجل كتاب واذا جاء اجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون »

. . . .

ذكرنا في الفصل السابق كيف ان السلطان ياوز سليم استصغر كرة الارض على ملك واحد ، وكيف ان ابنه سليمان مات في سبيل تحقيق امنية ابيه . توفي وهو على حصار قلعة اسكتوار فاخفى الصدر خبر موته الى ان وصل ابنه سليم الثاني وتقلد القيادة العامة

غير ان امنية ياوز سليم قضت نحبها بوفاة سليمان ، إذ فضلاً عن عدم كفاءة سليم الثاني ، فقد كان خطر آل عثمان قد جمع الغرب عليهم ، وزادته نشاطاً واقعة ليبانت (١٥٧١م) البحرية التي حطمت فيها اساطيل دول الاتحاد المسيحي عمارة آل عثمان[1] .

(١) اشترك ضد تركيا في هذا القتال البحري اساطيل البابا واسبانيا والبندقية ومالطة والسافوا المتحدة .

وكادت السلطنة العثمانية ، على اثر هذا الانكسار ، وتجاه توثق ذلك الاتحاد عليها ، تتلاشى بسرعة لولا ان قيض لها رجل عظيم هو محمد صوقوللي باشا الذي تولى منصب الصدارة فملأ فراغ الدولة من سلطان كفؤ . وحسب هذا الوزير فخراً ما قاله لافلليه عقب ان اورد تاثير واقعة ليبانته المذكورة . قال :

« على ان ذلك الانتصار كان عقيماً للمسيحية ، لان اساطيلها انفرط عقدها قبل ان تتفق على الكرة الاخرى ، بينما كانت همة الصوقوللي قد استدركت الامر ، وبسرعة غريبة ، هي برهان على وفرة موارد هذه الامبراطورية ، عوضت البحرية العثمانية ما خسرته . وزيادة على ذلك فان وجود الصوقوللي على رأس هذه السلطنة جعلها كجبل لا يتزعزع امام العواصف مهما كانت شديدة مثل عاصفة ليبانته : فقد زار معتمد البندقية على اثر ذلك مقام الصدارة ليجس نبضها من جهة الصلح ، ففاجأه صوقوللي باشا بقوله : « أأتيت تتفقد شعورنا وتتجسس شجاعتنا بعد تلك الفاجعة ؟ .. فاعلم انا دونكم خسارة فيها . لانا باستيلائنا على قبرص قطعنا احد سواعدكم . اما انتم فلم تجزوا ، بتدميركم عمارتنا ، الا لحيــة . وان الساعد المبتور لا ينبت على حين ان اللحية اذا ما قصت تعود اكثر كثافة . »

وقد ايد صوقوللي باشا القول بالفعل ، وبلغ من اهتمامه بتجديد عمارة الدولة في سرعة ان وسع دور الصناعات من حدائق السرايا . ولما عرض عليه القبودان باشا تعذر تدارك المعدات التي تكفي لصنع ذلك المقدار الكبير الذي امر به جاوبه الصدر قائلاً : « ايها الباشا لا يوجد حد لثروة السلطنة واقتدارها . فنحن بوسعنا اذا اقتضى الامر ، ان نجعل حبال السفن من حرير ، وان نحيك اشرعتها من اطلس ! »(١)

وبمثل هذه الهمة الماضية وذلك الحزم الراسخ لم تمض على كارثة

(١) Hre de la Turquie T ı 161

ليبانت إلا ببضعة اشهر حتى خرج من القسطنطينية ٢٥٠ مركباً حربياً كاملة العدد، وشرعت تتحرى اساطيل الدول المعادية للاثار منها. وقد القى ذلك الاسطول الذعر في فؤاد البندقية، فانسحبت من تحالفها وامضت الصلح مع آل عثمان على ان تزيد الجزية الى ٣٠٠ الف دوقة

وهكذا فقد صدق ظن الصوقوللي حيث ترقب رجوع السلطنة الى نشاطها وعزها. بيد ان



محمد الثالث السلطان الذي كان في عهده مبدأ ظهور الانحطاط

الجماعات يرافق عهد كهولتها فشيخوختها عوامل ادواء وامراض لاتدفعها علاجات وقتية. من ذلك ما حاق السلطنة العثمانية في عهد مراد الثالث من تحكم الدخلاء النفعيين، واغرائهم السلطان على مكافأة ذلك الرجل الامين صوقوللي باشا بالتخلي والاهمال ليخلو لهم الميدان.

ومع ذلك فان عهد هذا السلطان لم يخل من الازدهار، ولم يحرم من الانتصار ولاسيما في فارس. غير ان تأثير اولئك الدخلاء بدأ يظهر للعيان،

ويقضي على ما في الاستمرار من قوة ، في حكم كل من محمد الثالث ، وحفيده احمد الاول بما اصاب المملكة من الفوضى الداخليـة ، ومن الحروب المشينة الخارجية .

ثم شرعت تركيا في التدهور والانحطاط بخطى واسعة في سلطنة كل من مصطفى الاول وعثمان الثاني وفي غرة عهد مراد الرابع . غير ان هـذا السلطان لم يلبث ان ظهر بمظهـر المحنك الجسور وتسنى له باخماده انفـاس الفوضى العسكرية ان يؤمن النصر على فـارس وان يقضي على الثورات الداخلية ولو ساعده الاجـل لأعاد الى السلطنـة ما كان لهـا من الازدهار في عهد سليمان القانوني . ولكن حظ آل عثمان كان قد ادبر ، فمات مراد الرابع شاباً ، وقامت قيامة الفوضى من بعده في حكم اخيه ابراهيم الاول وفي اوائل ايام ابنه محمد الرابع ، واستفحل امرها حتى اشرفت السلطنة على الانحلال .



« السلطان مصطفى الاول »

وحينئذ ظهر آل الكوبرولي ورفعوا بها الى مرتبة استبدلت فيها سرابيل الضعف بلباس الهيبة والجلال : تولى اولهم محمد باشا في العام التالي من سلطنة محمد الرابع ، ولما شب وترعرع هذا السلطان قدّر له خدماته الجلى واطلق يده في الدولة . وبلغ من نفوذه انه لما علم بمساعدة فرنسا للبندقية في دفاعها عن اكريت استقدم اليه سفيرها، فتمارض وجاء ابنه ، فامر الباشا بجلده وسجنه [1] ولما حضر معتمد من باريس للشكاية عليه لم يسمح له الصدر بمقابلة السلطان، وانما دفعته النكاية الى ان يزج السفير نفسه في الحبس وقد تولى كبر ذلك في



« السلطان عثمان الثاني »

حكم لويس الرابع عشر ، الذي كان عهده كعهد سليمان القانوني اكثر ايام فرنسا ازدهاراً . فجاء اقدامه الى هذا الحد في جملة الادلة على ما حصل وقتئذ لآل عثمان من الاعتماد على النفس .

---

(١) Jouannin et Vangaver, L'univers, Turquie. p 266.

ولما خلفه ابنه احمد فاضل باشا على مقام الصدارة (١٠٧٢هـ=١٦٦١م) فاق اباه بالكفاءة والتوفيق ، واراد ان يحيي عهد الفتح فرغب عن قبول عقد الصلح الذي طلبته النمسا والبندقية ، وزحف عليهما بجيش جرار فاكتسح المجر ومورافيا وسيليزيا . وما توقف عن التقدم واقتنع بوجوب التوقيع على ذلك الصلح الا حينما علم باتحاد الدول الكثيرة لدفعه استجابة لدعوة البابا اسكندر السابع [1]



« السلطان محمد الرابع »

وكانت فرنسا في جملة من لبى الدعوة فنقم عليها احمد فاضل باشا وحرمها من امتيازات ونفوذ في الشرق الادنى حصلت عليها بواسطة صداقتها لتركيا في سنين عدة . فوقع عليها هذا الحرمان اسوأ وقع ، فبادر سفيرها نوانتل لتدارك الامر . وقد روى لافلليه الفرنسي انه لما اشار هذا السفير بحضرة السلطان الى ثروة مليكه وقوته ، ووصف جنده لم يرق لكوبرلى باشا هذا التهديد الضمني فجاوبه

(١) Hre. de l'Empire Ottoman. p 275-330

باستخفاف قائلاً : «اجل ان امبراطور فرنسا عاهل عظيم ولكن سيفه لايزال جديداً .[1]»

وقد خرج الكوبرولي باشا من التلميح الذي ارسله في جوابه الى سفير فرنسا الى التصريح فالتهديد تجاه ملك بولونيا حينما تجاوزت حكومته على القوزاق الذين دخلوا طوعاً في حكم آل عثمان . وان كتاب السلطان الى هذه الدولة يبرهن على اي حد بلغ الترك من الاعتماد على النفس في عهد الكوبروليين : فقد جاء فيه :

« ان شريعتنا تأذن لنا بان نعتبرك حربياً وانا لقادرون حينئذ على ان نذيقك مغبة التحرش بالاسد الرابض . غير انا نريد ان نرمق ضعفك ، ونبدأ بعامل الشفقة بانذارك ونصحك بان تسحب سريعاً اجنادك من بلاد القوزاق ، وان تعتذر عما بدر منك . واذا ابيت تقضي عليك شريعتنا بالموت ، وعلى مملكتك بالخراب وعلى شعبك بالرق . وذلك فضلاً عما يلقى على عاتقك تجاه العالم من مسؤولية هذه المصائب [2]»

ولما ابى ملك بولونيا الا ان يحكم السيف كسر كسرة فادحة جعلته يرضى ان يوقع على صلح مشين الى حد ان شعبه انكره عليه وخف الى القتال حتى تغيرت شروط ذلك الصلح . فقيل وقتئذ ان مجد آل عثمان قد تجدد . غير ان الشاعر الذي قال : « وعند صفو الليالي يحدث الكدر » قد صدق في قوله ، فقد خسرت تركيا على اثر ذلك خسارة كبرى بموت احمد فاضل باشا (١٠٨٧هـ=١٦٧٦م) خسارة لم يعوضها خلفه في الصدارة ونسيبه قره مصطفى باشا : فقد كان بينهما بون شاسع . وكان على هذا

---

(١) Hre de la Turquie t II p 102

(٢) Cantemir t III p 136

الوزير ان يشرف على ما يحدث في اوروبا من التطور الروحي والسياسي قبل ان يحمل بقوة السلطنة جميعها ويعسكر بها حول فينا . ولو فعل لما اقدم على تلك الحملة التي كان انكسارهـا الهائل ملاشياً قوة السلطنة مادياً وادبيا ومنشطاً صوت البابوية للحرب الدينية .

فان حالة اوروبا كانت قد اختلفت عن عهد الفتح العثماني فتخلصت من معظم الموانع التي كانت تحول دون اتحادها على الخطر التركي . فتألبت حينئذ على محاربة آل عثمان كل من دول النمسا وبولونيا والبندقية ورهبنة مالطة والبابا وروسيا ، واطلقوا على تحالفهم التحالف المقدس ، وزحفوا عليها من كل صوب حتى كادوا يبلغون القسطنطينية .

وفي هذه المرة ايضاً كان الفضل لآل كوبرولي في انقاذ السلطنة: فقد تولى ثالثهم مصطفى بن محمد باشا مقام الصدارة ، فأتى على عجل بكثير من الاصلاحات الداخلية والاستعدادات العسكرية الامر الذي يسر له ان يسترد قسماً مما خسرته السلطنة ، حتى اذا بويع مصطفى الثاني (١١٠٦هـ=١٦٩٥م)، وكان جسوراً غيوراً اقتفى سنة اجداده الفاتحين في تولي قيادة الحروب، فاسعف مساعي وزيره الانقاذية وفرج ماعاً الضيق عن السلطنة المهددة، واستشهد ذلك الوزير في الدفاع عن وطنه .

وصمد خلفه كوبرولي حسين باشا في دفع الدول المتحدة الى ان توسطت انكلترا بين المتحاربين . وعقدت بينهما معاهدة كارلوفيتز (١١١٠هـ=١٦٩٩م)وهي المعاهدة التي ختم فيها على مجد آل عثمان، وانكشف من بعدها حال امبراطوريتهم وتفككت عرى رابطتها .

ولولا آل الكوبرولي الكرام لتدهورت تلك الامبراطورية قبل قرن ونيف من معاهدة كارلوفيتز ، ولولا هم لتمكن التحالف المقدس من ان يجليها عن اوروبا ويسترد منها القسطنطينية. لذلك كان على الترك وقد عمدوا الى رفع التماثيل لابطالهم ان يذكروا في مقدمة الذين يستحقون الاكرام آل الكوبرولي العظام ومحمد صوقوللي باشا

مظاهر العظمة في التقاليد والمعاملات

ان نجاح تركيا الحربي والسياسي رفعها الى رتبة سامية شخصت اليها الامم باعين الهيبة والوقار ، وجعلتها تلقي من عل على سائر الدول نظرات الاستهتار : فقد اجمعت اوروبا على تلقيب امبراطرة آل عثمان في مراسلاتهم بالسيد الاعظم Grand seigneur على حين ان اولئك السلاطين ما كانوا يضنون على ملوك الغرب بمثل هذا اللقب فقط ، بل انهم كانوا يتجنبون ان يلقبوهم بألقابهم المتبادلة بينهم والمتعارفة عندهم . واذا صحت رواية بعض مؤرخي الافرنج ، التي نعدها مبالغة ، من ان السلطان سليمان كان يكتب الى ملك فرنسا «اليك فرنسوا à toi François » مجرداً عن الالقاب ، اواذا ثبت ما اورده جودت باشا من انه كان يكاتبه «الى فرنسيس ملك ولاية فرنسا» نستدل من ذلك على ان ترفع السلاطين بلغ حداً بعيداً جعلهم يعتبرون الدول المعاصرة كافة من قبيل الامارات والاقطاعات .

على ان السلطان سليمان وان لقب فيما بعد فرنسوا المشار اليه بلقب

«باديشاه» غير انه لم يقدم على ذلك الا بدافع الصداقة، فقد قال لافاليه :

« واعتبرت هذه المنحة امتيازًا خاصاً بملك فرنسا ، لان لقب باديشاه مقدس عند آل عثمان ولم يمنحوه فيما بعد لعاهل مسيحي الا لقيصر روسيا سنة ١٧٧٤م . وكانوا يضنون به على امبراطرة المانيا ، ولا يعتبرون هؤلاء الا بمثابة ملوك المجر التابعين للباب العالي الذين يؤدون الجزية له عن يد وهم صاغرون . — وفضلًا عن ذلك فان آل عثمان لم يرضوا ان يعترفوا لامبراطرة المانيا بلقب قيصر روماني الا سنة ١٦٠٦م . واستمر سفراء المانيا يأتون في التشريفات بعد سفراء فرنسا اسوة بسائر الممالك .

«وكان يدوّن في سجلات اكثر الهدن التي عقدت فيما بين الباب العالي وملوك النمسا ما يأتي : « منحت هذه الهدنة عن تفضل من السلطان ابدي الانتصار الى ملك فينا . . . المغلوب دوماً [1] . »

ويظهر انه بلغ من ترفع السلطنة العثمانية انها كانت تفضل عقد الهدن ومنح الامتيازات على المعاهدات : يؤيد ذلك ماجاء في مذكرات دارفيو حيث قال :

« فالسيد الاعظم كان يرغب جدًا عن التقيد بمعاهدات مع عواهل النصارى تكبرًا منه غير معقول ومنسوب للشريعة بطلًا ، وكان يفضل على المعاهدات منح الامتيازات على اعتقاد ان الحق يبقى له وحده في نقضها متى شاء [2] . »

ومن هذا القبيل انفتهم وشموخهم عن عقد المحالفات معتبرين ان الملوك غير نظراء لهم . واذا ما وعدوا احدهم بالمساعدة يأبون تدوين الوعد مكتفين به مجردًا

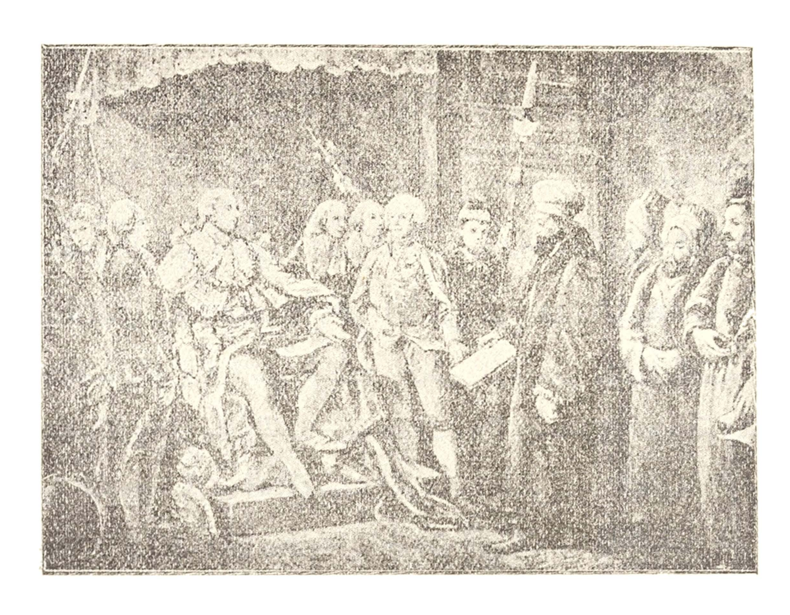
وكذلك كانوا لا يرضون بنصب سفراء لهم في عواصم الدول على

---

(١) Lavallée, Hre de la Turquie t I p 326

(٢) Mémoires du chevalier d'Arvieux t v p. 56

اعتقاد انهم في غنى عن سائر العالم ، وانه ما على رجال الممالك المحتاجة اليهم الا ان يحجوا الى القسطنطينية عاصمة الكون ، ويترقبون من الاوروبيين الاقبال على بلادهم للاتجار (١)



« استقبال الملك جورج الثالث يوسف اغا الكريدي »
« اول سفير عثماني في انكلترا »

اما سفراء الدول عندهم فكان عليهم ان يقدموا للسلطان والى كبراء حكومته هدايا ثمينة على سبيل الجزية السنوية . كما كان على وفود الممالك قبل مثولهم بين يدي السلطان ان يرفعوا الى قصره تلك الهدايا . واستمرت هذه العادة الى حكم مراد الثالث فكان اول من اذن لمعتمد اوروبي ان يتشرف بمقابلته بدون ان يسبق ذلك التقدمة المعتادة .

---

(١) Arminjon , Traité de droit international public p 710-715

واما طريقة مقابلة السفراء للسلاطين فلم تكن لتخلو ايضاً من اثار الاستعباد ، فقد كان يمسك اثنان من الحرس السلطاني الزائر من ذراعيه المكتفين ويتقدمان به حتى اذا ما دنا من العرش خر مقبلاً موطئ القدم (١)

تلك امثلة من ادلة العظمة في التقاليد والمعاملات التي كانت لآل عثمان في عصرهم الذهبي : وقد قضت على معظمها معاهدة سيفاتوروك عقب الانتصار العظيم الذي انتصرته النمسا وروسيا وبولونيا والبندقية على السلطنة العثمانية . وقد قال همر الالماني عن هذه المعاهدة :

« ان صلح ستيفاتوروك الذي لم يلفت انظار المؤرخين ملياً اليه ، والذي اسدل عليه صلح كارلوفيتز ستار النسيان ، له مع ذلك منزلة رفيعة في تاريخ الحقوق السياسية : فهو لاول مرة اقام حداً للفتح العثماني مهدد الغرب ، وطمس على التقاليد المرعية التي تشير الى سيادة وميزة آل عثمان ، وابطل الجزيات التي كان يؤديها السفراء لهم كل سنة ، وناهيك بتقريره العلائق الدولية من ذلك الحين بين تركيا وممالك اوروبا على قاعدة المساواة . وفضلاً عن ذلك فلقد تحررت في ذلك الصلح ترنسلفانيا بعض التحرر من حكم الترك ، وتخلصت المجر من اداء الجزية لهم . كما ان السلطان والصدر الاعظم راعيا في معاهدة ستيفاتوروك والتزما التقاليد المتبادلة بين الدول الاوروبية ، وسمحا للنمسا ان تدقق في تلك المعاهدة وتفهم مضمونها . وذلك خلافاً لما كان يحدث قبل من اضطرار مفوضيها ان يوقعوا على المعاهدات التي تكتب عادة باللغة التركية من غير ان يؤذن لهم تبين فحواها (٢) . »

اجل ان الانحطاط العثماني شرع يتجلى منذ هذه المعاهدة ، كما

---

(١) Lavallée Hre de la Turquie t II p 16

(٢) Hammer , Hre de l'Empire Ottoman 1774-1856

اخذ آل عثمان منذ ذلك الحين يتخلون عن عنعناتهم وشنشناتهم . فبدأ السلطان احمد الاول في مراسلة اوروبا على حسب الاساليب المرعية فيها ، وتبعه بقية السلاطين في التطور وفقاً لما تقتضيه الحالة السياسية . وربما كان ضنهم بنصب السفراء في عواصم العالم من اواخر ما احتفظوا به من تلك التقاليد القديمة لتعلق هذا الامر بهم خاصة . غير ان المصلحة دعتهم ايضاً لنبذ مثل هذه المكابرة ، فاقدم السلطان سليم الثالث على نصب اول سفير لهم يقيم في باريس (١٢١١هـ=١٧٩٦م) «وتلك الايام نداولها بين الناس . »

ملاحظة : لقد اسندنا كل رواية الى راويها غير ان لا ندحة لنا عن ان نعلن ان سبك العبارات وادماجها بعضها في بعض قضى علينا ان لانتقيد غالباً فيما نسنده الى قائليه إلا في المعاني . واما العبارات المنقولة بلفظها فقد ميزناها بان وضعناها بين هلالين .

جدول في تواريخ سلاطين آل عثمان [1]

اسم السلطان	وُلد	وُلي	خُلع	تُوفي	ملاحظات
عثمان الاول	١٢٥٨	١٢٩٩		١٣٢٦	خلف والده على الامارة (١٢٨٨) ثم اعان الاستقلال
اورخان بن عثمان	١٢٨١	١٣٢٦		١٣٦٠	مصلح اداري. اول من احتل طرفاً من اوربا
مراد بن اورخان	١٣٢٥	١٣٦٠		١٣٨٨	معروف بخداوندكار بسط الملك في اوروبا
بايزيد بن مراد	١٣٦٠	١٣٨٨		١٤٠٣	وهو ييلديرم بايزيد اول من باشر عادة قتل الاخوة واتخذ نخفخة الملوك
محمد بن بايزيد	١٣٧٩	١٤١٣		١٤٢١	ولقب جلبي محمد وهو معيد السلطنة بعد ان لاشاها تيموزلنك
مراد الثاني ابن محمد	١٤٠٣	١٤٢١		١٤٥١	حدث في عهده اول انكسار عظيم للدولة اصابها في حرب النمسا
محمد الثاني ابن مراد الثاني	١٤٢٩	١٤٥١		١٤٨١	محمد الفاتح سمي بذلك لفتحه القسطنطينية
بايزيد الثاني ابن محمد الفاتح	١٤٤٧	١٤٨١		١٥١٢	شعرت اوروبا بميله للسلم

(١) وضعنا هذا الجدول ليساعد القارئ الكريم على معرفة سني الحوادث التي يمر بها حيث اقتصرنا على ذكر حكم السلطان الذي حدثت في ايامه . وقد اعتمدنا في هذا الجدول التاريخ الميلادي لان اكثر ما ورد في الكتاب من سني الحوادث جاء على الحساب الهجري

اسم السلطان	وُلد	وُلي	خُلع	تُوفي	ملاحظات
					فبادرت لمهادنته
سليم الاول ابن بايزيد	١٤٧٠	١٥١٢		١٥٢٠	وهو ياوز سليم الذي استخلص الخلافة له ولخلفائه
سليمان بن ياوز سليم	١٤٩٤	١٥٢٠		١٥٦٦	الموصوف بسليمان القانوني لوضعه النظم العثمانية
سليم الثاني ابن سليمان	١٥٣٣	١٥٦٦		١٥٧٤	اول سلطان لم يكن كفوءً فعاش متخنثاً
مراد الثالث ابن سليم	١٥٤٦	١٥٧٤		١٥٩٦	ظهر في عهده الانحطاط بصورة جلية
محمد الثالث بن مراد	١٥٦٦	١٥٩٦		١٦٠٣	اختل الجيش في حكمه بالدخلاء وفسد الانكشارية
احمد الاول ابن محمد	١٥٩٠	١٦٠٣		١٦١٧	اول من استبقى على الاخوة فصار العرش يتنقل الى غير الابناء. واوصى الى اخيه بالملك فصار التوارث على قاعدة الارشد فالارشد
مصطفى الاول ابن محمد	١٥٩٢	١٦١٧	١٦١٨	١٦٣٩	عاد للسلطنة ١٦٢٢ بعد خلعه وخلع ثانية ١٦٢٣
عثمان الثاني ابن احمد	١٦٠٤	١٦١٨		١٦٢٢	أعدمه الانكشارية لعزمه على اباداتهم
مراد الرابع ابن احمد	١٦٠٩	١٦٢٣		١٦٤٠	اول من مات عن غير عقب من السلاطين
ابراهيم الاول ابن احمد	١٦١٥	١٦٤٠		١٦٤٨	اول من جهز المراكب بالمدافع

اسم السلطان	وُلد	وُلي	خُلع	تُوفي	ملاحظات
					خنقه الانكشارية
محمد الرابع ابن ابراهيم	١٦٤٧	١٦٤٨	١٦٨٧	١٦٩٢	آخر من حاصر فيينا من السلاطين فدعا ذلك لتحالف اوروبا وانكسار تركيا المشين
سليمان الثاني ابن ابراهيم	١٦٤٢	١٦٨٧		١٦٩١	رجاه الناس لقبول السلطنة وكان منكباً على العلم
احمد الثاني ابن ابراهيم	١٦٤٣	١٦٩١		١٦٩٥	رتب الجزية على ثلاث درجات وكانت واحدة
مصطفى الثاني ابن محمد الرابع	١٦٦٤	١٦٩٥	١٧٠٣	١٧٠٣	اضاع المجر وأزوف
احمد الثالث ابن محمد	١٦٧٣	١٧٠٣	١٧٣٠	١٧٣٦	مؤسس دار الطباعة الاولى في تركيا
محمود الاول ابن مصطفى	١٦٩٦	١٧٣٠		١٧٥٤	سمى مفتي استامبول شيخ الاسلام وضرب المداليات
عثمان الثالث ابن مصطفى	١٦٩٦	١٧٥٤		١٧٥٧	عمل على اصلاح الاخلاق
مصطفى الثالث ابن احمد	١٧٢٦	١٧٥٧		١٧٧٤	مؤسس المدارس للفنون الحربية، ومنشيء المحاجر الصحية
عبد الحميد الاول ابن احمد	١٧٢٤	١٧٧٤		١٧٨٩	خسر القرم واول من اطلق الحرية لولي العهد
سليم الثالث ابن مصطفى	١٧٦٢	١٧٨٩	١٨٠٧	١٨٠٨	باشر تنظيم الجيش على النسق الحديث فخلع لذلك
مصطفى الرابع	١٧٧٩	١٨٠٧		١٨٠٨	قتل في نفس العام الذي قتل فيه سلفه

اسم السلطان	وُلد	وُلي	خُلع	تُوفي	ملاحظات
محمود الثاني ابن عبد الحميد	١٧٨٤	١٨٠٨		١٨٣٩	اباد الانكشارية واسس المكتب الطبي وله اصلاحات جمة ولا سيما في الجيش
عبد المجيد الاول ابن محمود	١٨٢١	١٨٣٩		١٨٦١	ادخل عادة الاستقراض من اوروبا وجعل الجندية اجبارية ونشر التنظيمات
عبد العزيز ابن محمود	١٨٣٠	١٨٦١	١٨٧٦	١٨٧٦	منح الشركات الاوروبية الامتيازات، وخلع بدسائس الدول ومات منتحراً
مراد الخامس ابن عبد المجيد	١٨٤٠	١٨٧٦	١٨٧٦	١٩٠٤	خلع متهماً بالخلل العقلي
عبد الحميد الثاني ابن عبد المجيد	١٨٤٤	١٨٧٦	١٩٠٩	١٩١٨	اعلن الدستور اولاً وثانياً وخلع متهماً بانه يعاكسه
محمد الخامس ابن عبد المجيد	١٨٤٤	١٩٠٩		١٩١٨	محمد رشاد معاصر الحرب العالمية تغلب عليه الاتحاديون
محمد السادس ابن عبد المجيد	١٨٦١	١٩١٨	١٩٢٢		محمد وحيد الدين اقاله مصطفى كمال رئيس الجمهورية
عبد المجيد ابن عبد العزيز	١٨٦٩	١٩٢٢	١٩٢٤		آخر السلاطين من آل عثمان الكرام الذي أجلته حكومة انقرة مع عائلته كافة واعلنت الجمهورية التركية مكان السلطنة العثمانية .

فهرست الرسوم والخرائط

فهرس الجداول

تصحيح الخطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢	٨	يتحرى عن	يتحرى عواملها
٣	٩	ثقاة	ثقات
٩	٣	بعيدتان	بعيدتين
١٠	١٢	تتخد	تتخذ
١٦	٤	انتصر العرب	انتصر فيه العرب
١٦	١٩	مليونا	مليون
١٧	١	كلاً	كل
١٨	١٥	اخو	اخي
٢٣	١	فيأس	فيئس
٢٥	١٧	لقى	لقي
٣٤	١٤	كمى	كما
٣٥	٢	بناءه	بنائه
٣٥	٧	اشناساً	اشناس
٣٥	٨	اتباحاً	اتباح
٣٥	٩	دنفشاً	دنفش
٣٨	١٣	أنهم	إنهم
٤٠	٧	ذواقتدار	ذا اقتدار
٤١	١٩	ذكي	زكي
٤٣	١٩	نمى	نما
٤٤	٢٠	ابي الفضل	ابا الفضل
٤٦	٥	المرادسية	المرداسية
٤٧	١٠	يستحوز	يستحوذ
٤٧	٢٠	الأختصار	الاختصار
٦١	١	ترو	تروي
٦٣	١٧	أمي	أُمي
٨٠	١٠	العلم	العالم
٨٨	٧	الأسماعيلية	الاسماعيلية
٨٩	٨	العباسين	العباسيين
٨٩	١٠	أزا	إنا
١١٢	٦	يختلطو	يختلطوا
١١٢	٧	وصفو	وصفوا
١٢٣	٨	محمد الفاتح	محمداً الفاتح
١٢٩	١٣	إن تأتيني	إن تأتني
١٥٢	٦	في	إلا في
١٥٣	٧	لفائدة	بالفائدة
١٥٥	١٨	ن	ان
١٦٣	٣	ارتصار	انتصار
١٨٣	١٨	للامير	للامير غز
١٩١	٥	اسكنهم	فاسكنهم
١٩٧	١١	ولأن	ولئن

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٠١	٩	تؤدي	تودي
٢١٦	١٢	يؤي	يؤَدي
٢١٧	٢	وقعتي	واقعتي
٢٣٩	١٧	الاسائات	الاساءآت
٢٤٦	١٧	افتنخيس	افتيخيس
٢٤٧	١٤	عدا عن	عدا
٢٤٨	١١	بمعص	ببعض
٢٤٨	١٤	لاتنسى	لاتنس
٢٥٦	٢	اسمائها	اسماؤها
٢٥٦	٨	باغوزجات	باغوذجات
٢٥٦	١٧	ايطيا	ايطاليا

فهرست الكتاب [1]

صفحة

(١) لكل جزء فهرست خاص في مقدمته ، يتبين منه ارتباطه بما قبله

صفحة

حصل سهو مطبعي في نوع خط العنوانين المدرجين في الصحيفتين رقم ٢٨ و٣١ فبدلاً من ان يطبعا بحرف رقعي اسوة ببقية العناوين الفرعية طبعا بحرف ثلث كبير (تحسين) فاقتضى الفات النظر اليه .

